
كتابى
١٧
الجزء الثانى
د. چيڤاجو
بوريس باسترناك
Looloo
www.dvd4arab.com
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
حلمى مراد


الجزء الثانى
د. جيڤاجو
بوريس باسترناك

- ١١ -

● كانت القرى التى بقيت بأعجوبة ، تبدو فى هذه المنطقة وكأنها جزر امن صغيرة فى محيط متلاطم من الخراب ، وبينما كان جيفاجو وجوردون فى طريقهما ذات مساء إلى بيتهما ، إذ بهما يريان فى إحدى القرى شابا من القوقاز ، يحوطه جمع سعيد .. كان القوقازى يقذف بقطعة نقود نحاسية فى الفضاء ، ليلتقطها كهل يهودى وخط الشيب لحيته ، وتهدل على كتفيه معطفه الطويل . وكان الكهل يفشل فى كل مرة فى التقاط قطعة النقود ، التى كانت تمر من أمامه ، ثم تسقط فى الوحل ، فإذا انحنى ليلتقطها لكزه القوقازى فى مؤخرته ، وضج المشاهدون يمسكون جوانبهم من الضحك .. كانوا يتسلون بهذا العمل . وكانت تسليتهم حتى الآن غير مؤذية ، ولكن من يستطيع ان يجزم بانها لن تنقلب إلى شىء من الخطر؟!

وكانت زوجة الكهل المسن تخرج ، بين لحظة وأخرى ، من كوخها ، وتعبر الطريق مولولة ، رافعة يديها إلى السماء فى رعب . بينما ظهرت فى نافذة الكوخ بنتان صغيرتان ، كانتا ترقبان عذاب جدهما وتبكيان .

وأبطأ السائق ليتيح للمسافرين أن يلقيا نظرة على ما يجرى هناك .. فنادى جيفاجو الشاب القوقازى ، ونهره ، وأمره ان يكف عن هذا العبث باليهودى الطاعن فى السن .. فقال القوقازى على الفور : « يا سيدى ، نحن لا نقصد به شرا .. إنما نحن نتسلى !! » .

ومضى جيفاجو وجوردون فى طريقهما إلى القرية التى يقيمان فيها .

وقال يورى فى الطريق : « إنك لا تستطيع أن تتصور ماذا تفعل الحرب بهذا الشعب اليهودى البائس . فالحرب تجرى فى غرب روسيا حيث حكم عليهم ان يقيموا . وكأنما لا تكفيهم الضرائب التأديبية المفروضة عليهم ، ولا خراب ممتلكاتهم ، ولا كل ما يحل بهم من آلام ، حتى يفرض عليهم أيضا احتمال الإهانات والسباب ، ومواجهة الاتهام الدائم بالافتقار للوطنية .. ولماذا يكونون وطنيين إذا كان العدو يكفل لهم هو أيضا كل هذا ، فإننا لا نزيد على أن نضطهدهم ، مثلما سيضطهدهم الآخرون .. إن هناك تناقضا فى صميم هذا الحقد الذى يصب عليهم . فهذا الحقد تثيره ، وتحث عليه ، نفس الأشياء التى كانت أدعى لاثارة الشفقة عليهم : فقرهم ، وكثرتهم ، وضعفهم ، وعدم قدرتهم على أن يدافعوا عن أنفسهم .. إنى أعجز عن فهم كل هذا .. كأنما هو قدر مشئوم كتب عليهم ! » .

وكان جوردون يسمع ، دون أن يجيب .

- ١٢ -

● وها هما مرة أخرى يرقدان فى قمرتيهما إلى جوار النافذة الطويلة المنخفضة ، ويتحدثان .. كان جيفاجو يروى لجوردون كيف رأى القيصر فى الجبهة . حدث ذلك فى أول ربيع قضاه يورى فى الجيش . وكان ملتحقا بوحدة تقف عند مدخل واد فى جبال الكربات لتسد الطريق أمام جنود المجر . أما مركز قيادة الوحدة فكان فى الوادى نفسه . وكانت محطة السكة الحديدية تقع فى أسفل الوادى .. وراح جيفاجو يسهب

فى وصف المكان: الجبال التى تكسوها اشجار خشب الموسكى، وتنسدل على قممها خصلات الضباب . واجراف من الحجر الرمادى والجرانيت تبدو خلال الغابات ، وكأنها رقع صلعاء فى فراء سميك ..

كان ذلك فى يوم من ايام ابريل ، والصباح رطب مغبش يحاكى لون الاحجار الرمادية .. والوداى ساكن لا يتحرك الهواء فيه ، لإحاطته بالجبال من كل ناحية . وخيم الضباب فوق الوادى ، وتصاعدت الأبخرة والدخان من كل جانب . دخان القاطرات من محطة السكة الحديدية ، والضباب الرمادى من الحقول والجبال ، والغابة المظلمة ، والسحاب الداكن ..

كان القيصر فى ذلك الوقت يقوم بجولة تفتيشية فى (غاليسيا) . وجاءت الأخبار فجاة أنه قادم ليتفقد هذه الوحدة ، التى هو آمرها الفخرى . واصبح وصوله متوقعا فى اى لحظة .. فانسحب حرس الشرف إلى رصيف المحطة ، ووقف ينتظر .. وبعد قرابة ساعتين من الانتظار ، وصل قطاران متعاقبان يحملان الحاشية الامبراطورية .ثم وصل بعدهما قطار القيصر :.

وتفقد القيصر حرس الشرف ، يصحبه الدوق العظيم « نيكولاى » . وكانت هتافات الجنود تهدر ، كلما تفوه بكلمة تحية هادئة .. كانت أصواتهم العالية وهم يصيحون «مرحى» تتدفق معا ، كما ينسكب الماء من اوعية كبيرة ..

وكان القيصر فى ابتسامته القلقة يبدو اكبر سنا ، واكثر تعبا ، مما يبدو فى صورته المنقوشة على النقود والميداليات .

كان وجهه فاترا مترهلا .. وكان ينظر إلى الدوق بين لحظة واخرى ، معتذرا عن عدم إلمامه بما يجب عليه أن يصنع فى كل لحظة .. وكان الدوق ينحنى امامه باحترام ، ويدله على ما يقتضيه الموقف ، بحركات وإيماءات بسيطة منه ، اكثر مما كان يدلى بالكلام .

وشعر يورى بالأسى وهو يرقب القيصر عبر الجبل الاغبر فى ذلك الصباح الدافىء . لم يستطع ان يتصور ان يكون هذا الخجل والحياء ، هما الصفتان الملازمتان لطاغية لا معقب على كلمته ! .. لم يستطع ان يتصور كيف يستطيع هذا الضعف ان يقتل او يعفو .. أن يسجن إنسانا ، او يطلق سراح آخر !

وقال جيفاجو : كان عليه ان يلقى خطبة .. « ايها الشعب .. يا سيفى وقوتى .. » ، كما يفعل « غليوم » .. اى كلام عن الشعب .. ولكنه لم يفعل ، وإنما تصرف التصرف الروسى المألوف . فهذا النوع من التمثيل المسرحى لا يلقى رواجا كبيرا فى روسيا . إنه يظل تمثيلا ولا ينطلى على احد . إنى استطيع ان اتصور شعوبا تقبل هذا النوع من التمثيل من قياصرة المغول واضرابهم .. هؤلاء الذين لا يكادون يفتحون افواههم ، إلا ليقولوا : « ايها الشعب .. ويا شعبى !! » .

والآن ، ها هى ذى الجبهة تعج بالمراسلين والصحفيين .. وقد راحوا يدونون ملاحظات ، ويجمعون درر الحكمة الشعبية ، ويزورون الجرحى ، ويبتكرون نظريات جديدة فى النفس البشرية ، ويضيفون إلى القاموس الروسى القديم

مجموعة جديدة من المفردات الغريبة الزائفة .. جنون لغوى ، ودعارة لفظية ! !

وهذا طراز واحد منهم .. اما الطراز الثانى ، فشىء آخر .. هذا طراز التحقيقات ، والمشاهد ، والفلسفات ، والكلام المقروض والمنظوم . لقد قرات شيئا من هذا الطراز امس ، ولا يزال معى .. نعم ها هو ذا : « كان اليوم اغبر كيوم امس . امطار منذ الصباح ، ووحل .. ونظرات من النافذة إلى الطريق ، هؤلاء هم الأسرى يسيرون فى خط لا نهاية له .. والجرحى .. وبندقية تطلق نيرانها .. تطلقها اليوم ، كما اطلقتها امس ، وكما ستطلقها غدا .. اليوم .. وكل يوم .. وكل ساعة !! » .

اليس هذا استهتارا واحتيالا .. إنى لأعجب ، ماذا يريد من البندقية ان تصنع ؟ ! ايتوقع منها تجديدا فى عملها ؟! ولماذا لا ينظر إلى نفسه ، وهو يطلق كل يوم نفس الجمل والعبارات والبيانات ، محافظا على أريحيته الصحفية بسرعة فرقة كاملة من البراغيث القافزة ! لماذا لا يستطيع ان يدرك إنه هو المطالب بعدم تكرار نفسه ، لا البندقية .. وإن الإنسان لا يستطيع ان يستخرج من تكرار الهراء كلاما مفيدا .. إن الحقائق نفسها لا تعيش إلا إذا اضاف الإنسان إليها شيئا من نفسه ، من مقاييسه الخاصة ، ومهارته ، وخبرته وعبقريته .. وإلا ، فهى حديث خرافة ، أو نوع من الأساطير!

وصاح جوردون مقاطعا : « إنك لعلى حق ، ولتدعنى الآن اخبرك برايى فى هذا الحادث الذى رايناه اليوم ، حادث

القوزاقى الذى وقف يسخر من المسكين الطاعن فى السن ويضطهده .. آلاف الحوادث المماثلة . لا شك انها جميعا حوادث تافهة ، وإنك لا تستطيع أن تقيم نظرية ثابتة على اساسها . مثلها لا يحتاج منك إلى تفكير ، ولكن إلى صفعة على وجه رجل ما .. اما إذا نظرنا إلى المسالة اليهودية باسرها ، فهنا ياتى دور الفلسفة . وليس معنى هذا انى مخبرك بشىء جديد ، فكلانا مدين بافكاره إلى خالك .

لقد كنت تتساءل ما هو الشعب ، ومن الذى يخدم الشعب اكثر من الآخر : الرجل الذى يدلل الشعب ، أم الذى يلقيه من خلف ظهره ، وهو يقوده إلى الشهرة والخلود بجمال افعاله ؟ لا شك ان الجواب واضح لا يحتمل اى جدال .

وما هى هذه الشعوب التى نتحدث عنها اليوم فى العالم المسيحى ؟ إنها ليست مجرد شعوب جامدة ، فهى فى الواقع شعوب تكونت من افراد اصابهم الكثير من التغيير والتبديل . وهذا التغير الذى اصابهم هو مركز الأهمية ، لا الولاء الذى يحملونه لتقاليدهم القديمة .

وما الذى يقوله الانجيل فى كل هذا ؟ .. لنبدأ بتقرير هذه الحقيقة : إن الانجيل لم يضع شرائع ولا احكاما جامدة لم يقل إن « حكم هذا الأمر كذا ، وحكم ذاك الأمر كيت » ، ولكنه قدم عروضا عملية — وتجريبية — للبشر .. وهو فى عروضه المتواضعة يسال الناس : « اتريدون ان تعيشوا حياة جديدة تماما .. ان تحصلوا على السعادة الروحية الكاملة ؟ » . وتقبل الناس هذه العروض بغبطة عظيمة ، فقد كانوا يتعلقون بهذه الآمال منذ آلاف السنين .

وعندما يقول الإنجيل : « ليس فى ملكوت السموات يهودى ولا وثنى » ، أتراه يقصد أن الجميع سواء أمام الله ؟ لا اظن انه كان يعنى مجرد هذا ، فليس فى هذا الكلام شىء جديد . لقد قال به فلاسفة اليونان ، ومعلمو الرومان ، وانبياء إسرائيل . وإنما يريد الإنجيل أن يخبرنا اننا فى هذه الحياة الجديدة ، المليئة بالأسرار المقدسة النابعة من القلب ، والتى نسميها ملكوت السموات ، لن نكون امما او شعوبا ، ولكننا سنكون افرادا .

ولقد قلت انت نفسك إن الحقائق تظل جامدة لا معنى لها ، ما لم تضف إليها من ذاتك ما يكسبها ذلك المعنى .. وهذا حق ، والشىء الذى تستطيع ان تضيفه إلى حقيقة الحياة الإنسانية لتصبح مليئة بالمعنى ، هو المسيحية .. هو سر ذاتية الفرد .

وكنت تتحدث عن هؤلاء السياسيين المالوفين ، الذين لا تعنيهم الحياة ككل ، ولا يشغلهم العالم فى مجموعه . هؤلاء الناس ذوى العقول الضعيفة المحدودة ، الذين يشغفون بالقيود . هؤلاء الذين يملؤهم سرورا ان يستطيعوا دفع الناس إلى التحدث عن امم صغيرة تعسة مثقلة بالقيود .. وكلما تعقدت المشاكل وازدادت التعاسات ، ازدادوا فرحا ، لانهم يجدون عند ذلك المجال الفسيح لاظهار براعتهم وقدرتهم .. كنت تتحدث عن هذا الصنف من الناس ، فهل تستطيع ان تجد مثلا لهم ، لضحايا هذه العقلية الوضيعة ، اقرب من اليهود ؟ لقد دفعتهم فكرتهم القومية ، قرنا بعد قرن ، إلى ان يكونوا شعبا ، وشعبا فقط . والشىء الغريب انهم ظلوا صرعى هذه

القيود خلال القرون الطويلة ، بينما كان الناس جميعا يتحررون من قيودهم بقوة جديدة انبثقت من صميمهم . اليس هذا غريبا ؟ ام كيف تستطيع تفسيره ؟

تأمل فقط ، هذا التحرر المجيد من ضعة الحياة وحقارتها ، من جمود الأيام وبلادتها ، قد ظهر لأول مرة فوق تربتهم ، ونودى به بلغتهم ، وانتمى إلى جنسيتهم . وطبيعى انهم ابصروا به وسمعوه . ثم تركوه يذهب عنهم . كيف امكنهم ذلك ؟ كيف سمحوا لروح لها كل هذه القوة القاهرة والجمال ، ان تذهب عنهم .. حتى إذا توجت هامتها بغار الانتصار ، كانوا هم كالجلدة الفارغة الملقاة بغير نفع ؟ لحساب من ، كانت هذه التضحية التى تبلغ حد الاستشهاد ، ومن الذى يستفيد من استمرارها .. من الذى يستفيد من بقاء كل هؤلاء الأبرياء من الرجال والنساء والأطفال ، بكل ما لهم من مهارة وإنسانية ووداعة ، ضحايا للسخرية والاضطهاد ، على مر العصور ؟ ولماذا كان كل هؤلاء الذين يسمون انفسهم « اصدقاء الشعب » ، هؤلاء الكتاب الذين يكتبون عن مسالتهم القومية ، ايا كانت الجنسيات التى ينتمون إليها ، لماذا كانوا دائما بغير خيال ، ولا موهبة ؟ لماذا لا يخرج قادة الشعب اليهودى من حدود هذا الكلام الفارغ والحكمة الخاوية ؟ لماذا لا يسرحون هذا الجيش الذى حكم عليه بأن يقاتل ابدا ، ويسفك دمه ، من اجل غاية لا يعرفها احد ، حتى لو تعرضوا فى سبيل اداء هذا الواجب إلى خطر الانفجار ؟ لماذا لا يقولون لهم : « كفى .. عودوا إلى صوابكم .. لا تتشبثوا بأصلكم ، ولا تسيروا معا كالقطيع . تفرقوا . امتزجوا بالناس جميعا

.. انتم اول المسيحيين فى العالم ، وخيرتهم . انتم ضحايا انفسكم ، يقودكم إلى ذلك اضعف عناصركم وأسوؤها .. » .

- ١٣ -

● وفى اليوم التالى ، قال جيفاجو عندما عاد إلى البيت لتناول طعام الغداء : « لقد كنت تتعجل الرحيل ، وها هى رغبتك قد تحققت . ولست أقول لك « حظا سعيدا » ، فليس من حسن الحظ ان نضرب مرة أخرى ويضيق علينا الخناق . إن الطريق إلىالشرق مفتوح ، والضغط قادم من ناحية الغرب . وقد تلقت جميع الوحدات الطبية امرا بالرحيل . اما إلى اين ؟ فلست ادرى . احسب يا كاربنكو أن ثياب جوردون لم تغسل بعد .. نفس القصة دائما .. سيقول لك كاربنكو إنه أعطاها لابنته لتغسلها ، فاذا سألته اى ابنة هى ، واين تكون .. لم يستطع ان يجيب .. يا له من ابله !! » .

ولم يلق جيفاجو بالا لتذرعات كاربنكو ، ولا لاعتذارات جوردون عن استعارة اقمصته .. وإنما قال : « هكذا حياة الجندية . ما تكاد تعتاد على مكان حتى تنتقل إلى آخر . لم يكن شىء فى هذا المكان يعجبنى ، عندما جئناه اول مرة . كان قذرا خانقا . الموقد فى غير مكانه المناسب ، والسقف شديد الانخفاض ! وإنى لأعجز عن تذكر اى شىء عن المكان الذى جئنا منه . وفى الوقت نفسه ، فانى لا امانع الآن فى قضاء عمرى كله فى هذا المكان ، احدق فى ركن هذا الموقد ، حيث تقع اشعة الشمس . وتعبرها ظلال تلك الشجرة .. » .

وحزموا امتعتهم بغير تعجل .

واستيقظوا خلال الليل على اصوات صراخ ، وطلقات بنادق ، ووقع اقدام . كان هناك احتدام غاضب فى القرية ، وكانت ظلال المارة تتخلل النافذة ، وقد نهض صاحب البيت وزوجته من فراشهما خلف الحاجز . وارسل يورى خادمه ليسأل عن سبب كل ذلك الهرج .

وعاد الخادم يقول : إن الالمان قد اخترقوا الخطوط ، فاسرع يورى إلى المستشفى حيث استوثق من صحة الخبر . كانت القرية تحت النيران ، وقد نقل المستشفى على الفور دون انتظار الأوامر بالجلاء .

وقال يورى لجوردون : « سنغادر هذا المكان قبل الفجر . ستبرح أنت مع الدفعة الأولى . إن العربة المسافرة قد تهيأت للرحيل ، ولكنى طلبت منهم ان ينتظروك ليأخذوك معهم . لا باس .. ارجو لك حظا حسنا .. سأمضى معك إلى العربة ، كى اتأكد من وجود مكان لك فيها » .

واخذا يركضان فى شارع القرية ، ينحنيان حينا ، ويحتضنان الجدران حينا آخر ، والرصاص يئز من حولهما ، والانفجارات تبدو لهما من مفارق الطرق ، وكأنها مظلة كبيرة من النيران قد نشرت فوق الحقول !

وسأل جوردون صاحبه وهما يركضان : « وانت .. ماذا ستصنع ؟ » .

فأجاب يورى : « سأتبعك فى الدفعة التالية .. فلا بد لى من العودة ، لحزم أمتعتى » .

وافترقا عند حافة القرية . وبدأ رتل العربات الذى تتكون منه القافلة ، يتحرك ، فتصطدم العربات ببعضها ، ثم تفسح كل منها الطريق للأخرى .. ولوح يورى بيديه لصديقه الذى استطاع ان يراه لبضع لحظات اخرى على ضوء لهب متصاعد من إحدى الحظائر .

وعاد يورى مسرعا ، يحتمى فى الطريق بجدران المنازل ، وإذ اصبح على بعد بضع ياردات من منزله ، وقع انفجار طرحه ارضا ، واصيب منه بشظية .. فسقط فى وسط الطريق ، فاقدا رشده والدماء تنزف منه .

– ١٤ –

● كان يورى يتماثل للشفاء فى عنبر الضباط بمستشفى نقل حديثا إلى قرية صغيرة تقع على الخط الحديدى ، بالقرب من مقر القيادة العامة . وكان اليوم دافئا من أيام فبراير ، وقد فتحت النافذة القريبة من فراشه .

وكان المرضى يقتلون الوقت قبل الغداء ، وقد شاع بينهم ان ممرضة جديدة قد التحقت بالمستشفى ، وستقوم بجولتها الأولى فيه هذا اليوم . وعلى الفراش المقابل لفراش يورى ، جلس جاليولين يقرأ الصحف التى كانت قد وصلت لتوها ، متأففا من المساحات البيضاء التى احدثتها فيها رقابة النشر .. اما يورى ، فكان يقرأ رسائل تونيا التى وصلت إليه فى كومة كبيرة . وكان النسيم يهب فيعبث بأوراق الرسائل والصحف ، عندما سمع صوت اقدام رقيقة ، دخلت « لارا » على اثرها إلى الغرفة !

وعرفها كل من يورى وجاليولين ، دون ان يفطن احدهما إلى معرفة الآخر لها ! اما هى فلم تعرف احدا منهما ، وإنما تقدمت إلى وسط الغرفة وهى تقول : « كيف حالكم ؟ لماذا تتركون النافذة مفتوحة ؟ الا تشعرون بالبرد ؟ » .. ثم اتجهت إلى جاليولين وسألته عن حالته ، وامسكت برسغه لتجس نبضه . ولكنها سرعان ما تركت يده .. وجلست على حافة فراشه تحدق فيه بنظرات مليئة بالدهشة ..

وقال جاليولين : « لم يكن هذا متوقعا يا لاريسا فيودوروفنا . فقد عرفت زوجك .. وكنا معا فى كتيبة واحدة ، ولقد احتفظت لك بما كان لديه من اشياء » .

واخذت لارا تردد : « أيمكن هذا ؟ .. ايمكن هذا ؟ .. يا لهامن مصادفة غريبة .. اكنت تعرف زوجى ؟ .. خبرنى إذن عما حدث .. لقد قتلته قذيفة ، ودفنه الانفجار .. اليس كذلك .. ها انت ذا ترى انى اعرف كل شىء ، فلا تخش ان تخبرنى بكل ما حدث ! » .

ولكن شجاعة جاليولين خانته ، فقرر ان يكذب عليها اكذوبة تريحها .. فقال: « لقد اخذ انتيبوف اسيرا .. كان قد تقدم بوحدته اكثر مما ينبغى ، فوقع فى الحصار ، وعزل ، واجبر على التسليم » .

ولم تصدقه لارا .. وإذ كان هذا اللقاء المفاجىء قد هز كيانها ، فقد خشيت ان تخونها عواطفها امام الغرباء ، واسرعت خارجة إلى البهو ..

وعادت بعد لحظات ، وقد استردت رباطة جأشها .. ولكنها تجنبت النظر إلى جاليولين ، خوفا من أن يغلبها البكاء

إذا خاطبته مرة اخرى .. والتفتت إلى يورى قائلة ، بصوت خال من اى تعبير : « كيف حالك ؟ » .

وكان يورى قد لاحظ اضطرابها ورأى دموعها ، واراد ان يسألها عن سبب ضيقها ، وان يخبرها انه رآها قبل ذلك مرتين ، مرة وهو تلميذ صغير ، ومرة وهو طالب فى الجامعة .. ولكنه خشى ان تتهمه بالفضول ، او تسىء فهم مقصده .. ثم تذكر فجاة اعياد الميلاد فى تلك الأعوام الماضية ، والنعش الذى ترقد فيه آنا ، ونواح تونيا .. فاكتفى بقوله : « اشكرك .. إنى طبيب ، واستطيع العناية بنفسى ، ولست بحاجة إلى اى شىء » .

وعجبت لارا متسائلة فى نفسها : « الكون قد اساء إليه ؟ » . وظلت تنظر بدهشة إلى هذا الرجل ، ذى الأنف المفلطح والوجه العادى الذى لا يتميز بشىء !

وظل الجو متقلبا عدة أيام ، والريح الدافئة تهب ليلا ، تفوح منها رائحة الأرض . وفى تلك الأيام ، وردت تقارير غريبة من مقر القيادة العامة ، وانتشرت الشائعات المخيفة من داخل البلاد . كانت المواصلات التلغرافية قد قطعت مع بطرسبورج مرة بعد اخرى . وكان الناس فى كل مكان يتحدثون فى السياسة ..

واستمرت الممرضة « لارا انتيبوفا » تقوم بجولتها الصباحية والمسائية كل يوم ، وتتبادل خلالها بضع كلمات مع المرضى ، بما فيهم يورى وجاليولين . كانت ترى فى يورى شخصا غريبا ، وكانت تحدث نفسها عنه قائلة : « يا له من

مخلوق غريب ، هذا الشاب القوى .. إن المرء لا يستطيع ان يعتبره جميلا بهذا الأنف المفلطح ، ولكنه ذكى بكل معانى هذه الكلمة ، ملىء بالحيوية والنشاط واليقظة .. وعلى اى حال ، فليس يعنينى امره .. إنما يعنينى ان انتهى من عملى هنا باسرع ما استطيع ، لأعود إلى موسكو ، واصبح قريبة من كاتيا .. واسعى لإخلاء طرفى من عمل الممرضة ، والعودة مرة اخرى إلى يورياتين ، وإلى وظيفة التدريس . لقد وضح لى الآن كل ما حدث لباشا المسكين ، ولم يعد هناك من امل . ولهذا فمن الخير ان اسرع فى خلع ثياب البطولة هذه التى ارتديها ، فما كنت لأطأ بقدمى هذا المكان ، لو لم يكن ذلك فى سبيل البحث عن باشا ! » .

وكانت تذكر بالأسى حالة كاتيا اليتيمة المسكينة ، فلا تملك نفسها من البكاء .

ولقد لاحظت فى المدة الأخيرة تغيرا شديدا فى كل ما حولها .. فمن قبل ، كانت هناك واجبات من كل نوع ، واجبات مقدسة : كان هناك واجبك نحو وطنك ، وواجبك نحو جيشك ، وواجبك نحو المجتمع .. اما الآن ، وقد خسرت الحرب ، ولم يبق فى القاع غير سوء الطالع ، فقد تغير كل شىء .. لم تعد هناك قداسة لأى شىء ! كل شىء قد تغير فجاة .. اللهجة والروح المعنوية . إنك لم تعد تدرى فيم تفكر ، او لمن تصغى .. كأنك قد عشت حياتك مسلما قيادك لمن يأخذ بيدك كالطفل ، ثم إذ بك تصبح وحيدا ، ويتعين عليك ان تتعلم كيف تسير غير معتمد على احد . لم يعد احد حولك : لا العائلة ، ولا الناس الذين كنت تحترم آراءهم . وانت ، فى مثل هذه

الأحوال ، تشعر بحاجتك إلى الارتماء فى أحضـــان اى معنى مطلق ، كالحياة .. او الحقيقة .. أو الجمال .. وان تخضع له خضوعا كاملا ، بعـد ما فقدت المبـادىء التى وضعها الإنســان ، لينبذها .. ان تستسـلم له بكل قوتك ، وبغير تحفظ ، ولا شىء من الحذر الذى كنت تستمسـك به فى ايامك القديمة الهادئة ، حياتك المنقضية ، التى ذهبت ولن تعود ..

اما لارا ، فقد استطاعت أن تسترد نفسها ، لقد كانت لديها كاتيا ، لتشبع حاجتها إلى الوجود والهدف . فالآن ، وقد فقدت باشا ، لم تعد تصلح إلا لتكون أمـا ، لتمنح كل قوتها ووجودها لطفلتها اليتيمة كاتيا !

ووصلت إلى يورى الأنباء من موسـكو ، بأن جوردون ودودوروف قد نشرا كتابه دون إذن منه ، وأن الكتاب قد لقى نجاحا واستحسانا ، واعتبر عملا ادبيا مبشرا . وان موسـكو تجتاز اياما عصـيبة مليئة بالاضطرابات ، وان أحداثا هامة على وشك الوقوع ، والسـخط يجتـاح الجماهير ، وينذر بتطورات سياسية كبرى ..

وكان الليل قد اوشك على الانقضاء ، وقد شعر يورى بحاجته الشديدة إلى النوم ، فمضى يحايل النعاس ، وقد خيل إليه أن اضطرابات الأيام الماضية قد اورثته القلق . وتثاءبت نسمات ناعسة اخذت تهب عليه من خـلال النـافذة ، وكأنما كانت الريح تئن وتشكو .. « تونيا .. ساشا .. انا مشوق إليكما .. أريد أن اذهب إلىالبيت .. وان أعود إلى عملى» . وعلى تمتمة الريـاح ، نام يورى ، واسـتيقظ .. ثم نام ..

وتتقاسمه الفرحة والألم .. يتقلبان عليه كمـا يتقلب الجو ، ويملآنه اضطرابا كالليل المدلهم .

وذكرت لارا أن جاليولين ، رغم كل ما اظهر من وفـاء لذكرى باشا ، وما تحمل من مشقة فى المحافظة على حوائجه ، فانه لم يظفر منها بمجرد سؤال عمن يكون ، ومن اين اتى ... فشعرت بالاحتقار لنفسها .. ولما كان الصـباح التـالى ، حرصت على سؤاله عن نفسه ، اثناء قيامها بجولة الصباح ، تصحيحا لخطئها ، وحتى لا تبدو ناكرة للجميل .

ولم تملك نفسها من الدهشة لما سمعته منه : « يا إلهى .. ٢٨ شارع برست .. وعائلة تيفرزين .. وثورة ١٩٠٥ .. وذلك الشـتاء ! .. يوسوبكا ؟ ! لا .. » . لم تستطع ان تذكر انها قابلته من قبل .. هل يغفر لها .. ولكن نعم .. ذلك العام .. ذلك العام .. وذلك البيت .. ! هل وجد فعلا ذلك العام ، وذلك البيت ؟ ! كيف عادت حيـة إليهـا كل هـذه الذكريات ؟ طلقات النار .. نعم .. وذلك الشىء الذى كانت تسميه « مبادىء المسـيح » .. ما كان اقـوى واعنف تلك المشاعر ، التى يعرفها الإنسـان لأول مـرة فى طفولته ! .. « اغفر لى .. اغفر لى أيها الملازم .. قل لى .. ما اسمك مرة اخرى . نعم .. نعم .. لقد سمعت هذا الاسم من قبـل .. « اوسيب جيمازيدينوفيتش » .. لست اسـتطيع ان اوفيك حقك من الشكر على تذكيرى بكل هذه الذكريات » .

وظلت طيلة النهار تفكر فى ذلك البيت ، وتحدث نفسـها بصوت يكاد يكون مسموعا : « يا الله .. شـارع برست ..

رقم ٢٨ .. وها هم يطلقون النار مرة أخرى .. ولكن ، كم هو مخيف إطلاق النار هـذه المرة ! .. ليست تستطيع أن تقول اليوم إن الأطفال يلعبون بإطلاق النـار .. لا .. لقـد كبـر الأطفال . جميعهم هنا الآن .. فى الجيش .. هؤلاء النـاس البسطاء الذين عاشوا فى ذلك البيت ، وفى البيـوت المماثلة له ..وفى القرى المتشابهة جميعا .. كلهم هنا اليوم .. ما أغرب هذا .. ما أغربه !! » .

واندفع إلى الغرفة نجاة جميع المرضى الذين لم يكونـوا مقيدين إلى أسرتهم ، وقـد توكأ بعضـهم على عـكازاتهم ، والآخرون على عصى ، والبعض يهرولـون .. وقـد أخذوا يصيحون : « القتال فى شـوارع بطرسبورج .. لقد انضمت حامية بطرسبورج إلى الثوار .. إنها الثورة .. إنها الثورة »!

الفصل الخامس

وداعا للمـاضى !

- ١ -

● كانت البلدة الصغيرة التى نقل إليها المستشفى تدعى (مليوزييفو) ، وتقوم وسط الريف الخصب ، الأسود التربة . فكان الغبار الأسود يعلق بهوائها ويخيم فوقها طول النهـار ـ كأنه غمـامة من جراد ـ كلما أثـارته القـوات والقوافل العسكرية التى كانت تجتاز البلدة ، فى كلا الاتجاهين : بعضها ذاهب إلى الجبهة ، والبعض عائد منها .. وكان من العسير أن يجزم المرء بما إذا كانت الحرب دائرة الرحى ، أو أنها توقفت.

وكان « جيفـاجو » ، والممرضـة « لارا أنتيبوفـا » و « جاليولين » يجابهـون فى كل يوم واجبـات جديدة تنبت كالنباتات الفطرية . وكانوا ـ مع فئة قليلة وفدت من المدن ـ يعتبرون أهل خبرة ودراية ، ويقع الاختيـار عليهم لكل مهمة تحوج الضرورة إليهـا : فكانوا يعملون فى المجلس البلدى .. ويمارسون سلطات صغار الضباط فى الجيش وإدارة الصحة . وكانوا يتطلعون إلى هذا التنوع فى مهامهم كنـوع من التسلية أشبه برياضة فى الخلاء ، أو كلعبة التغرير بالأعمى[1] ! .. على أنهم أخذوا يشعرون ـ فى فترات متزايدة ـ بأن الوقت قد

---

(١) لعبة أشبه بالاستخفاء « الاستغماية » .

حان للكف عن اللعب ، وللعودة إلى اعمالهم الأصلية وإلى مواطنهم .

وكان العمل كثيرا ما يجمع بين جيفاجو وانتيبوفا .

— ٢ —

● واحالت الأمطار التراب الأسود إلى وحل فى لون القهوة . وانتشر هذا الوحل فى الطرق التى لم يكن معظمها مرصوفا .

وكانت البلدة جد صغيرة ، تكاد ترى عند نهاية كل شارع فيها — تقريبا — السهول الجرداء ، والسماء المعتمة ، والريف الشاسع ويتوهج بالثورة والحرب .

وكتب « يورى »(١) إلى زوجته يقول : « لقد انتدبت لأتفقد بعض وحدات الجيش فيما حولنا . إن الفوضى تزداد استفحالا بالرغم من كل ما يبذلونه لتحسين النظام والروح المعنوية . وجدير بى ان اضيف بهذه المناسبة — وقد كان ينبغى ان افعل ذلك فى جزء مبكر من رسالتى — إننى أؤدى قسطا من عملى مع امراة تدعى « انتيبوفا » ، هى ممرضة من (موسكو) ، ولدت فى جبال (أورال) .. اتذكرين تلك الطالبة اطلقت الرصاص على المدعى العام ، فى تلك الحفلة المروعة ، ليلة موت امك ؟ .. اظن انه كانت ثمة محاكمة بعد ذلك ، واتذكر اننى اخبرتك بأن ميشا وإياى كنا قد رايناها مرة قبل

---

(١) يلاحظ ان« يورى » هو ذاته « يورا » . والظاهر ان الأخير اسم تدليل ، كان يطلق عليه قبل ان يكبر .

الحادث — وهى بعد تلميذة فى المدرسة العليا — فى فندق حقير كان ابوك قد اصطحبنا إليه . ولست اذكر السبب الذى ذهبنا من اجله . كل الذى اذكره ان الليلة كانت قارسة البرد . واظن ان ذلك كان إبان ثورة (بريسنيا) .. المهم ، لقد كانت الفتاة هى « انتيبوفا » !

« لقد بذلت عدة محاولات للحضور ، ولكن الأمر ليس من السهولة بمكان . ولكيس ذلك راجعا إلى العمل — فان بوسعنا ان ندبر امره بسهولة — وإنما المشكلة تتمثل فى الرحلة ذاتها . فاننا إما لا نجد قطارات البتة ، وإما نجد القطارات مليئة بحيث لا يجد المرء موطئالقدم فيها . ولكن هذه الحال لن تستمر علىالدوام طبعا ، وقد عقدت العزم — مع بعض الذين استقالوا او سرحوا من الخدمة ، وبينهم انتيبوفا وجاليولين — على ان نرحل فى الأسبوع المقبل ، مهما يحدث . وسنسافر فرادى ، فان هذا يفسح الفرص اكثر مما لو كنا معا . ومن ثم فقد اهبط من السماء فى اى يوم ، وإن كنت ساحاول ان ابرق إليك » .

على انه — قبل رحيله — تسلم رد « تونيا » . وكانت العبرات تتخلل عبارات خطابها بجلاء ، والدموع تلطخها ، وبقع الحبر تحل محل علامات الترقيم فيها ! وكانت ترجوه فى رسالتها ان لا يعود إلى (موسكو) ، بل يذهب إلى (الأورال) مباشرة مع تلك الممرضة الرائعة ، التى كانت تشق فى الحياة طريقا محفوفة بنذر رهيبة واحداث غريبة ، تجعل من المستحيل عليها — اى على تونيا — بما أوتيت من بساطة ، ان تنافسها !

واستطردت تقول فى رسالتها : « لا تشغل بمستقبل ساشا ، فلن تضطر إلى ان تخجل يوما منه . لسوف انشئه على تلك المبادىء التى رايتها فى صباك تراعى فى دارنا .. وهذا وعد اقطعه على نفسى ! » .

وتردد يورى قبل ان يجيب قائلا : « لا بد انك اختبلت يا تونيا ! .. كيف تتصورين شيئا كهذا ؟ .. كيف تسنى ان لا تعرفى ، وان لا تشعرى اعمق الشعور باننى لولاك ، ولولا تفكيرى الدائب، المخلص ، فيك وفى دارنا، لما قدر لى ان اعيش بعد هذين العامين الرهيبين ، المروعين ، من اعوام الحرب ؟ .. على ان الكلام لا يجدى ، ولن نلبث أن نصبح معا ، وأن تبدأ حياتنا من جديد ، وإذ ذاك سيتضح كل شىء بجلاء .

« على ان الذى يزعجنى من خطابك هو امر آخر : فانى إذا كنت قد اتحت لك حقا السبب الذى يدعوك للكتابة بهذا الأسلوب ، فلا بد ان تصرفى كان نابيا إلىالدرجة التى تديننى، لا معك انت فحسب ، بل ومع تلك المرأة الاخرى ، التى اسأت الحديث عنها .. لسوف اعتذر إليها بمجرد عودتها ــ لأنها فى الريف ، إذ يجرى العمل فى إقامة مجالس محلية فى القرى (عدا مجالس المقاطعات ومجالس المناطق التى كانت موجودة من قبل) ، وقد ذهبت لتمد يد العون لصديق لها يتولى الارشاد وتقديم المشورة فى كل ما يتعلق بهذه التعديلات الإدارية ــ وقد يهمك أن تعرفى اننا وإن كنا نقيم فى دار واحدة ، إلا اننى لا أعرف حتى اليوم اى الغرف هى غرفة انتيبوفا ، لأننى لم احفل بذلك يوما ! » .

ـ ٣ ـ

● تتفرع من (مليوز بيفو) طريقان رئيسيتان ، تتجه إحداهما شرقا ، والأخرى غربا . وكانت إحداهما دربا موحلا ، غير ممهد ، يشق الغابة إلى (زابوشينو) ــ وهى بلدة صغيرة كانت تعيش على تجارة الغلال ، وتتبع (مليوز بيفو) إداريا ، برغم انها متقدمة عنها فى كثير من النواحى ــ اما الطريق الأخرى فكانت مرصوفة بالحصباء ، وكانت تتخلل حقولا ــ موحلة فى الشتاء ولكنها جافة صيفا ــ إلى (بيربوتشى) ، وهى اقرب ملتقى للخطوط الحديدية .

وفى شهر يونيو ، اصبحت (زابوشينو) جمهورية مستقلة . وقد قام بالحركة « بلاجيكو » ــ صاحب المطحن المحلى ــ يؤيده جنود هاربون من كتيبة الخط الثانى عشر بعد المائتين ، الذين هجروا الجبهة إبان القلائل ، واحتفظوا باسلحتهم، ثم وفدوا على (زابوشينو) عن طريق (بيربوتشى) . وقد رفضت الجمهورية أن تعترف بالحكومة الاقليمية ، وانسلخت من بقية أرجاء روسيا . وكان « بلاجيكو » من الطائفيين المتعصبين ــ وقد اتصل فى فترة ما بتولستوى ــ فاطلق على المجلس المحلى « الكرسى الرسولى » ، واعلن عن قيام مملكة الفية جديدة[1] ، يكون العمل فيها قسمة بين الجميع ، والثروة ملكا مشاعا للسكان كلهم .

---

(١) تقول الكتب الدينية ان المسيح سيقيم مملكة الرب فى الارض ، وانه سيحكمها الف عام . فالمقصود هنا بـ « مملكة الفية » دولة تقوم على مبادىء المسيح .

ولقد كانت (زابوشينو) دائما موطنا للأساطير والمبالغات، وورد ذكرها فى صحف «أوقات الاضطرابات»(١) . كما انها كانت وسط غابات اتخذها اللصوص موئلا لهم إلى عهد غير بعيد ، واشتهرت بما لتجارها من غنى فاحش ، وما لأرضها من خصب يفوق الخيال . ومنها انبعثت كثير من المعتقدات العامة ، والعادات الغريبة التى جعلت أحاديث اهل المنطقة كلها تتسم بالشذوذ . وقد اصبحت الحكايات العجيبة التى تنبعث منها عادة تدور فى هذه الفترة حول المساعد الأول لبلاجيبكو ، فقد قيل إنه ولد ابكم اصم ، لا يحظى بنعمة الكلام إلا بإذن إلهى خاص ، يمنحه فى أوقات معينة !

ولقد عاشت الجمورية اسبوعين ، ثم قضت عليها — قبل نهاية شهر يونيو — وحدة من الجيش موالية للحكومة الاقليمية ، فتراجع الهاربون إلى (بيريوتشى) . وكانت عدة اميال من الغابة قد اجتثت — على جانبى الخط الحديدى — فاقام الهاربون معسكرهم بين بقايا الأشجار القديمة التى نما حولها التوت البرى ، وبين اكوام الخشب التى اقتطعت خلسة ولم تستهلك ، واطلال اكواخ العمال الموسميين الذين كانوا يقتطعون الأشجار .

— ٤ —

● أما المستشفى الذى كان «يورى» مريضا — ثم أصبح طبيبا — فيه ، فكان يشغل المقر السابق للكونتة جابرينسكايا

(١) فترة تلاقل وحرب اهلية فى روسيا ، فى القرن السابع عشر .

.. وقد قدمته للصليب الأحمر فى بداية الحرب . وكان منزلا من طابقين ، فى موقع من احسن مواقع البلدة ، عند ملتقى الشارع الرئيسى بالميدان الذى كان يسمى (بلاتز) ، حيث كان الجنود يتدربون فيما مضى ، وحيث اصبحت الاجتماعات تعقد فى الآونة الأخيرة . وكان موقع المبنى يجعله مشرفا على المنطقة المجاورة إشرافا تاما . وفضلا عن الميدان والشارع ، فانه كان يطل على ساحة البيت المجاور — الذى كانت تمتلكه أسرة ريفية فقيرة ، تعيش معيشة الفلاحين تقريبا — وعلى حدائق الكونتة ، الممتدة خلفه . وكانت الكونتة تمتلك ضيعة كبيرة فى المنطقة تدعى (رزادولنوى) ، فلم تكن تستخدم الدار فيما مضى إلا كمقر اثناء الزيارات التى كانت تقوم بها لماما إلى البلدة ، لبعض شؤونها ، وإلا كاستراحة للضيوف الذين كانوا يأتون من قريب وبعيد ليقضوا الصيف فى (رازدولنوى) .

ولقد اصبح البيت مستشفى ، وحددت إقامة صاحبته فى (بطرسبورج) . ولم يبق فى الدار من الخدم العديدين سوى امراتين : اوستينيا ، كبيرة الطاهيات ، و «مدموازيل فليرى » مربية بنات الكونتة ، اللاتى اصبحن زوجات . وكانت « مدموازيل فليرى » ، بشعرها الأشيب ، ووجهها الأحمر ، ومظهرها المشعث ، تجوس خلال المستشفى وكأنه بيتها ومقامها — كما كانت تفعل فى ايام أسرة « جابرينسكايا » — مرتدية معطفا باليا متهدلا ، ونعلين خفيفين . وكنت تروى القصص الطوال بلغة روسية مهشمة ، ماضغة اواخر الكلمات ، ملوحة بيديها ، متخذة اوضاعا تمثيلية مؤثرة . ثم

تنفجر بفيض من القهقهة الصاخبة ، التى تنتهى بها إلى نوبات من السعال .

ولقد اعتقدت « الآنسة » العجوز انها استطاعت ان تفهم الممرضة انتيبوفا قلبا وقالبا ، وان هذا مكنها من ان ترى ان الممرضة والطبيب كانا مسوقين إلى ان يميل كل منهما إلى الآخر ! .. واستهواها حب المغامرات « والمؤامرات » العاطفية ، شأن كل ابناء العنصر اللاتينى ، فكانت تغتبط كلما وجدت الطبيب والممرضة معا ، وكانت تهز اصبعها فى وجهيهما ، وهى تغمز بعينها ! .. وكان هذا يحير « لارا » ويغيظ « يورى » . ولكن « المدموازيل » ظلت متشبثة بتصوراتها الوهمية ، تأبى ان تتخلى عنها بأى ثمن !

على ان « اوستنيا » كانت اغرب شأنا .. كان جسمها المنبعج الشبيه بشكل ثمرة الكمثرى ، يبديها كالدجاجة المفرخة (التى تحتضن بيضها حتى يفرخ) . وكانت تزن كلماتها عادة ، وتلزم الدقة والإيجاز فى كلامها . ولكن خيالها كان ينطلق على رسله ، فى كل ما يتعلق بالخرافات والشعوذة . فلقد ولدت فى (زابوشينو) ، وقيل إنها كانت ابنة امرأة تمارس السحر هناك . ومن ثم فقد كانت على معرفة بما لا حصر له من الرقى والتعويذات ، وما بارحت دارها يوما قبل ان تهمهم بكلمات فوق الموقد وعند ثقب الباب ، لتقى الدار من النار ومن الشر فى غيابها ! .. وكان بوسعها ان تظل اعواما هادئة ، ولكنها إذا ما استثيرت ، تعذر كبح جماحها . وكان اى تحامل على معتقداتها كفيلا بان يضرم فى نفسها نيران الدفاع عن الحقيقة !

وبالرغم من القضاء على جمهورية (زابوشينو) ، فقد ظل المجلس الثورى فى (مليوزييفو) فى خوف من آثارها الفوضوية على المنطقة ، وقرر ان يبدد كل مفعول لها بحملة لتنوير الأذهان . وكانت الفرص تسنح لذلك فى الأمسيات ، عندما كانت تعقد فى الميدان الرئيسى بالبلدة اجتماعات سلمية هادئة ، يفد إليها القوم طواعية دون دعوات او تنظيم .. وكان يحضرها اولئك الذين لم يكن لديهم ما يشغلهم ، واولئك الذين اعتادوا — فى الأيام الغابرة — ان يجتمعوا عند محطة إطفاء الحريق ، فى الطرف الآخر من الميدان ، ليثرثروا ويتبادلوا الشائعات !

ومن ثم شجع المجلس هذه الاجتماعات ، واصبح يدعو خطباء — من اهل البلدة ومن خارجها — ليفتتحوا المناقشات. وكان الخطباء المدعوون من خارج البلدة يؤمنون بأن قصة نطق الأصم الأبكم (مساعد بلاجييكو) كانت سخفا تافها ، ويحرصون على ان يجهروا بهذا الراى. ولكن صغار الصناع، وزوجات الجنود ، والخدم السابقين فى (مليوزييفو) ، لم يكونوا يرون فى تلك القصص هراء ، وراحوا يدافعون عن ذلك الأصم الأبكم . وكانت « اوستنيا » منهم ، وقد احجمت فى البداية ، بتأثير الحياء النسوى ، ثم اخذت تزداد جراة فى دحض الآراء التى لم تكن ترضى اهل البلدة ، فلم تلبث ان غدت خطيبة مصقعة ، ماهرة !

وكانت جلبة الأصوات فى الميدان تسرى خلال النوافذ المفتوحة إلى داخل المستشفى . وفى الليالى الهادئة ، كان من الميسور تمييز كل ما يقال .. فاذا كانت « اوستنيا » تخطب

فى القوم ، فان « المدموازيل » كانت تندفع إلى اية حجرة بها احد ، وتهيب بالجميع أن ينصتوا ، وتروح تقلد الخطيبة بلهجتها الركيكة : « راسبوتين . راسبو .. قيصر . زابوشيه .. اصم ابك .. خونة ! .. خونة ! » . وكانت تزدهى ـ فيما بينها وبين نفسها ـ بصديقتها الموهوبة ، المشحوذة اللسان . كانت كل من المراتين مشغوفة بالأخرى ، برغم انهما لم تكونا تكفان عن الشجار !

— ٥ —

● راح « يورى » يطوف بالمكاتب الحكومية التى كان بحاجة إلى ان يحصل منها على الاجازات والمسوغات اللازمة لعودته إلى (موسكو) ، كما اخذ يزور اصدقاءه ومعارفه مودعا . وكان « القوميسار » الشاب ـ الذى عين حديثا فى القطاع المحلى من الجبهة ـ يقضى بضعة ايام فى (مليوزييفو)، وهو فى طريقه إلى الجيش . وقد قيل إنه كان مجرد فتى صغير السن ، وكان تعيينه قد ترتب على النشاط الجديد الذى دب فى الجبهة ، إذ كان الجيش يتأهب للهجوم ، وكان كل جهد يبذل لتحطيم تراخى الجيش ، ولتعزيز النظام .. فأقيمت محاكم الحرب الثورية ، واعيد العمل بعقوبة الاعدام التى كانت قد الغيت منذ عهد قريب .

وكان من التوقيعات التى احتاج « يورى » إليها على مستنداته ، توقيع الحاكم العسكرى للبلدة . وكان من العسير الوصول إلى مكتبه عادة ، إذ كان الصف الذى ينتظم قاصديه يمتد إلى منتصف الطريق ، كما أن الضجيج فى الداخل كان من الارتفاع بحيث يعز على المرء ان يسمع شيئا .. على ان ذلك

اليوم لم يكن من الأيام التى يستقبل فيها الحاكم قاصديه ، فجلس الكتبة ساكنين إلى مكاتبهم التى سادها الهدوء ، وقد همهم الازدياد المطرد فى اعمالهم ، فراحوا يتبادلون نظرات حافلة بالسخرية المنبعثة عن الضيق .. وكانت تنبعث من حجرة الحاكم اصوات مليئة بالابتهاج ، إذ كان الذين فى الحجرة قد تخففوا من ازيائهم الرسمية ، واقبلوا على المرطبات . وما لبث « جاليولين » أن برز من الحجرة ، فراى « يورى » واشار إليه بحركات مبالغ فيها ، اهتز لها كل جسمه الضخم ، وكانه كان يتحفز لينطلق فى سباق ! .. ولما كان « يورى » مضطرا إلى ان يقابل حاكم البلدة ـ على اية حال ـ فانه لم يلبث ان دخل .. والفى الحجرة فى حال بينة من الفوضى .

كان « القوميسار » الجديد يحتل وسط المسرح ، اى وسط الحجرة . وكان قد غدا بطل اليوم ، ومثار اهتمام البلدة ، يلقى الاوامر على حكام هذه المملكة المصنوعة من الورق ، فى امور لا علاقة لها بالعمل ولا بالمسائل العسكرية ، بدلا من ان يخف إلى مقر منصبه ! .. وصاح حاكم البلدة ، وهو يقدم يورى إليه : « آه ، هاك نجما آخر من نجومنا ! » . ولم يلتفت «القوميسار» ، إذ كان فى شغل بنفسه عن كل شىء .. فلم يجد حاكم البلدة سوى أن يوقع الأوراق التى وضعها « يورى » امامه ، ثم يشير إليه فى تأدب نحو مقعد وثير ، ليستأنف بعد ذلك تظاهره بالاستغراق فى الاصغاء .

وجلس « يورى » . وكان الوحيد ـ بين من كانوا فى الحجرة ـ الذى جلس كما ينبغى للإنسان ان يجلس ! .. اما الآخرون ، فكانوا يميلون فى استرخاء وتهدل ، وفى أوضاع

غريبة ، متظاهرين — فى مغالاة مصطنعة — بالارتياح . فكان حاكم البلدة يكاد يستلقى على مكتبه استلقاء ، وخده على قبضته فى منظر يشبه منظر « بايرون »(١) وهو يفكر ! .. اما مساعده — وكان رجلا ربعة ، عريض المنكبين — فقد قبع على مسند الاريكة ، ملقيا ساقيه منفرجتين على المقعد ، وكأنه يجلس على سرج مدليا ساقيه فى احد الجانبين ! وجلس « جاليولين » على المقعد فى وضع معكوس ، وقد دلى ساقيه من الجانبين ، واحتضن ظهر المقعد بذراعيه مسندا راسه إليهما .. بينما كان « القوميسار » لا يكف عن الاتكاء على رسغيه ليرفع نفسه إلى حافة النافذة ، ثم يقفز عنها ويصول فى ارجاء الحجرة ذهابا وجيئة بخطوات قصيرة سريعة ، وهو يطن كخذروف يدور حول نفسه ، لا يسكن ولا يصمت لحظة .. كان يتكلم باستمرار ، وكان موضوع حديثه هو مسألة الهاربين من الجيش ، المعتصمين ببيريوتشى !

وكان القوميسار يشبه تماما ما نمى إلى « يورى » عنه : نحيلا ، بديع الشكل ، اشبه بفتى تخرج من المدرسة لفوره .. يتحرق بلهب آرائه وكأنه شمعة . وكان يقال إنه من اسرة طيبة — بل ابن احد اعضاء مجلس الشيوخ ، كما ظن بعض الناس — كما قيل إنه كان من اوائل من قادوا كتائبهم إلى (دوما) فى شهر فبراير . وكان يدعى « جينتز » او « جينتزه » — فان « يورى » لم يكن قد التقط اسمه تماما — وكان يتكلم بلهجة واضحة ، بطريقة اهل (بطرسبورج) فى

(١) الشاعر الانجليزى المعروف .

النطق الصحيح ، وبرنة خفيفة من لكنة اهل (البلطيق) .. اما بزته فكانت عسكرية محبوكة حول جسمه . وربما كان من بواعث الحرج له أن يكون صغير السن بهذه الدرجة ، ومن ثم فقد كان ينتحل مظهر القسوة ، ويصطنع الانحناء ، مقوسا كتفيه بما تحملان من شارات رتبته ، ويداه لا تبرحان جيبيه . والحق ان هذا كان يكسبه الشكل العام لفارس ، يرسم بخطين مستقيمين ، يهبطان مائلين إلى الداخل من زاويتى كتفيه إلى قدميه .

وقال له حاكم البلدة : « هناك كتيبة من القوزاق معسكرة على مسافة قصيرة ، على طول الخط الحديدى . انها حمراء ، موالية . ولسوف تستدعى لتشارك فى العملية ، وبذلك يتسنى محاصرة المتمردين ، فتكون هذه خاتمة الأمر .. إن قائد الفصيلة متلهف إلى تجريدهم من السلاح ، دون ما إرجاء » .

فصاح القوميسار : « قوزاق ! .. لا يمكن ، مهما تكن الظروف . إننا لسنا فى سنة ١٩٠٥ .. ليس هذا استرجاع الذكريات التاريخية . إن آراءنا على نقيض ذلك على خط مستقيم . إن قادتكم يحاولون أن يكونوا أمهر مما ينبغى لهم ! » .

— ولكنهم لم يفعلوا بعد شيئا قط ! .. إنما هو مشروع فحسب .. مجرد خطة !

— إن بيننا وبين القيادة العليا اتفاقا على ان لا نتدخل فى اوامر العمليات العسكرية . ومن ثم فلن الغى الأمر الصادر بدعوة القوزاق .. ليأتوا ! .. ولكننى سأتخذ — من جانبى —

الإجراءات التى يمليها الادراك السليم .. اعتقد ان للمتمردين معسكرا خلويا هناك .

— هذا صحيح .. لا بد لهم من معسكر ، على اية حال .. معسكر مسلح !

— بديع ! .. احب ان اذهب إلى هنــاك ، فعليكم ان ترونى مبعث الخطر هذا .. هــذا الوكر المعمور بالأفاقين . إنهم قد يكونون متمردين — أيها السادة — وقد يكونون هاربين من الخدمة العسكرية ، ولكن .. تذكروا انهم بشر . والبشر اشبه بالأطفـــال ، لا بد من ان تعرفوهم .. لا بد من ان تلموا بنفوسهم . ولكى تسـيطروا عليهم ، لابد من ان يكون لديكم الأسلوب الصحيح لعلاجهم ، ولا بد لكم من أن تسعوا إليهم ، وان تروضوا قلوبهم وتعلموها ! .. لسوف أذهب وأتحدث إليهم — حديث القلب للقلوب — وســوف ترون كيف يعودون إلى مــراكزهم التى هجروهـــا ، وهم أنقى من الذهب ! .. الا تصدقوننى ؟ .. فليكن بيننا رهان على ذلك ، إذن !

— من يدرى ؟ .. إننى لأتمنى صـــادقا ان تكون على صواب !

— سأقول لهم: « خذوا حالى مثلا .. إننى الابن الأوحد، والأمل الأوحـــد لوالدى . ومع ذلك فاننى لم اعف نفسى من الواجب . لقد تخليت عن كل شىء .. عن الاسم ، والأسرة ، والمركز . فعلت ذلك لأحارب من اجل حريتكم ، من اجل حرية اكبر من تلك التى يستمتع بها اى شعب آخر فى الدنيا . هكذا فعلت ، وهكذا فعل كثير من الشبان غيرى ، فضلا عن حراس امجاد اسلافنا ، الأبطال الذين نافحوا عن حقـــوق الشعب ،

والذين ارسلوا ليمارسوا الاشغال الشاقة فى (سيبريا) ، او سجنوا فى حصن (سلو سيلبورج) . فهل فعلنا نحن شـيئا من هذا القبيل ؟ او هل ينبغى أن نفعــل ؟ .. وانتم .. انتم يا من لم تعودوا مجرد محاربين عاديين ، وإنما اصبحتم محاربى الجيش الثورى الأول فى العـــالم ، كيف قـــدر لكم ان تثبتوا جدارتكم بما تطلقون على انفسكم ؟ .. فى اللحظة التى تريق فيها بلادنا دماءها ، والتى تبذل فيها جهدا خارقا ، سـاميا ، لتطرح عنها اخطبوط العدو الذى يطوقها ، إذا بكم تسمحون لانفسكم بالانسياق كالحمقى لعصابة من الامعات ، النكرات .. إذا بكم تصبحون غوغاء ، مجردين من الوعى السياسى ، متخمين بالحرية ، مشاغبين، لا يقنعون بشىء .. اصبحتم ممن يقولون عنهم فى المثل : « اعطهم شــبرا يطمعوا فى ذراع » ! .. او كما يقول مثل آخر : « دع الخنزير يلج قاعة الطعام ، تجده يرفع حوافره إلى المائدة »(١) .. آه ، إننى لن اخفف من وقع كلماتى، بل لسوف أجعلهم يشعرون بالخزى من انفسهم!

واستجمع حاكم البلدة جرأته ليقول معقبا ، وهو يرمق مساعده بنظرة ذات معنى : « آه .. لا ، لن يكون هذا المسلك جم الخطورة ! » . ولكن « جاليولين » بذل قصـــارى جهده ليثنى القوميسار عن فكرته الجنونية . فقد كان يعرف رجال الكتيبة الثانية عشرة بعد المائتين ، إذ كانوا فى قطاعه فى جبهة القتال .. ولكن القوميسار ابى ان ينثنى !

وظل « يورى » — طيلة الوقت — يحـــاول أن ينهض

---

(١) ما أشبه هــذا بالمثل العامى « : سكتنا له .. دخل بحماره » !

وينصرف . فلقد اذهلته سذاجة القوميسار ، ولكن الريـاء الخبيث الذى اشتمه من حاكم البلدة ومساعده — وهما أفاقان مذبذبان من اسـوا أنـواع البشر — لم يكن افضـل من تلك السذاجة . كان غباء الأول يعادل رياء الثانيين وغشهما ، وقد غثيت نفس « يورى » بفيض كلماتهما السـخيفة ، العديمـة القيمة واللزوم ، التى تمجها الحياة ذاتها !

ما اشد ما يبلغه احيانا الشوق إلى الهـرب من خواء وغباء اللغو البشرى ، واللجوء إلى الطبيعة المبرأة عن مثـل هذا اللغو ، او اللجوء إلى العمل الطويل الطاحن ، او النوم العميق ، او الموسيقى الحقيقية .. او اللجـوء إلى التفاهم البشرى الذى تقره العاطفة دون ما داع إلى كلمات !

وهنا تذكر « يورى » الحديث الذى كان مرتقبا بينه وبين الممرضة انتيبوفا . كان مقدرا له ان لا يكون حديثا سـارا ، لكن «يورى» كان مغتبطا لضرورة لقائه اياها، ولو بهذا الثمن! .. ولم يكن من المحتمل ان تكون قد عادت بعد . ومع ذلك فقد اسرع إلى النهوض ، بمجرد ان سنحت له الفرصـة ، وخرج دون ان يفطن الآخرون إلى انصرافه !

— ٦ —

● ولكنهـا كانت قد عادت ، إذ انبأته « المدموازيل » بذلك ، واردفت بأن الممرضة كانت متعبة ، وانها تناولت قسطا من الطعام بسرعة ، ثم اوت إلى حجرتها، راجية أن لا يزعجها احد .. ومع ذلك ، فقد اضافت « المدموازيل » ، على سبيل الاقتراح : « ولكن ، لماذا لا تصـعد وتطرق بابها ؟ .. إننى اعتقد انها لم تنم بعد » .

— واية غرفة هى غرفتها ؟

وعندما غالبت « المدموازيل » دهشـتها ، قالت له إن غرفتها تقع فى نهاية الردهة ، فى الطابق الأعلى ، فى نهاية عدة غرف جمع فيها كل اثاث الكونتة ، وفى قسـم من الدار لم يكن « يورى » قد ارتاده من قبل .

وكان الظلام يهبط على الكون .. واخذت ظلال البيوت والأسوار تتقارب وتتجمع فى الخارج . وبدت الأشجار وكأنها تشرئب برؤوسها من اعمـاق الحدائق المعتمـة إلى ضـوء المصابيح البترولية الذى كان ينساب من النوافذ . وكان الهواء ساخنا ، لزجا ، مشبعا بالرطوبة .. ونور المصباح يتساقط فى فناء الدار اشبه بنقط من العرق تهوى على لحاء الشجر !

ووقف « يورى » عند راس السـلم ، إذ خطـر له ان مجرد طرق باب « لارا » — وقـد عادت لتوها من رحلتهـا متعبة — عمل بعيد عن اللياقة ، مسبب للحرج ، وان من الخير ان يرجىء الحـديث إلى الغـد . وفى شرود البـال — الذى يستولى على الإنسان عندما يتحول عن فـكرة معينة — مشى إلى آخر الردهة ، ومال على نافذة كانت تشرف على فناء الدار المجاورة ، فأطل منها .

كان الليل مليئا باصوات هادئة ، محفوفة بالأسرار .. على مقربة من « يورى » — فى ردهـة جانبيـة — كان ثمة صنبور تنساب منه قطرات ثقيلة ، بطيئـة ، فى تتابع منتظم رتيب .. وكان أناس يتهامسون فى مكان ما ، خارج النافذة .. وفى بقعة ما ، فى حديقة الخضر فى فناء الدار المجاورة ، كان

ثمة اشخاص يروون احواض الخيار ، ويضربون جدران البئر
بسلسلة الدلو ، وهم يستخرجون الماء ويصبونه من دلو إلى
آخر .. وكان ثمة اريج انبعث من كل الزهور دفعة واحدة ،
وكانما كانت الأرض فى غفلة — طيلة النهار — ثم انتبهت
فجاة ! .. ومن بستان الكونتة الذى يرجع عمره إلى عدة
قرون ، والذى تناثرت فيه الأغصان المتساقطة وتراكمت حتى
اصبح السير فيه متعذرا .. من هذا البستان تصاعد عبير
زكى يخالطه تراب . عبير اشجار الموالح العتيقة التى دبت
فيها الحياة والازدهار ، وقد تصاعد كموجة هائلة تسامت إلى
ما يعادل ارتفاع منزل عال .. ومن الشارع الممتد خلف
السياج — إلى اليمين — تناهت اصوات متباينة : نتف من
اغنية ، وصيحات جندى ثمل ، وطرقات شديدة على الأبواب .

ومن وراء اعشاش الغربان السوداء فى حديقة الكونتة ،
اخذ قمر قرمزى ضخم يرقى إلى السماء . كان فى بادىء الأمر
فى لون قالب الطوب الجديد ، فى مصنع الطوب بزابوشينو ،
ثم تحول فأصبح فى صفرة برج الماء فى (بريوتشى) .. ومن
تحت النافذة مباشرة ، تصاعد اريج العشب الذى اجتث حديثا
.. عبير قوى كعبير الشاى الصينى ، وقد امتزج بعبير نبات
« الثلثلان » — او عنب الثعلب — الذاوى . وكانت ثمة بقرة
مربوطة فى تلك البقعة ، وقد سيقت من قرية نائية ، وقضت
يومها كله سائرة ، فأنهكها التعب ، وبرح بها الحنين إلى
القطيع ، فأبت ان تتناول من مولاتها الجديدة طعاما ! ..
وراحت السيدة تهمس لها فى إغراء : «آه ، وبعد يا .. انت؟ !
لسوف اريك كيف تعارضين ! » . ولكن البقرة هزت راسها فى

عناء ، واشرابت بعنقها إلى الناحية الأخرى ، وهى ترسل
خوارا شاكيا . وخلف اجران (مليوز بيفو) التى خلع عليها
الليل وشاحا قاتما ، لمعت النجوم ، وتدلت منها خيوط — غير
مرئية — من العطف على البقرة الحزينة ، وكأنما ثمة حظائر
فى عوالم اخرى ، عامرة بماشية ترثى لها !

كان كل شىء يتخمر ، وينمو ، ويرتفع بتفاعل خميرة
الحياة .. كان الفرح بالحياة يتسلل فى موجات مستخفية —
كأنه الهواء الراكد — عبر الحقول والمدن ، وخلال الأسوار
والجدران ، وخلال الخشب واللحم .. ولكى يفر من انسيابه
المحير ، خرج « يورى » إلى الميدان ليصغى إلى الخطب التى
كانت تلقى .

— ٧ —

● وكان القمر قد ارتفع فى تلك الأثناء واشتد ضياؤه فى
الميدان ، فكأنه طلاء ابيض سميك ، تحف به ابسطة سوداء
عريضة من الظلال ، امام المداخل ذات الأعمدة فى بنايات
الميدان الحجرية .

وكان الاجتماع معقودا فى عرض الميدان ، ولو شاء
«يورى» لسمع كل كلمة فيه ، ولكنه كان متأثرا ببهاء ما راى ،
إلى درجة جعلته يجلس على مقعد خشبى امام محطة الإطفاء ،
ويتأمل بدلا من أن يسمع .. كانت الطرقات الضيقة ،
المسدودة ، تتفرع من الميدان ، وقد تكدس فيها الوحل فكأنها
حوارى الريف ، وحفت بها البيوت فى صفوف متعرجة ..
وكانت الأسيجة المصنوعة من فروع الصفصاف المجدولة تبرز

من خلال الوحل كأنها أصداف سرطان البحر (أبو جلمبو ، أو الكابوريا) وكنت ترى النور ينبعث من شق واحد من كل نافذة فكأنه العين المبصرة فى وجه فقدت عينه الثانية إبصارها . ومن الحدائق الأمامية الصغيرة ، كانت أقماع الذرة المنداة ــ ذات الرؤوس الحمراء ، والشعيرات المنضحة بالزيت والشبيهة بالسوالف ــ تطل على النوافذ ، كما كانت زهور فرادى من الخبيزى الشاحبة الناحلة ، تتطلع إلى الفضاء من أعلى الأسيجة ، وكأنها نسوة ساهرات أجبرهن الحر على أن يبرزن من داخل البيوت ، التماسا لنسمة من هواء .

كانت الليلة المقمرة باعثة للطمأنينة بدرجة مدهشة ، فكأنها الرحمة ذاتها ، أو كأنها النعمة التى ترين على النفس لدى النظرة الثانية إلى شىء كانت ترهبه . وفجأة ، رن فى ذلك السكون المتألق ، ذى الجو الأسطورى الشاعرى ، صوت موزون ، مصقول ، مألوف لأذن « يورى » ، إذ كان قد سمعه منذ وقت قصير .. كان صوتا بديعا ، تتردد فيه قوة الاقناع .. وارهف « يورى » سمعه فعرفه فى الحال .. كان القوميسار جينتز يلقى خطابه . وبدا من الجلى أن البلدية سألته أن يعير حملتها تأييدا ، لمكانته ، فراح يتكلم عن عاطفة وشعور ، مؤنبا أهل (مليوز بيفو) لأساليبهم غير المنتظمة ، ولأنهم انساقوا لتأثير البلشفيك الذين كانوا المحرضين الحقيقيين للشعب الذى جرى فى (زابوشينو) ــ كما أكد لهم ــ والذين كانوا يسعون للتفرقة . وأخذ يذكرهم ، بعين الروح التى كان يتكلم بها فى مكتب حاكم البلدة ، بقوة العدو وجبروته

الغاشم ، وبأن بلادهم كانت فى ساعة محنة وبلاء . فبدأ القوم يتململون . وإذا صيحات الرجاء بعدم مقاطعة الخطيب تختلط بصيحات الاحتجاج .

وازدادت المقاطعة ارتفاعا وتكرارا . وصاح رجل كان قد جاء بصحبة جينتز وترأس الاجتماع ، قائلا إن الحديث من بين الصفوف محظور ، ومطالبا بالمحافظة على النظام . وأصر البعض على المطالبة بالسماح لإحدى المواطنات بالكلام ، بينما صاح آخرون يطالبون بالصمت . وشقت امرأة طريقها وسط الجمع إلى الصندوق الخشبى الذى كان يستخدم كمنصة . ولم تحاول أن تعتلى المنبر ، بل وقفت إلى جواره .. وكانت امرأة معروفة للجميع ، فلاذوا بالصمت ، وأولوها آذانهم .. وكانت هى « أوستنيا » !

وشرعت تقول : « كنت تتكلم أيها الرفيق القوميسار عن (زابوشينكو) ، وعن وجوب الانتباه .. فطالبتنا بأن ننتبه جيدا ، وأن لا نغتر . ولكنك أنت نفسك ــ وبعد أن سمعتك ــ لا تعرف أكثر من التلاعب بالألفاظ ، والتشدق بكلمات مثل « بولشفيك ــ منشفيك » ، وهذا كل ما تتحدث عنه : البلاشفة ، والمناشفة ! .. والواقع أننى أعزو كل حديث عن الكف عن القتال ، وعن التآخى ، إلى الله ، وليس إلى المناشفة ! .. وأما تحول المصانع و « الورش » إلى الفقراء ، فليس من عمل البلاشفة ، وإنما هو مبنى على الإنسانية والرحمة والمحبة . أما الأصم الأبكم ، فقد سمعنا عنه الكفاية ، فلسنا فى حاجة إلى حديثك عنه . كل امرىء يتكلم ويعيد ويزيد عن الأصم الأبكم ، فماذا لديكم ضده ؟ ..

مجرد انه كان ابكم طيلة العمر ، ثم شرع فجأة فى الكلام ، دون ان يستأذنكم ؟ .. حسنا ، وماذا فى ذلك ؟ .. كانما الأمر اعجب من أن يكون ! .. لقد عرف الكل عن أمور اعجب من ذلك حدثت .. خذ البغلة المشهورة مثلا(١) ، فقد قالت لصاحبها : « بلعام ، بلعام ! .. استمع لى ، وامض فى خط مستقيم إلى الأمام ، ولا تسلك هذه الطريق وإلا بؤت بالندم ! » .. ولكنه لم يستمع لها طبعا ، ومضى فى طريقه .. وكما تقولون انتم : « رجل اصم ابكم » ، قال صاحب البغلة فى نفسه : « ما جدوى الإنصات إليها .. إنها ليست سوى بغلة .. حيوان ابكم ! » . فتذكروا كم كان أسفه فيما بعد .. إنكم انفسكم تعرفون كيف انتهى أمره ! » .

وهنا تساءل فرد من الحشد فى فضول : « وكيف انتهى أمره ؟ » . فصاحت اوستنيا : « كفى ، فلسوف تشيخ قبل الأوان إذا اكثرت من السؤال ! » . ولكنه قال فى إصرار : « ما هذا بالجواب النافع . خبرينا ! » .

ــ حسنا ، لا باس .. افلا بد ان تعرف كيف ولماذا ايها الثرثار العنيد ؟ .. لقد تحول صاحب البغلة إلى عمود من الملح !

فصاح القوم : « لقد اخطأت ايتها العزيزة .. تلك كانت

(١) اشارة الى قصة زوجة لوط التى لم تطع النصيحة بان لا تلتفت الى الخلف ــ قبيل تدمير (سدوم وعمورة) بسبب فساد اهلها ــ فصارت عمود ملح !

امراة لوط .. تلك كانت زوجة لوط(١) ! » . واخذ كل فرد يضحك، فصاح رئيس الاجتماع يدعو إلى الصمت والنظام .. وانصرف « يورى » إلى مخدعه .

ـ ٨ ـ

● ورأى « لارا » فى المساء التالى . وجدها فى المغسل وامامها كومة من الغسيل خرجت لتوها من المعصرة .. وكانت عاكفة على كيها . وكان المغسل يشغل إحدى الغرف الخلفية المطلة على الحديقة، فى الطابق الأعلى. وهناك كانت الغلايات (السماورات) تعد ، والطعام يغرف فى الأطباق ، والاطباق المستعملة ترص فى المصعد الذى يدار باليد ، ليهبط بها إلى غاسل الأطباق . كذلك كانت قوائم الأدوات الخزفية والزجاجية تحفظ هناك ، كما كان القوم يقضون لحظات فراغهم ، ويتواعدون على اللقاء فى تلك الحجرة !

وكانت النوافذ مفتوحة ، وعبير أزهار الموالح يمتزج فى الحجرة ــ كما كان يمتزج فى البستان العتيق ــ برائحة الكراوية المنبعثة من الأغصان الجافة ، وقد انضم إليهما دخان الفحم المتصاعد من المكواتين اللتين كانت « لارا » تستخدمهما بالتبادل ، وهى تضع المكواة التى تتركها منهما عند حافة المدفأة من الداخل ، لتظل ساخنة .

وبادرته لارا قائلة : « لماذا لم تطرق بابى ليلة امس ؟ .. لقد انبأتنى « المدموازيل » .. وإن كنت أرى انك اصبت فى

(١) النبى لوط .

الواقع، فما كان بوسعى أن ادعوك للدخول ، لأننى اندسست فى فراشى فورا . لا باس .. كيف حالك ؟ .. حذار من أن يصيب الفحم ثيابك ! » .

ـ كأنى بك قد تكفلت بغسيل المستشفى بأسره !

ـ لا ، بل إن لى نصيبا كبيرا فى هذا الغسيل.. ارايت؟ لقد ظللت تغيظنى بأننى سابقى فى (مليوزييفو) ، ولكننى فى هذه المرة اعتزم الرحيل عنها فعلا . لقد غسلت ثيابى ، وساعد حقائبى . وما إن افرغ من ذلك حتى اسافر . ولسوف اقيم فى (الأورال) وتقيم انت فى (موسكو) . وفى ذات يوم ، يسالك شخص ما : « هل قدر لك أن تعرف يوما بلدة صغيرة تدعى مليوزييفو ؟ » . فتجيب : « لست اذكر » .. ويسالك : « ومن تكون انتيبوفا ؟ » ، فتقول : « لم اسمع بهذا الاسم من قبل » !

ـ هذا ما يحتمل حدوثه .. هل استمتعت برحلة طيبة ؟ .. وكيف كانت الحال فى الريف ؟

ـ هذه قصة طويلة ! .. يا الهى ، ما اسرع ما تبرد هاتان المكواتان . ناولنى الأخرى ، إذا سمحت ! إنها هناك .. انظر ، وراء حافة المدفأة مباشرة .. وهل لك أن تضع هذه مكانها ؟ شكرا .. إن الحال فى كل قرية يختلف عنه فى الأخرى ، تبعا للقرويين انفسهم .. فهم فى بعض القرى مجدون عاملون ، ومن ثم فالحال هناك ليست سيئة .. وفى قرى أخرى يخيل إلى أن الرجال جميعا سكيرون ، ومن ثم فهى بلقع ، والحال فظيعة ..



وجدها فى الغسل وأمامها كومة من الغسيل خرجت لتوها من المعصرة .. وكانت عاكفة على كيها ..

— ما هذا الهراء؟ .. ولماذا تحسبين انهم سكيرون؟..
إنك لتفهمين الكثير عن حقيقة الأمر .. كل ما هنالك ان ليس
فى تلك القرى رجال ، لأن جميع الرجال فى الجيش . وماذا
عن المجالس الجديدة .. المجالس الثورية ؟

— انت مخطىء فيما قلت بصدد السكيرين ، ولكنا
سنناقش هذا فيما بعد . اما المجالس ، فلن تلبث أن تقوم
كثير من المتاعب فى وجهها ، إذ ان التعليمات ليست ميسورة
التطبيق ، وليس ثمة مرجع يرجعون إليه . اما الفلاحون ،
فكل ما يحفلون به فى الوقت الحاضر هو مسالة الأرض . ولقد
زرت ضيعة (رازدولنوى) ، يا لها من مكان جميل ! .. يجب
ان تذهب لزيارتها . لقد احرقوها ونهبوها فى الربيع الماضى..
فمخزن الغلال محروق عن آخره ، واشجار الفواكه اكلت
النيران بعضها ، كما أن الدخان أتلف جزءا من واجهة الدار ..
اما (زابوشينو) فلم أرها ، إذ اننى لم اذهب إليها .
ولكنهم فى كل مكان يؤكدون ان الأبكم الأصم موجود فعلا . انهم
ليصفونه أدق وصف ، ويقولون إنه شاب ، ومتعلم !

— لقد وقفت « اوستنيا » تدافع عنه ليلة امس ، فى
الميدان .

— وما إن وصلت إلى هنا ، حتى وصلت انباء جديدة عن
شغب فى (رازدولنوى) . لقد سالتهم عشرين مرة — لا مرة
واحدة — ان يدعوا هذه الضيعة وشانها .. كانما المشكلات
التى تواجهها لا تكفى ! .. ومع ذلك ، ففى هذا الصباح
بالذات اقبل حارس مكتب حاكم البلدة يحمل رسالة مقتضبة .
يجب ان يحصلوا على ادوات الشاى الفضية والاكواب

البلورية ، فالمسالة مسالة حياة او موت .. ولن يستبقوها
اكثر من ليلة واحدة ، ثم يردونها .. ولكننى أؤكد لك اننا لن
نرى نصفها ثانية . إننى أعرف هذه الأساليب فى الاستعارة
والاقتراض . واحسبهم سيقيمون حفلة تكريم لزائر ما !

— استطيع ان احدس حقيقة الأمر . فقد وصل
القوميسار الجديد الذى عين لهذا القطاع من الجبهة التى نقيم
فيها . إنهم يريدون أن يستدرجوا الهاربين من الجيش ، ثم
يحيطون بهم ويجردونهم من اسلحتهم . والقوميسار طفل فى
ثياب عسكرية . ويريد أصحابنا هنا ان يستدعوا القوزاق ،
ولكنه يقول « لا » ، لأنه يعتزم أن يعصر قلوب الهاربين
بكلامه !! .. إنه يقول إن الناس كالأطفال ، ويظن ان الأمر
كله مجرد لعب أطفال ! .. ولقد حاول « جاليولين » ان
يجادله ، وقال له : « لا تهيجن الوحوش فى الغاب . دعهم
لنا نعالجهم بطرقنا الخاصة » . ولكن المرء لا يستطيع ان
يحول شابا كهذا عما فى ذهنه .. لكم اتمنى أن تصغى إلى!..
هلا كففت لحظة عن كى الثياب ؟ .. لسوف نتعرض هنا
لمشكلة سخيفة فى القريب ، وليس فى طاقتنا ان نمنع حدوثها.
ومن ثم اتمنى ان ترحلى قبل ان تقع !

— لن يحدث اى شىء ، فإنما انت تبالغ . ثم إننى راحلة،
على اية حال . ولكنى لا استطيع ان اترك اصبعين من يدى
فإذا انا قد رحلت ! يجب ان اسلم ما فى عهدتى حسب الأصول
الدقيقة ، وان تراجع الأشياء التى كانت موكولة إلى للتثبت
من وجودها ، فلست احب ان ابدوا كما لو كنت قد سرقت

شيئا وفررت به . ثم من الذى يتسلم منى ؟ هذه هى المشكلة .. ليس بوسعى ان اصف لك ما عانيت فى سبيل جرد الأشياء . وكان كل الشكر الذى تلقيته هو أن قيل لى اننى ارتكبت تزويرا ، بأن سجلت أمتعة «جابرينسكايا» تحت اسم المستشفى ، لأن هذا ما يفهم من المرسوم . فهم يقولون الآن إننى فعلت هذا عن غش ، لأحتفظ بالأمتعة لصاحبتها الأصيلة . إنه لشىء يدعو إلى التقزز ! » .

ـ الا تكفين عن حمل هموم الأوانى والسجاجيد . اتركيها للجحيم ! .. انها ليست بالتى تستحق ان يثيروا من اجلها ضجة فى وقت كهذا ! .. آه ، ليتنى رأيتك بالأمس ، فقد كنت فى حال ذهنية طيبة ، وكان بوسعى ان اشرح كل شىء على الأرض والسماء ، إذ كان لدى الجواب حاضرا عن كل سؤال . صحيح ، فلست أمزح .. كنت أتحرق شوقا إلى ان اجلو كل شىء عن صدرى . كنت اريد أن احدثك عن زوجتى ، وابنى ، ونفسى .. لماذا بالله لا يملك الرجل الناضج ان يتحدث إلى امراة ناضجة دون ان تثار الريب حول دوافعه ، وحول ما سوف يترتب على ذلك ؟ ! .. اللعنة على كل الدوافع . أرجو أن تستمرى فى الكى ، ولا تلقى بالا إلى ، فلسوف استمر فى الكلام إننى اعتزم ان اتكلم وقتا طويلا .

« تصورى كل ما يجرى اليوم ! .. وتصورى ان تعيشى واعيش فى هذه الايام ! .. افتدركين اى شىء لم يسبق له مثيل يحدث اليوم ؟ .. إن مثل هذا الشىء لا يحدث إلا مرة فى عمر الكون ! .. تصورى روسيا بأسرها وقد انتزع سقفها من فوقها ، وانت وانا وكل امرىء آخر نعيش فى الخلاء .. وليس

هناك من يتجسس امورنا .. اى اننا احرار ، لا احرار بمجرد الكلام او النظريات، وإنما هى حرية حقيقية سقطت من السماء .. حرية فاقت كل ما كنا نتوقع .. حرية بالمصادفة ، جاءت عن طريق سوء فهم !

« ثم ما اضخم ما صار إليه كل امرىء ، وما أعظم غفلته عن حجمه . الم تلاحظى ذلك ؟ .. كأنه مذهول بنفسه وبما تجلى له من عظمته ! .. امضى فى الكى ، ارجوك .. ولا تتكلمى . ارجو ان لا تسأمى . دعينى ابدل المكواة لك :

« فى الليلة الماضية ، كنت اشهد الاجتماع فى الميدان .. كان منظرا مدهشا .. إن امنا روسيا قد بدأت تتحرك .. وليس بوسعها ان تجمد فى مكانها .. إنها قلقة ، ولن تجد سبيلا إلى راحة .. وإنها لتتكلم ، ولن تكف عن الكلام . وليس الكلام مقصوراً على الناس وحدهم ، بل إن النجوم والأشجار تلتقى وتتكلم ، والأزهار تتحدث فى الفلسفة فى الليل ، واحجار البيوت تجتمع .. ما اشبه ذلك بشىء من الأناجيل . الا ترين ذلك ؟ : كأننا فى ايام الرسل .. كأننا فى عهد القديس بولس .. أتذكرين؟ « ستتكلم بالسنة وبالنبوة . ادع من اجل نعمة الفهم » ! ..

ـ ادرك ما تعنيه بالاجتماعات التى تعقد بين النجوم ، او بين الأشجار .. إننى افهمه ، لأنه خطر لى انا الأخرى .

ـ لقد كان للحرب بعض الفضل ، ثم جاءت الثورة فاتمت الباقى .. لقد احدثت الحرب تبدلا زائفا فى الحياة .. كأنما كان فى الأمكان تأجيل الحياة او إيقاف عجلتها بعض الوقت . اى هراء هذا ! .. اما الثورة فانفجرت فى كل مكان ،

اشبه بنسمة طال احتباسها اكثر مما ينبغى . وإذا بكل امرىء يحيا من جديد ، ويولد من جديد ، ويتغير ، ويتحور .. حتى ليحق لك ان تقولى إن كل امرىء مر بثورتين: ثورته الشخصية الخاصة ، والثورة العامة . لكم يبدو لى ان الاشتراكية هى البحر ، وكل هذه الجداول المتفرقة ــ الثـــورات الخاصـــة الفردية ــ تصب فيه .. انه بحر الحيـــاة ، الحيـــاة على حقيقتها . لقد قلت : الحياة ، ولكنى اقصد الحياة كما اراها فى تحفة فنية ، وقد اضفى عليها النبوغ بهاء ، وزادها غنى ورواء بقوته الخلاقة .. الآن فقط قرر الناس ان يمارسوا هذه الحياة .. لا فى الكتب والصور ، وإنما فى انفسهم .. لا نظريا وإنما عمليا !

ونمت الرجفة التى طرات على صوته بغتة عن اشتداد انفعاله ، فكفت « لارا » عن الكى ، ورمقته بنظرة رصينة ، مبهوتة ، وإذا به يرتبك فينسى ما كان يقول . وما لبث ان اندفع ــ بعد لحظة من الحيرة والارتباك ــ فراح يهذى بكل ما اسعفته به القريحة : « بنفسى فى هذه الأيام حنين طـــاغ إلى حياة امينة مثمرة . لكم ابتغى ان اكون جزءا من كل هـــذا التطور السريع . ثم ، وفى غمرة كل هذا الفرح العام ، إذا بى اصادف نظرتك الشاردة ، الحزينة ، المحيرة ، التائهة فى دنيا مفتونة لا يعلمها احد .. إننى على استعداد لان اجـــود بكل شىء لكى لا تكون نظرتك هكذا ، ولكى ينبئنى وجهك بانك على ما يرام ، وبانك مسرورة بالحياة ، وبانك لست بحاجة إلى اى شىء من اى إنسان .. ولكى ياتينى شخص يكون وثيق القربى بك حقا ــ كصديق او كزوج .. ومن الخير ان يكون

عسكريا ــ فيمسك بيدى ويقول لى فى رفق ان ليس لى ان اشقى بمصيرك ، وإننى يجب ان ادعك وشـــانك . وإذ ذاك فقط ، ساصرعه بلكمة ، طبعا .. آسف ، لم اعن ذلك ! » .

ووشى به صوته مرة اخرى . وهز راسه ، ثم نهض وهو يشعر بارتباك حائر عاجز ، فسار إلى النافذة ، ومال على حافتها ، وراح ينظر ــ بعينين شاردتين ، زائغتين ، غير مبصرتين ــ إلى الحديقة وقد لفها الظلام .. واخذ يحاول ان يتمالك نفسه .

ودارت « لارا » حول لوحة الكى ــ وكانت ممتدة بين طرف المائدة وحافة النافذة الأخرى ــ ثم سارت إلى وســـط الغرفة ، فوقفت على قيد خطوات قلائل خلف « يورى » .. وقالت بصوت خافت ، وكانها كانت تحدث نفسها : « هذا ما كنت اخشاه دائما .. ما كان ينبغى لى ان .. لا يا « يورى انـــدرييفيتش » ، يجب الا .. اواه ، الا انظـــر ما جعلتنى افعل ! » . واسرعت تجرى إلى لوحة الكى ، حيث احترق احد اقمصتها (بلوزة) ، وتصاعد من تحت المكواة خيط نحيل من دخان لاذع الرائحة .

وعادت تقول وهى تضع المكواة على حاملها فى استياء : « يورى اندرييفيتش .. كن عاقلا ، واذهب إلى «المدموازيل» لحظة ، واشرب كوب ماء ، ثم عد يا عزيزى ، وكن كما عهدتك دائما حتى الآن ، وكما أحب ان تكـــون . افتسمعنى يا يورى اندرييفيتش ؟ .. اعرف ان فى طوقك ان تفعل ذلك . فاناشدك ان تفعله .. اتوسل إليك ! » .

ولم تدر بينهما احاديث من هذا القبيل بعد ذلك .. وإن هو إلا الأسبوع حتى رحلت « لارا » !

- ٩ -

● وبعد ذلك بفترة ، رحل « جيفاجو » هو الآخر . وكانت ثمة عاصفة رهيبة فى الليلة التى سبقت سفره . وكانت ضوضاء الزوبعة تختلط بخرير السيل الدافق ، والمطر يتخلص — فى بعض الأحيان — من دفع الرياح ، فينصب راسيا على سقوف الدور ، بينما يهبط فى أحيان اخرى على أرض الطريق ، وفق ما توجهه الريح ، وكأنها تسوطه بسياط خفية . وكانت نوبات الرعد القاصف تتتابع الواحدة وراء الأخرى دون ما فترات بينها ، فكأنها حبل موصول من هدير صاخب . وكان الشارع يبدو تحت وهج البرق كما لو كان يهرع هاربا نحو الفضاء ، والأشجار المنحنية تتبعه فى عين الاتجاه .

واوقظت « المدموازيل فليرى » من نومها — فى جوف الليل — على طرقات متعجلة ، ملحاحة ، كانت تهوى على الباب الخارجى ، فجلست فى فراشها مذعورة ، وانصتت .. واستمرت الطرقات فى إلحاح . وقالت لنفسها : امن الممكن حقا ان لا يكون قد بقى فى المستشفى احد لينهض فيفتح الباب ؟ .. أفكان لزاما عليها دائما ان تفعل كل شىء بنفسها ، وهى العجوز البائسة ، لمجرد ان الطبيعة جعلتها امينة ، وخلعت عليها شعورا بالواجب وتقديرا له ؟ !

صحيح ان آل « جابرينسكايا » كانوا من علية القوم الأغنياء ، وكانت الدار دارهم ، ولكن .. ما بال المستشفى ؟ الم يكن ملك الشعب ؟ الم يكن مستشفاهم ؟ .. فمن تراهم

يرجون ان يعنى بشؤونه ؟ .. ترى اين تلاشى الممرضون الذكور مثلا؟ .. منذا الذى ينبئها؟ .. لقد فر الجميع .. فلم يعد هناك ممرضون ، ولا ممرضات ، ولا أطباء ، ولا اى إنسان له سلطة ما ! ومع ذلك فقد كان ثمة جرحى لا يزالون فى الدار .. كان هناك رجلان مبتورا السيقان فى قاعة الجراحة ، التى كانت قاعة للجلوس فيما مضى .. وفى الطابق الأسفل ، كانت غرفة المخزن — الملاصقة للمغسل — مليئة بالمرضى بالزحار (الديسنطاريا) .. ولقد خرجت تلك الابليسة « اوستنيا » لتزود معارفها . كان جديرا بها أن تعرف تمام المعرفة ان العاصفة كانت موشكة أن تهب ، ولكن .. هل منعها هذا من الخروج من الدار ؟ .. لقد أتاحت لها العاصفة حجة لقضاء الليل مع الأغراب !

آه ، حمدا لله ، فقد كف الطرق على الباب ، وتبين الطارقون أن ليس ثمة من مجيب ، ومن ثم انثنوا عن غايتهم . وارتدوا من حيث اتوا . ولكن .. لماذا كان بعض الناس راغبين فى المجىء ، فى مثل هذا الطقس .. أم تراها كانت اوستنيا ؟ .. لا ، لقد كانت تحمل مفتاحا .. ولكن ، اواه يا ربى ! .. لقد عادوا يطرقون الباب ثانية .. يا له من امر مزعج مفزع !

ومع ذلك ، فيالرجال المستشفى من خنازير ! .. صحيح انه لم يكن لك ان تتوقع من « جيفاجو » أن يسمع شيئا ، إذ انه كان يزمع الرحيل فى اليوم التالى ، ولا بد ان افكاره كانت بعيدة — لعلها كانت إذ ذاك فى (موسكو) ، او فى الطريق إليها — ولكن ، ما بال « جاليولين » ؟ .. كيف يتسنى له ان

يغط فى نومه ، برغم كل هذا الضجيج؟.. ام تراه كان يستلقى مستيقظا ، ينصت للطرقات ، متوقعا أن تنهض هى فى النهاية ؟ .. ايركن إلى امراة ضعيفة لا حول لها ولا نصير ، فيطمع فى ان تهبط وتفتح الباب لشخص لا يعرف امره إلا الله، فى مثل هذه الليلة الرهيبة ، فى هذا الريف الموحش !

جاليولين ! .. وابرقت فى ذهنها الفكرة فجاة . يا لها من فكرة بديعة حقا .. جاليولين ؟ ! .. فيمن كانت تفكر ؟ لا بد انها كانت نصف نائمة ، وإلا لتذكرت ان جالبولين لم يكن موجودا، ولا بد انه على مسافة بعيدة من الدار فى تلك اللحظة! الم تكن هى نفسها — بمعونة جيفاجو — التى خباته ، وغيرت مظهره ، ووصفت له كل طريق وكل قرية فى المنطقة حتى يعرف كيف ينجو بعد ذلك الهياج المروع فى محطة (بيريوتشى) ، عندما قتلوا القوميسار جينتز ، وطاردوا جاليولين طيلة المسافة من (بيريوتشى) إلى (مليوزييفو) وهم يطلقون النار عليه ، ثم راحوا يفتشون عنه ارجاء البلدة ؟

لولا تلك السيارات ، لما تركوا حجرا قائما فى (مليوزييفو). فقد صادف أن مرت بالبلدة فرقة مصفحة ، فوقفت لتدافع عن البلدة ، واذاقت اولئك الشياطين من امرهم وبالا !

* * *

وكانت العاصفة قد بدات تهن ، وخف تتابع الرعد ، وتثاقل هزيمة وبدا كانه كان يبتعد .. وتوقف المطر . فاصبح من الممكن سماع الماء وهو ينحدر عن اوراق الشجر وينساب فى البالوعات . ولمعت فى حجرة « المدموازيل » ومضات من البرق

تباطات كما لو كانت تفتش عن احد بالحجرة ! .. وفجاة ، عادت الطرقات تترى على الباب من جديد ، بعد ان طال صمتها .. لا بد أن ثمة شخصا كان فى حاجة ملحة إلى العون، فراح يقرع الباب مرارا فى استماتة .. وما لبثت الريح ان هبت من جديد ، وعاد المطر إلى الهطول .

وصاحت المدموازيل لتطمئن الطارق ، ايا كان : « ها انذى آتية ! » . وافزعها رنين صوتها .. وفجاة ، خطرت ببالها حقيقة الطارق ، فاستوت فى فراشها ، ودست قدميها فى النعلين الخفيفين ، والقت ثوب الغرفة على كتفيها، وهرعت لتوقظ « جيفاجو » ، فلعل هبوطه معها يخفف من ذعرها .. وكان هو الآخر قد سمع الطرقات ، فاقبل يحمل شمعة مضاءة ، وتاهب لهبوط السلم .. وكانت الفكرة قد خطرت لكليهما معا ، عن حقيقة الطارق .

وهتفت بالفرنسية : « جيفاجو ! جيفاجو ! .. إنهم يقرعون الباب الأمامى ، وإنى لخائفة من الهبوط وحدى » .. ثم اردفت بالروسية : « لسوف ترى أن الطارق احد اثنين : إما لارا ، او الملازم جايول ! » .

وكان « يورى » حين استيقظ على الدوى ، قد داخله هو الآخر يقين بان الطارق شخص معروف لديه .. فهو إما جاليولين وقد سدوا عليه طريق الفرار ، فعاد ينشد ملاذا .. او المرضة انتيبوفا وقد حيل بينها وبين مواصلة سفرها ، ومن ثم عادت ثانية .

وعند مدخل الدار ، اسلم « يورى » الشمعة إلى

« المدموازيل » ، ورفع المزاليج ، ثم ادار المفتاح . وهب الهواء خلال الباب المفتوح ، فاطفا الشمعة ، واغرقهما بنثار من قطرات المطر الباردة . وصاحت «المدموازيل» و«جيفاجو» — كل بدوره — من جوف الظلام : « من هناك ؟ .. من هناك هل هناك احد ؟ » . ولكنهما لم يتلقيا جوابا . وفجاة ، انبعث الطرق من جديد ، فى مكان آخر .. اتراه كان لدى الباب الخلفى ، أم تراه — كما اصبح يخيل لهما — على النافذة الفرنسية المفضية إلى الحديقة ؟ .. وقال الطبيب : « يلوح لى ان الأمر من فعل الريح . ولكن ، قد يكون من الخير ان تلقى نظرة على الباب الخلفى ، من قبيل التاكد . وسأبقى هنا ، فربما كان ثمة احد فعلا ! » .

وغابت « المدموازيل » فى جوف الدار ، بينما خرج الطبيب إلى المدخل الذى كانت تحميه الجدران البارزة . وكانت عيناه قد الفتا الظلام ، فاستطاع ان يبصر اولى بوادر الفجر . وكانت السحب تتسابق فوق البلدة ، وكان وراءها من يطاردها .. وكانت جد منخفضة ، حتى ان بطونها كادت تمس قمم الأشجار ، التى كانت تنحنى فى الاتجاه ذاته ، مما كان يظهرها فى صورة المكانس المنحنية تكنس صفحة السماء . وكانت الأمطار تسوط جدران البيت الخشبية ، فتحول لونها الأغبر إلى الأسود .

وعادت المدموازيل ، فبادرها يورى متسائلا : « ماذا وجدت ؟ » . فقالت : « إنك على حق .. ما من احد هناك » . كانت قد جاست خلال البيت كله ، فتبينت ان فرعا من إحدى الأشجار هوى على نافذة المغسل فحطم احد المصاريع

الزجاجية واغرق ارض الحجرة ببركة كبيرة من الماء .. وحدث الأمر عينه فى الحجرة التى كانت « لارا » تشغلها ، فإذا فيها بحر .. اجل ، بحر بمعنى الكلمة .. محيط !

واردفت المدموازيل قائلة : « وفى هذه الناحية .. انظر ! هناك مصراع خشبى مكسور ، ولا يفتأ يصفع الجدار .. اتراه ؟ هذا كل ما هنالك ! » . وتكلما قليلا ، ثم عادا إلى حجرتيهما ، وفى نفس كل منهما اسف لان الطرقات كانت زائفة ! .. كان كل منهما شبه موقن من انه لن يكاد الباب يفتح ، حتى تدخل « لارا » وقد تصلبت اطرافها من البرد ، وابتلت ثيابها — حتى لحمها — بماء المطر . وكان كل منهما يحلم بأنه سيغرقها بعشرات من الأسئلة ، بينما تكون منهمكة فى خلع ثيابها الخارجية . ثم تصعد فتستبدل ثيابها ، وتهبط من جديد وقد زال عنها البلل ، واستردت جاشها ، فتجلس امام موقد المطبخ — الذى لا يزال بعد ساخنا منذ المساء السالف — ثم تمضى تقص عليهما مغامراتها ، وهى تدفع شعرها إلى الخلف وتضحك !

كانا واثقين من ذلك حتى ان طابع يقينهما بقى — بعد ان اغلقا الباب — عالقا بالطريق ، عند زاوية الدار ، اشبه بهيكل من الماء لتلك المراة ، أو لعله كان طيفها الذى ظل يلاحقها !

— ١٠ —

● اتجه الظن إلى ان « كوليا فرولينكو » — عامل التلغراف فى بيريوتشى — كان يحمل مسئولية غير مباشرة

للشغب الذى جرى فى المحطة .. وكان « كوليا » نجل صانع ساعات فى (مليوزييفو) ، وقد عرفه القوم هناك منذ صغره وكانت « المدموازيل » تعرفه تمام المعرفة ، لانه كان قد قضى فترة فى (رازدولنوى) مع بعض الخدم ، وهو بعد غلام ، وكثيرا ما كان يلعب مع تلميذتيها — ابنتى الكونتة — تحت مراقبتها .. وفى هذه الفترة، قدر له ان يتعلم اللغة الفرنسية.

ولقد اعتاد اهل المنطقة ان يروه على دراجته ، بلا معطف ولا قبعة ، وفى حذاءين صيفيين من التيل السميك ، مهما تكن حال الطقس . وكان يقود الدراجة دون ان يمسك مقوديها ، وهو عاقد ذراعيه على صدره ، منطلقا من (بيريوتشى)، متأملا الاسلاك والاعمدة — على طول الطريق — ليتفقد احوالها . وكانت ثمة اجهزة للتليفون فى عدد قليل من منازل (مليوزييفو) ، تتصل — عن طريق خط فرعى — بمركز التحويلات فى محطة (بيريوتشى) . وكان « كوليا » يشرف على هذا الخط من مكتبه بالمحطة .. وقد اعتاد ان يغرق فى العمل إلى قمة راسه هناك ، لانه كان — عندما يتغيب ناظر المحطة — يتولى مسئولية إشارات الخط الحديدى ، التى تدار من عين غرفة المراقبة ، إلى جانب اعماله التليفونية والتلغرافية . وقد استطاع — لاضطراره إلى مراقبة عدة ادوات آلية فى آن واحد — ان يبتكر لنفسه اسلوبا فى الحديث مبهما ، موجزا ، غامضا ، يمكنه — حين يشاء — من ان يتفادى الإجابة عن بعض الأسئلة ، او يتحاشى أن يقحم فى حديث . وقيل إنه اساء استغلال هذه الميزة فى يوم الاضطرابات .

والحق انه كان قد وفق ، بمراوغاته ، إلى أن يحبط كل النوايا التى كان جاليولين يضمرها ، وتسبب — دون ان يقصد ، فى الغالب — فى التحول الخطير الذى اتجهت إليه الأحداث ! .. وكان جاليولين قد اتصل من البلدة تليفونيا بالقوميسار جينتز — الذى كان فى المحطة ، او على مقربة منها — لينبئه بانه قادم إليه فورا ، وليساله ان لا يفعل شيئا حتى يصل هو . فما كان من « كوليا » إلا ان ابى ان ينادى جينتز ، بحجة انه كان منهمكا فى توجيه الإشارة إلى قطار كان يقترب من المحطة . وعمد — فى الوقت ذاته — إلى انتحال كل عذر صحيح او غير صحيح ، ليؤخر القطار الذى كان يقل « الفرسان القوزاق » الذين كانوا قد استدعوا إلى (بيريوتشى) . فلما وصل الجنود — رغم ذلك — لم يستطع ان يخفى استياءه !

وزحفت القاطرة إلى ظلال المحطة ، ثم وقفت امام النافذة الهائلة لحجرة المراقبة مباشرة ، فازاح « كوليا » الستار الجوخية الخضراء ، التى كانت تحمل الحروف الاولى من اسم الشركة مطرزة إلى حافتها باللون الأصفر ، ثم رفع إبريق الماء الضخم الذى كان على صينية كبيرة فوق الحافة الحجرية للنافذة ، فصب شيئا من الماء فى الكوب الزجاجية السميكة ، الخالية من اية زخرفة ، وشرب بضع جرعات ، ثم اطل من النافذة .. ورآه سائق القاطرة من مقصورته ، فاوما إليه براسه فى مودة .

وقال كوليا لنفسه فى حقد : « يا للدنىء ، السافل ! ». واخرج لسانه للسائق وهز قبضته متوعدا . ولم يفهم السائق

مقصده فحسب ، بل إنه حاول ان يقول له بهز كتفيه ، والإيماء براسه نحو القطار : « وماذا كنت املك ان افعل ؟ .. احب ان ارى ما كنت تفعله لو كنت فى مكانى . إنه الرئيس ! » . ورد كوليا بالاشارات « إنك وغد قذر ، مع ذلك ! » .

واقتيدت الخيل بعيدا عن الخطوط الحديدية ، وهى تتمنع وتقاوم ، وحوافرها تدق المعبرة الخشبية ، ثم تجاوزها إلى رصيف المحطة الحجرى .. واقتيدت — وهى مجفلة — عبر عدد من الخطوط . وكان ثمة صفان من العربات الخشبية المهملة فى نهاية الخطوط الفرعية ، وقد ازال المطر طلاءها تماما ، ونخرها السوس والرطوبة من الداخل ، حتى ارتدت إلى اصلها ، واصبحت شبيهة بخشب الغابة التى كانت تبدا خلف مخازن المهمات مباشرة ، باشجارها وحشائشها النامية، والسحب تخيم فوقها .

واعتلى القوزاق صهوات الجياد — خارج المحطة — وانطلقوا راكضين صوب معسكر الهاربين من الجيش ، فى الأرض الخلاء التى فى وسط الغابة . وسرعان ما طوقوا المتمردين . ومع ان هؤلاء كانوا يملكون اسلحة فى اكواخهم ، إلا انهم فزعوا لمرأى الفرسان الذين بدوا — كالعادة — اطول واكثر مهابة مما كانوا وهم بعيدون عن الاشجار .

* * *

واشهر القوزاق سيوفهم . وسار «جينتز» إلى الحلقة ، ثم قفز على كومة من كتل الخشب فى الوسط ، واخذ يخطب فى المحاصرين .. فراح يتحدث عن الواجب العسكرى ، وعن

معنى الوطن ، وعن كثير من الموضوعات ذات الرنين البراق. ولكن هذه الآراء لم تلق اذنا مصغية بين الحضور . كانت براقة اكثر مما ينبغى ، فقد مل الرجال مناظر الحرب وسئموها ، وقست قلوبهم غلظة من جرائها . ولقد سمعوا هذه الألفاظ من قبل ، وكم من شهور اصغوا فيها إلى الدعاية الطنانة من « اليسار » ومن « اليمين » على السواء ، حتى اصبحوا يسخرون منها ، ثم إنهم كانوا — إلى جانب ذلك — قوما سذجا ، وقد كرهوا من جينتز اسمه الأجنبى ، ولكنة اهل البلطيق فى حديثه .

وشعر جينتز بأن خطابه قد طال عما ينبغى ، فحنق على نفسه ، ولكنه راى أن من واجبه أن يكرر قوله حتى يفهمه الرجال تماما . وكان جديرا بهم أن يحمدوا له ذلك ، ولكن وجوهم لم تكن تكشف — برغم ذلك — إلا عن ملل ، أو عدم اكتراث ، أو عداء . وإذ اخذ يفقد صبره تدريجيا ، قرر أن يتكلم مباشرة بوحى من رتبته العسكرية ، وان يطلق الانذارات والتهديدات التى كان يدخرها . ولم يعبأ بغمغمة الاستياء التى تصاعدت منهم ، بل راح يذكرهم بأن محاكم الحرب الثورية قد شكلت واستدعيت لمحاكمتهم ، وان عليهم — لتفادى عقوبة الإعدام — أن يتخلوا عن اسلحتهم ، وان يسلموا زعماءهم .. ومضى قائلا إنهم إذا رفضوا، فسوف يبرهنون على انهم خونة اشقياء ، وعلى أنهم غوغاء ، جامدو العقول ، مجردون من كل وعى سياسى ..

وازداد الرجال استنكارا لهذه اللهجة . وارتفعت مئات الأصوات فى زمجرة عالية . وكان بعضها منخفضا ، واهنا ،

ينم عن تخاذل قانط : « حسنا ، حسنا .. اطلقوا نيرانكم ، وكفى ! » . ولكن أصواتا اخرى ارتفعت إلى حد الصراخ بالكراهية ، وطغت على ما عداها .. وتعالت الصيحات المتهوسة : « استمعوا إليه وهو يطرح ما فى جعبته ، ايها الرفاق ! .. تماما كما كان العهد فى الأيام الغابرة ! كاننا لم نتخلص بعد من حيل هؤلاء الضباط ! .. إذن فنحن خونة ، اليس كذلك ؟ وما رايك فى نفسك يا صاحب السعادة ؟ .. ولكن ، لماذا نحفل به ؟ .. من الجلى انه المانى ، من المتسللين إلى بلادنا ، الا ترون باعينكم ؟ .. أرنا مستنداتك يا ذا الدم الأزرق ! .. لماذا تنفر فاك استنكارا ؟ » . ثم التفتوا إلى القوزاق قائلين : « لقد جئتم لتعيدوا النظام ، فهيا اقبلوا .. قيدونا ، واقضوا علينا ! » .

ولكن القوزاق كانوا أقل منهم رضاء عن خطاب جينتز غير الموفق ، فراحوا يتمتمون : « إننا جميعا خنازير فى نظره ! .. إنه ليتصور نفسه سيدا وحاكما بأمره ! » . واخذوا يغيبون سيوفهم فى اغمادها ، واحدا بعد آخر .. وواحدا بعد آخر اخذوا يهبطون عن جيادهم . فلما ترجل معظمهم ، تحركوا فى تسكع نحو وسط الأرض الفضاء ، واختلطوا برجال الكتيبة الثانية عشرة بعد المائتين ، وتآخوا معهم !

وقال ضابط القوزاق لجينتز وهو منزعج : « يجب ان تنصرف .. يجب أن تنسحب فى هدوء ، ولا تدعهم يروك وانت تتسلل ! .. وان مركبتك لتقف عند المعبرة ، وسنستدعيها لتقابلك فى الطريق ، فاسرع ! » .

وانصرف جينتز .. ولكنه راى ان التسلل لا يليق بكرامته فتحول جهارا ، وسار إلى المحطة . حتى إذا بلغ حافة الغابة ، وبدت له الخطوط الحديدية ، التفت خلفه لأول مرة ، وإذا بجنود مشهرى البنادق يتبعونه . فقال لنفسه فى حيرة : « ترى ما الذى يبتغون ؟ » واغذ الخطى .. وكذلك فعل الذين كانوا يتبعونه ، فظلت المسافة بينه وبينهم على حالها . وراى صفى عربات السكة الحديدية البالية ، فتوارى خلفها ، ثم انطلق يجرى . وكان القطار الذى احضر القوزاق قد سار إلى المخزن ، وخلت الخطوط الحديدية .. فاخذ «جينتز» يجتازها مسرعا ، ثم قفز إلى الرصيف المنحدر . وفى تلك اللحظة ، اقبل الجنود مسرعين من خلف العربات البالية .

وكان كوليا وناظر المحطة يصيحان ويشيران إليه كى يلوذ بمبنى المحطة ، حيث يستطيعان ان ينقذاه . ولكن شعورا من الكرامة المتغلغلة فى نفسه ، والمتوارثة عبر الأجيال ، راح يدفعه إلى التضحية بالنفس فى سبيل الشرف .. ولكن من المحزن حقا ان ذلك لم يكن يناسب تلك الظروف ، ومن ثم فإنه اقام حاجزا بينه وبين النجاة . فقد بذل جهدا خارقا ليتغلب على خوفه ، بينما كان قلبه يدق فى عنف جامح . وقال لنفسه : « يجب ان اصرخ فيهم : « عودوا إلى رشدكم ايها الرجال ، فانكم لتعرفون انني لست جاسوسا ! .. » إن بضع كلمات ذات رنين إنسانى مهدىء للخواطر ، خليقة بأن توقفهم !

كان شعوره بالاخلاص والبطولة قد اصبح — فى الشهور القلائل الماضية — مرتبطا دون وعى منه بإقامة المنصات والمنابر ، وبالمقاعد التى يقفز فوقها ليلقى بصيحة يدعو فيها إلى العمل ،



« ثم انطلق يجرى . وكان القطار الذى احضر القوزاق
قد سار الى المخزن ، وخلت الخطوط الحديدية ..

او يتوعد بها صفوف المستمعين المتراصة . ومن ثم فقد احس بانه محتاج إلى منبر ! .. وعند باب المحطة تماما ، وتحت جرسها ، كان ثمة برميل ماء معد لاستعماله عند نشوب حريق . وكان يعلوه غطاء ، فقفز « جينتز » فاعتلاه ، ووجه بضع كلمات تذيب القلوب ـ ولكنها غير مترابطة ـ إلى الرجال الذين كانوا يقتربون . واذهلتهم الشجاعة المجنونة التى بدت فى حركته هذه ، وهو على قيد خطوتين من باب المحطة ، حيث كان يستطيع ان يحتمى بسهولة ، فتوقفوا عن جريهم ، ونكسوا بنادقهم . ولكن جينتز تقدم خطوة إلى حافة غطاء البراميل ، فاختل توازنه ، وهو بإحدى ساقيه إلى الماء ، بينما بقيت الساق الأخرى خارج البرميل .

وإذ راوه يفقد توازنه بارتباك ارعن ، انفجر الرجال مقهقهين ، ورماه الشخص الذى كان فى المقدمة برصاصة ، اصابت عنقه !

وكان قد فارق الحياة حين هرع الاخرون وغرسوا « سونكى » بنادقهم فى جسده !

- ١١ -

● اتصلت « المدموازيل » بكوليا تليفونيا ، وسالته ان يحجز للدكتور جيفاجو مقعدا مريحا فى القطار الذاهب إلى (موسكو) ، متوعدة إياه بأن تفضح امره إذا هو لم يفعل .. وكا كوليا منهمكا فى محادثة اخرى .. ونمت الفترات المنتظمة التى تخللت كلامه عن انه كان يملى رسالة بالشفرة خلال آلة

تليفونية ثالثة : « بسكوف ، بسكوف ! .. هل تسمعنى ؟ .. ماذا ؟ المتمردون ؟ اية معونة ؟ .. عم تتكلمين يا مدموازيل ؟ اقطعى الاتصال من فضلك .. بسكوف ، بسكوف ، ستة وثلاثون ، علامة عشرية ، صفر ، على خمسة .. آه يا للجحيم ، لقد قطعوا الاتصال ! .. هالو ، هالو ! لست اسمع .. اهذه يا مدموزايل ، مرة اخرى ؟ .. قلت لك إننى لا استطيع، فتحدثى إلى ناظر المحطة فى الأمر .. كلها اكاذيب، خرافات .. ستة وثلاثون .. آه ، يا للجحيم ! .. اخرجى عن الخط يا مدموازيل ! » .

وكانت المدموازيل تقول : « لا تذر الرماد فى عينى ، ولا تغرر بى .. بسكوف ، بسكوف ، ايها الكذاب ! .. إننى استطيع ان ارى ما فى اعماق نفسك . لسوف تحجز مكانا للدكتور فى القطار غدا ، ولن استمع إلى كلمة اخرى من بهوذا ضئيل ، قاتل ! » .

– ١٢ –

● كان اليوم الذى رحل فيه « يورى » يوما متجهما ، وقد اخذت تتحفز للانقضاض عاصمة تشبه تلك التى هبت قبل يومين . وكانت ضاحية المحطة مزركشة باكوام من قشور بذور زهر عباد الشمس ، وقد بدت الأكواخ الطينية بيضاء كالأرز ، يخيم عليها الخوف تحت السماء السوداء المنذرة بالشر .

وكان العشب فى الساحة التى تقع امام المحطة وتمتد على جانبيها قد داسته الأقدام ، وتوارى تماما تحت الحشد

الذى لا حصر له ، والذى كان يترقب وصول القطارات منذ اسابيع . وكان الكهول – فى معاطفهم الرمادية المصنوعة من صوف خشن – يتنقلون من جماعة إلى جماعة ، التماسا للأنباء والشائعات . أما الفتية الصامتون – أبناء الأربعة عشر ربيعا – فكانوا يرقدون معتمدين على مرافقهم ، يلوحون باغصان مقشورة اللحاء ، كما لو كانوا يرقبون اغناما فى رعايتهم . بينما كان إخوتهم واخواتهم الصغار يجرون بين اقدام القوم ، واقمصتهم تطير مع الهواء ، كاشفة عن ادبارهم الوردية ! .. اما أمهاتهم ، فكن يجلسن على الأرض باسطات سيقانهن أمامهن فى أوضاع مغرية ، وقد ضممن الصغار الرضع إلى صدور ستراتهن الريفية الضيقة ، البنية اللون ، الخالية من اى جمال .

وقال ناظر المحطة ليورى فى غير إشفاق ، وهما يشقان طريقا متعرجة بين صفوف الأجسام المستلقية على الأرض عند مدخل المحطة وفى داخلها : « لقد تناثروا جميعا كالغنم بمجرد أن بدأ إطلاق النار ! .. واخلوا جميعا الأرض المعشوشبة فى لمح البصر ، حتى لقد كان بوسعك ان ترى الأرض ثانية ، بعد ان كنا قد حرمنا رؤيتها اربعة اشهر ، من جراء معسكر الغجر هذا . اقول لك إننا كنا نسينا شكلها .. وها هنا استلقى جسد جينتز ! كان الأمر عجيبا ، فكم من بشاعات رايت فى الحرب ، حتى لقد كنت إخالنى الفت اسوا المناظر . ولكنى شعرت الآن بالأسف إلى حد ما . كان ما جزعت له هو ما اتسم به الحادث من بعد عن العقل . فما الذى فعله الرجل ليستحق ان يقتلوه ؟ .. على انهم ليسوا

بمخلوقات آدمية ! .. ويقال إنه كان الابن الأثير لدى والديه .. والآن ، عرج إلى اليمين من فضلك ، لنلج مكتبى . لا أملْ فى أن تستقل هذا القطار ، فانى أخشى أن يشتد ضغطهم عليك حتى تهلك . لسوف أفرد لك مكانا فى قطار فرعى نعد له العدة الآن ، ولكنا لن نذكر شيئا عنه إلى أن يتسنى لنا السماح لهم بالصعود إليه ، وإلا هدموه قبل أن يكون قد أعد . وعليك أن تنتقل إلى قطار آخر فى (سوخينيتشى) الليلة ! » .

— ١٣ —

● عندما أقبل القطار — الذى أعد سرا — إلى المحطة من خلف المخازن ، وهو يسير بظهره ، تدفق الحشد بأكمله على الخطوط الحديدية . وانحدر الناس من الجوانب كأنهم البلى ، ولجأوا إلى الطريقة المعهودة دائما ، فراحوا يتدافعون ، وقفزوا إلى درجات القطار ، وإلى الجوانب الأمامية والخلفية للعربات ، وتسلقوا النوافذ إلى الداخل ، وصعدوا إلى السقف . وفى لحظة واحدة امتلأ القطار ، وهو بعد يسعى إلى المحطة . فما إن استقر لدى الرصيف حتى كانت جماعات من الركاب متعلقة به من كل جانب ، ومن أعلاه إلى أسفله ، فضلا عن ازدحام جوفه ..

واستطاع «يورى» أن يصعد — بمعجزة — إلى الوصلة التى تربط بين عربتين ، ومن هناك ، نفذ إلى ردهة إحدى العربات بطريقة لا سبيل إلى وصفها .. وهناك ، مكث جالسا على متاعه ، طيلة الطريق إلى (سوخينيتشى) .

وكانت السحب قد تفرقت ، وتألقت الحقول تحت فيض من ضياء الشمس ، وتجاوب نقيق صراصير الحقل من كافة الأرجاء ، حتى لقد طغى على جلجلة عجلات القطار .. وكان الركاب الذين وقفوا لدى النوافذ ، يحجبون الشمس عن الباقين . وكانت ظلالهم المستطيلة فى إسراف ، تمتد بعرض الأرض والمقاعد ، وترتمى على الجدران .. ثم تقفز من نوافذ الجانب الآخر — وكأن الزحام الشديد فى الداخل قد لفظها — وتروح تعدو وتتواثب مع ظل القطار ، على الناحية الأخرى للخط الحديدى .

وكان الناس — فى كل ركن حول يورى — يصرخون ، ويرفعون عقائرهم بالسباب ، ويسبون بعضا ، ويقامرون .. وكلما وقف القطار ، أضيفت إلى الضجة التى فى داخله أصوات الجماعات التى كانت تلتف حوله فى الخارج . وبلغت الضوضاء أعلى ارتفاعها ، فكأنها هدير عاصفة على البحر .. وكما يحدث عند البحر ، كان السكون يستتب فجأة للحظات . وفى نوبات الصمت المفاجئة هذه ، التى لم يكن من سبيل إلى تعليلها ، كنت تسمع وقع الأقدام المتسارعة على طول الرصيف وعرضه ، والهرج والجدل عند عربة الأمتعة ، وقوما يتبادلون عبارات الوداع على طول القطار ، ونقنقة الدجاج وحفيف الأشجار فى حديقة المحطة .

ثم هب عبير شذى مألوف لدى « يورى» ، وكأنه رسالة أو تحيات حملتها الريح من (مليوزييفو) موجهة إليه هو وحده . وكانت الرائحة تنبعث من مكان ما على أحد جانبى النافذة ، يرتفع عن مستوى الحديقة والأزهار البرية .. وإذ

كان الزحام يحول بين « يورى » والنافذة ، فانه لم يستطع أن يرى الأشجار التى انبعث منها هذا الشذى ، ولكنه تصـور ــ فى خياله ــ أنها كانت تنمو فى مكان جد قـريب ، وتنشر فروعها الوادعة فوق سقوف العربات ، وقد كستها الأوراق المغبرة ، الكثيفة ــ التى تشبه الليل فى غزارتهـا ودكنتها ــ وتناثرت فيها الزهور الصغيرة ، كأنها النجوم توشى صـفحة ذلك الليل !

وهكذا كان ثمة زحام صاخب فى كل مكان ، على طـول الطريق .. وفى كل مكان كانت أشـجار الموالح مزهرة .. وكأنمـا كان عبيرهـا فى كل بقعة ــ فى آن واحـد ــ يلاحق المسافرين فى رحلتهم إلى الشمال ، أشـبه بإشاعة تطير على جانبى الخط الحديدى ، وتلف حول كل مركز للاشارات وكل مجمع للخطوط ، فتنتظر وصولهم وقد تدعمت وتعززت !

— ١٤ —

● وإذ بلغ القطـار (سوخينيتشى) فى ذلك المسـاء ، قاد حمال ــ من الطراز العتيق ــ « يورى » عبر الخطوط غير المضاءة إلى قطار وصـل لتـوه ، (ولم يكن من القطـارات المنتظمة التى تضمنها « جدول » المحطـة) ، وأرشـده إلى إحدى عربات الدرجـة الثانية . ومـا إن فتح باب إحـدى المقصورات ، بالمفتاح الخـاص الذى لا يحمله سوى عمـال القطارات ، ورفع متاع « يورى » إلى رفوفها ، حتى أقبـل (الكمسارى) الموكل بالقطار ، وحاول أن يلقى المتـاع إلى الخارج .. لولا أن صده « يورى » بلين ، واسترضاه ، فلم يلبث أن انصرف .

وكان القطار الغامض يخضع لنظام غريب .. كان يمضى بسرعة كبيرة ، ولا يكاد يقف عند المحطـات ، وله حارس مسلح . وكانت العربة خالية تقريبـا .. وكانت مقصـورة « يورى » مضاءة بشمعة قامت فى حامل على منضدة صغيرة ، وقد راح لهبها يتراقص تحت تيار الهواء الذى كان ينساب من النافذة نصف المفتوحة . وكانت الشمعة ملكا للراكب الآخر الوحيد .. وهو شاب أصفر الشعر ، كان حجم يديه وقدميه يوحى بأنه فارع الطول جدا . وكانت أطرافه مفككة المفاصل ، وكأنها لم تربط بعضها إلى بعض رباطا وثيقا . وكان مضطجعا فى مقعد فى ركن مجاور للنافذة . ولكنه اعتدل فى جلسته بأدب عندما أقبل « يورى » . وكان ثمة شىء أشـبه بـ « المشمع » منشورا تحت مقعد الشاب ، فتحرك طرف منه ، وبرز كلب صـغير ذو أذنين عريضـتين متهدلتين ، فتـأمل « يورى » وتشممه ، ثم شرع يجرى من أول المقصـورة إلى آخرهـا ، باسطا مخالبه فى تراخ ، إذ رأى مولاه يعقد ساقا فوق ساق .. وسرعان ما عاد زاحفا ــ إذ أمره صاحبه ــ فانزوى تحت المقعد وكأنه منفضـة من الريش ، من النـوع الصغير الذى يستخدم فى نفض الغبار .

وإذ ذاك فقط ، لمح « يورى » قراب البندقية ، وحزام الطلقات ، والكيس الجـلدى المنتفخ ، التى كانت على الرف .. إذن فقد كان الشاب عائدا من الصيد !

وكان محبا للكلام إلى أقصى حد ، فابتسم ليورى فى ود ، وسرعان ما استدرجه إلى الحديث ، وكأنمـا لم يكن يحفل من كل ملامح يورى بغير فمه ! .. وكان له صوت رفيع ، عال ،

تمجه الأذن ، ويصل احيانا إلى ما يشبه فرقعة الصفيح ! ..
ومن الغرائب الأخرى التى كشف عنها كلامه ، إنه — وإن
وضح بجلاء انه روسى — كان ينطق حرف (oo) إذا اجتمعا ،
فى ترقق اشبه بلهجة السيدات ، أو كما يلفظ المرء حرف u
فى الفرنسية ، او ü فى الالمانية . والحق ان نطق هذين
الحرفين مجتمعين كان يكبده جهدا ليس بالقليل ، وكان يرهق
نفسه إلى اقصى حد ، ويستحيل صوته إلى ما يشبه صراخا
اكثر ارتفاعا — إلى حد ما — منه حين ينطق بأية حروف
اخرى . وكان فى بعض المرات يوفق إلى أن يصحح عيبه ،
بجهد قوى واضح . بيد انه كان لا يلبث ان ينزلق إليه ثانية ..
باستمرار .

وقال يورى فى نفسه : « ما هذا بحق الشيطان ؟ ! ..
إننى واثق من اننى قرات عن هذه الظاهرة ، وكان خليقا بى
أن اعرف — كطبيب — كنهها ، ولكنى لا استطيع ان احدسها.
لا بد انها راجعة إلى عيب فى المخ يؤثر على المقدرة على
الكلام ! » .. ومهما يكن السبب ، فقد بدت الظاهرة ليورى
طريفة ، حتى انه لم يقو على ان يمنع اثر ذلك من ان يبدو على
اساريره ، فقال لنفسه : « من الخير ان آوى إلى فراشى ! » .
وصعد إلى مضجعه ، وكان فى السرير الأعلى[١] . وتطوع
الشاب فعرض ان يطفىء الشمعة حتى لا تذب النوم عن عينى

(١) المعروف ان اسرة النوم فى القطارات تتألف من طبقات بعضها فوق بعض .

الطبيب ، فقبل هذا تطوعه ، وسرعان ما باتت المقصورة فى
ظلام تام .

وقال يورى متسائلا : « هل اغلق النافذة ؟ .. ما احسبك
خائفا من اللصوص ؟ » . ولم يكن ثمة جواب ، فكرر سؤاله
بصوت اكثر اعتدالا ، ومع ذلك فإنه لم يتلق ردا فى هذا المرة
ايضا ! فاشعل عود ثقاب ، ومال على حافة سريره ليتبين ما
إذا كان زميله قد غادر المقصورة .. ولاح له ان من غير
المعقول أن يكون هو قد اغفى لحظة فلم يشعر بالشاب وهو
يغادر المقصورة ! .. ولكن الشاب لم يكن قد غادر مجلسه ،
بل ظل وعيناه مفتوحتان . وابتسم ليورى حين اطل عليه !

وانطفأ عود الثقاب ، فاشعل يورى عودا آخر ، وردد
سؤاله للمرة الثالثة ، والعود مشتعل . وإذ ذاك اجاب
الشاب : « افعل ما تشاء ، فليس معى ما يمكن ان يطمع فيه
اللصوص .. وفى وسعك ان تدع النافذة مفتوحة ، فان الجو
راكد ! » .. وقال يورى فى نفسه : « يا له من شخصية غير
عادية ! إنه غريب الأطوار بلا شك ، فهو لا يتكلم فى
الظلام ! .. ما اشد غرابة هذا !! » .

— ١٥ —

● توقع « يورى » ان يوافيه النوم بمجرد ان اراح
جسمه على الفراش ، إذ كان منهوك القوى من جراء احداث
الأسبوع الماضى ، ولأنه استيقظ وبدأ رحلته فى ساعة مبكرة
من ذلك اليوم .. ولكنه كان من الإعياء بحيث ظل مسهدا إلى
الفجر تقريبا ، وقد راحت افكاره تدافع وتدور فى الظلام .

ولاح له أنها كانت تدور فى حلقتين رئيسيتين ، راحتا تختلطان وتشتبكان ثم تنفكان وتنفصلان من تلقاء ذاتيهما ، طيلة الوقت .

وكانت إحدى الحلقتين تضم أفكاره عن «تونيا» : دارهما، وحياتهما المستقرة السابقة ، التى كان لكل شىء فيها — إلى أدق الدقائق — شاعريته ، وإخلاصه ، وصدقه ، وحرارته .. وشعر « يورى » بقلق ينتابه من اجل هذه الحياة ، فقد كان يتوق إلى أن تظل سالمة ، كاملة .. وكان الشوق يبرح به إليها — والقطار منطلق به — بعد الفراق الذى دام عامين!

وكانت هذه الحلقة تضم كذلك ولاءه للثورة ، وإعجابه بها .. الثورة بالمعنى الذى تقبلته الطبقات الوسطى ، والذى فهمه عنها الطلبة — أتباع « بلوك » — فى سنة ١٩٠٥

وكانت هذه الحلقة الشخصية تحتوى ايضا على ما كان يتوقعه من ارتياح إلى الأوضاع الجديدة . فكانت فيها تلك النذر ، وتلك الأمانى التى كانت تلوح للفكر الروسى — قبل الحرب، وفيما بين سنتى ١٩١٢ و ١٩١٤ بالتحديد — باعتبارها جماع الفن والحياة فى مصير روسيا باكملها ، وفى مصيره هو .. جيفاجو !

وكانت العودة إلى ذلك الجو بمجرد ان انتهت الحرب — ليشهد تجدده واستمراره — مبعث ارتياح لا يقل عن ارتياحه للشعور بأنه عائد إلى داره واسرته ..

* * *

كذلك كانت هذه الأمور الجديدة فى الحلقة الثانية من افكاره ، ولكن .. شد ما كانت تختلف فى هذه الحلقة عنها فى

الحلقة الأولى ! .. فان هذه الأمور الجديدة لم تكن مألوفة ، ولم تفض إليها الأوضاع القديمة . ولم تكن نتيجة اختيار ، ولا كانت من نتاج حكم الواقع ، كما انها كانت مفاجئة وكأنها زلزال !

وكانت الحرب بين هذه الأمور .. الحرب بما فيها من دماء مراقة ، ومن أهوال وفظائع ، ومن تشرد وضراوة وعزلة ، ومن محاكمات وتجارب وحكمة دنيوية هى التى اوحت بها .. وكذلك كانت بينها المدن الصغيرة المنعزلة ، التى كانت الحرب تلقى بك إليها ، والناس الذين كانت تلقى بهم معك ! .. ومن هذه الأمور الجديدة أيضا : الثورة .. لا الثورة التى كانت المثل العليا ترسمها فى أذهان الطلبة فى سنة ١٩٠٥ ، وإنما تلك الانتفاضة الجديدة ، التى ولدتها الحرب .. الانتفاضة الدموية التى لا تعرف رحمة ، والتى تناولت الأسس الجوهرية .. ثورة الجنود التى قادها المحترفون .. البلاشفة !

وكانت الممرضة « انتيبوفا » بين افكاره الجديدة هذه ، وقد حجزتها الحرب فى اقصى مؤخرة ذهنه ، مع حياتها المجهولة تماما .. انتيبوفا التى لم تنح باللوم على احد إطلاقا . والتى كان صمتها — مع ذلك — تأنيبا محسوسا .. انتيبوفا التى كانت متحفظة ، قوية فى تحفظها ، غامضة فيه ! .. ومع هذه الأفكار كان الجهد الصادق الذى راح « يورى » يبذله لكى لا يحبها .. الجهد النابع من صميم قلبه ، كما كان ينبع نضاله طيلة حياته — حتى اليوم — لكى يحب كل إنسان ، لا أسرته او اصدقاءه فحسب !

وكان القطار يندفع بكل سرعته ، والهواء الداخل من النافذة يعبث بشعر « يورى » ويبث فيه الغبار . وكانت جموع الناس تضج وتصخب عند كل محطة — سواء بالليل او بالنهار — وحفيف اشجار الموالح يصل إلى سمعه .. وكان يسمع فى بعض الأحيان فرقعة عجلات العربات أو المركبات الخفيفة منبعثة من جوف الظلام ، وهى مقبلة على المحطة ، فاذا الأصوات والفرقعة تمتزج بحفيف الأشجار إذ يشتد ويقوى . فكان « يورى » يشعر فى مثل تلك اللحظات بأنه فهم القوة التى كانت تجعل اشباح الليل هذه — الأشجار — تتحرك فى حفيف ، وتقرب ما بين رؤوسها .. وإنه ادرك ما كانت تتهامس به وهى لا تكاد تقوى على أن تحرك اوراقها ، وقد اثقلها النعاس ، فكأنها السنة عيية ، ثقيلة النطق !

كان ما تتهامس به هو عين ما كان « يورى » يفكر فيه وهو يتقلب متململا فى سريره .. إنها انباء القلق والهياج المتسع الدائرة فى روسيا .. أنباء الثورة ، والساعة العصيبة التى قد يتقرر فيها مصيرها ، والعظمة التى يحتمل ان تتوجها فى النهاية !

— ١٦ —

●وظل يورى نائما إلى ساعة متأخرة فى الصباح التالى. فكانت الساعة الحادية عشرة عندما استيقظ . وكان زميله يهيب بكلبه — الذى راح يزمجر — بصوت خافت : « برينس! برينس ! » .. وكانا لا يزالان وحيدين فى المقصورة ، لدهشة يورى ، فلم يشاركهما اياها اى مسافر آخر . وكان القطار

قد تجاوز إقليم (كالوجا) ، واوغل فى الإقليم الذى تقع فيه (موسكو) ، حيث كانت اسماء المحطات مألوفة ليورى منذ الطفولة .

ونهض فاغتسل ، وحلق لحيته ، وهو يستشعر عين العذوبة التى كانت لهذه العملية قبل الحرب . ثم عاد إلى المقصورة فى الوقت المناسب ليتناول الفطور الذى دعاه إليه زميله الغريب . واستطاع فى هذه المرة ان يجد فرصة اكثر ملاءمة كى يتأمله ويدرسه . وكان اكثر ما ادهشه منه هو ميله العارم للثرثرة ، حتى إنه لم يصمت لحظة قط ! كان يحب الكلام ، ولم يكن احب الأشياء إليه — فى هذا الصدد — ان ينقل افكاره إلى الغير او يبادلهم افكارا بأفكار . وإنما كان يحب عملية الكلام ذاتها .. عملية النطق بالكلمات ، وإصدار الأصوات ! .. وكان لا ينفك يقفز ويتفزز وهو يتكلم ، وكأنه يجلس على زنبركات .. وكان يضحك فى قهقهة تصم الآذان ، لغير ما سبب او داع .. ويفرك يديه فى سرعة فائقة ، حتى إذا اخفقت كل حيلة فى التعبير عن مشاعره ، كان يدق ركبتيه بشدة ، ويضج بالضحك حتى تدمع عيناه !

وكان لحديثه عين الظواهر الغريبة التى بدت فى الليلة السالفة . كان ملحاحا إلى درجة عجيبة ، فهو يفضى حينا باعتراف لم يسأله إياه أحد ، وهو يترك — فى حين آخر — اكثر الأسئلة براءة ، دون ان يجيب عنها .. وراح يفيض بحقائق غير متصلة ، ولا يكاد يصدقها العقل ، عن نفسه . ولعله كان يكذب بعض الشىء ، ومن المؤكد انه كان يسعى

لكى يؤثر على المستمع إليه بآرائه المتطرفة ، وبإنكار الآراء المسلم بها عادة ، مهما تكن هذه الآراء !

وبعث كل هذا إلى ذاكرة « يورى » بشىء : لقد كانت تلك شيمة « العدميين » .. انصار مذهب «العدمية» فى القرن الماضى(١) ، كما كانت شيمة شخصيات قصص « دوستويفسكى » — بعد ذلك — ثم إنها كانت شيمة ورثة هؤلاء واولئك فى العهد القريب ، من ابناء الأقاليم المثقفين ، الذين كثيرا ما كانوا يسبقون عواصم اقاليمهم فى التقدم الفكرى ، بسبب ما كانوا يطوون عليه نفوسهم من حرارة وصدق حمية ، كانت المدن الكبرى تعتبرهما من مظاهر التأخر عن ملاحقة ركب الحضارة !!

ولقد انباه الشاب بأنه كان ابن اخى احد الثوريين المعروفين ، ولكن والديه كانا رجعيين ، متأخرين إلى درجة لا تدع مجالا لأمل يرتجى فيهما .. كانا « من قبل التاريخ » ، كما سماهما ! .. وكانت لهم ضيعة كبيرة جدا ، فى منطقة اصبحت ملاصقة لجبهة الحرب . وفى هذه الضيعة نشأ الشاب . وكان والداه على شقاق محتدم مع عمه الثورى ذاك طيلة حياتهما ، ولكن العم لم يؤاخذهما بذلك ، بل اصبح

---

(١) العدميون : انصار « العدمية » وهى نظرية اعتنقها كثير من الثوريين الروس ابان الحكم القيصرى . وكانت تدعو الى هدم النظم الاقتصادية والاجتماعية القائمة ، مهما تكن الأنظمة التى قد تخلفها . وكان الافراد يقيمون من انفسهم حكاما ومنفذين للأعمال الهدامة ، دون انتظار توجيهات هيئات مركزية ، وقد اعتاد المترجمون أن يسموهم «الفوضويين» عن خطأ فى الترجمة .

يستخدم نفوذه لينقذهما من كثير من المنغصات . اما هو ، فكانت آرؤه عين آراء عمه .. كان متطرفا فى كل شىء ، سواء فى الحياة ، او فى السياسة ، او فى الفن ! .. وقد بعث هذا ايضا إلى ذاكرة « يورى » بطيف « بيتر فيرخوفنسكى »(١) ، لا من حيث ميوله اليسارية ، وإنما من حيث فساد افكاره ، وطنين عباراته !

وقال يورى فى نفسه : « إنه لن يلبث ان يقول لى إنه من المستقبليين! » . وفعلا تحول الحديث إلى « المستقبلية »(٢) . وفى كل مرة ، كان حدس يورى يصدق ، وهو يقول فى نفسه : « الآن دور الرياضة .. دور سباق الخيل .. دور الانزلاق على الجليد .. دور المصارعة الفرنسية » ! .. بل انهما تحدثا عن الصيد كذلك . فقد كان الشاب فى رحلة صيد على مقربة من ضيعة اسرته . وكان يزهو بأنه صياد بارع فى الرماية ، ولولا العيب الجسدى الذى جعله بمنأى عن الجيش لكان خليقا بأن يلمع ويتألق فى الرماية . وصاح وهو يثبت بصره إلى عينى يورى : « افلم تلاحظ شيئا حتا ؟ .. لقد خيل إلى انك حدست علة متاعبى » .

واخرج من جيبه بطاقتين ، فأسلمهما إلى يورى . كانت احداهما بطاقة زيارة تحمل اسمه — وكان اسما ذا لقب مزدوج ، إذ كان يدعى « مكسيم اريستارخوفيتش كلينتسوف

---

(١) احدى الشخصيات التى ابتدعها دوستويفسكى فى رواية «الماخوذ» .

(٢) مذهب فى الفن يرمى الى التحرر من الفن التقليدى ومن القواعد الواقعة ، واتباع قواعد اخرى للتعبير عن قوى التطلع فى الانسان .

بوجورفشيخ » أو «بوجورفشيخ» فحسب ، كما رجا «يورى» ان يدعوه ، تيمنا وتشرفا بعمه الذى كان يحمل هـذا الاسم !
ـ اما البطاقة الأخـرى فكانت مقسمة إلى مربعات ، فى كل مربع منها رسم يدين متصلتين فى أوضاع مختلفة ، وقد طويت اصابعهما باشكال متباينة . تلك كانت الحروف الأبجدية للبكم الصم !

واوضح ذلك كل شىء : لقد كان « بوجورفشيج » تلميذا موهوبـا ، غذا ، لمدرسـة « هارتمـان » أو مدرسـة « اوستروجرادوف » .. كان ابكم واصم ، استطاع أن يصل إلى درجـة من الكمال لا يتصـورها العقل ، فى فن تبـادل الحديث ،لا بالأذن وإنمـا بالعين .. بمراقبة عضـلات حلق مدرسيه . وقد مكنته هـذه الطريقة كذلك من أن يفهم ما كان الغير يقولون .

* * *

وجمع « يورى » ما ذكره له الشاب عن المنطقة الريفية التى اقبل منها ، إلى ما قاله عن رحلة الصيد ، فلم يتمالك ان ساله : « ارجـو ان تلتمس لى المعذرة إذا بدا سـؤالى غير معقول ، ثم إنك لست ملزما بأن تجيب .. هل كانت لك اية صلة بقيام جمهورية زابوشينو ؟ » . فقال الشاب ملجلجا ، وهو يقهقه ويهتز بكل جسمه ، ويدق ركبتيه براحتيه : « وكيف حدست ذلك ؟ .. هل تعرف بلاجييكو ؟ .. اجل ، اجل ! لقد كنت على صـلة حقـا ! » .. وقـال بوجورفشـيخ إن (بدشييكو) كانت الحجة و (زابوشينو) الفرصة السـانحة لتطبيق آرائه . ولم يستطع يورى ان يعى كل إسهابه فى شرح



واخرج من جيبه بطاقتين ، فاسلمهما الى يورى ..

فلسفته ، فقد بدت له مزيجا من الفوضوية ومن اكاذيب دعى متصيد للفرص !

وفى رزانة من يلقى خطابا ، راح يتنبأ بانتفاضات هوجاء تحدث فى روسيا فى المستقبل القريب . واقر « يورى » — فى سريرته — إن ذلك لم يكن بالأمر البعيد عن الحسبان ، ولكن الطريقة التى كان يصدر بها الشاب احكامه — فى قحة التلميذ المغرور — كادت تؤدى بعقله ، فلم يلبث أن قال : « لحظة واحدة .. قد يكون هذا الذى قلته صحيحا برمته ، ولكن يلوح لى على ضوء كل ما يحدث من الفوضى ، والتفكك ، والضغط الذى يقوم به العدو .. يلوح لى على ضوء كل هذا أن الوقت الحاضر ليس بالوقت الملائم للبدء بتجارب خطيرة . يجب ان ترفع البلاد راسها من غمرة إحدى الانتفاضات ، قبل أن تنغمس فى انتفاضة اخرى .. لا بد من استتباب شىء من السلام والنظام اولا ! » .

فقال بوجورفشيخ : « هذا حديث ساذج .. ان ما تسميه فوضى إنما هو وضع طبيعى للأمور ، يشبه تماما النظام الذى تتحمس له . فكل هذا الدمار ليس سوى المرحلة التمهيدية الصحيحة لخطة إنشائية واسعة . إن المجتمع لم يتفكك بعد بالدرجة الكافية . يجب ان يتحطم إربا ، ثم تقوم حكومة ثورية « حقيقية » بجمع هذه القطع ، ولصق بعضها ببعض ، على أسس جديدة تمام الجدة ! » .

وشعر يورى بضيق واشمئزاز ، فخرج إلى الردهة .

وكان القطار قد زاد من سرعته ، واخذ يقترب من (موسكو) ، شاقا طريقه وسط غابات من شجر « البتولا » قد زخرت بـ

« فيلات » وبيوت صيفية صغيرة وكانت الأرصفة غير المسقوفة ، فى المحطات الصغيرة التى راح القطار يتجاوزها مسرعا ، تتراجع بمن حفلت بهم من رجال ونساء ، وتغيب وسط سحابة من الغبار ، وهى تبدو لفرط السرعة وكأنها تدور حول نفسها . وكان القطار يرسل صفيرا عميقا ، اجوف متكررا ، فتردده جنبات الغابات ، فى تعدد منغوم ..

وفجاة فطن « يورى » ، لأول مرة فى الأشهر الأخيرة ، إلى مكانه ، وإلى ما كان يجرى حوله ، وإلى ما كان ينتظره فى فترة لا تزيد كثيرا عن الساعتين ..

ثلاث سنوات من التغيرات ، والتنقلات ، والقلق ، والانتفاضات .. الحرب ، الثورة ، مناظرة الخراب ، مناظر الموت ، القصف بالقنابل ، الجسور المنسوفة ، الحرائق ، الخرائب .. كل هذه تحولت فجاة ، فى مخيلة « يورى » ، إلى فضاء شاسع ، خاو ، مقفر .. وإذا أول حدث حقيقى فى حياته — منذ بداية هذه التطورات الطويلة — هو هذه العودة التى تمت بسرعة مذهلة ، فى هذا القطار ، وهو يدرك ان بيته لا يزال سالما ، ولا يزال قائما ، وكل حجر فيه — بل ادق حجر — عزيز لديه .. هذه هى النقطة الحاسمة فى الحياة .. هذه هى التجربة .. هذه هى بغية طلاب المغامرة ، وهى الفكرة التى تطوف بعقول الفنانين .. هذه العودة إلى البيت .. إلى أسرتك ، وإلى نفسك ، وإلى استئناف الحياة المتجددة !

وبرز القطار من الغابة التى كانت مطبقة عليه ، إلى الفضاء .. وكان ثمة حقل يصعد بميل من هوة ، ليتحول إلى

مرتفع عريض .. وكانت تمتد على صفحته خطوط افقية من احواض البطاطس الخضراء القاتمة ، وخلفها — على قمة المرتفع — كانت ثمة إطارات زجاجية .. وفى الناحية المواجهة للحقل — وراء ذيل القطار الملتوى — كانت ثمة سحابة ارجوانية داكنة تجلل نصف صفحة السماء . وكانت خيوط الشمس تخترقها لتنتشر كأنها مجموعة «اقطار دائرة» متفرعة من محور عجلة ، حتى إذا وقعت على الإطارات الزجاجية ، انعكست فى بريق وهاج لا تطيقه العين .

وفجاة ، لمعت فى ضياء الشمس قطرات مزن هتون ساخن ، وراحت تهبط بسرعة اتسقت مع سرعة القطار وهو يرسل ذلك الضجيج المنتظم الناشىء عن جرى عجلاته فوق القضبان و « الفلنكات » .. وكأنما كان المطر يخشى ان يخلفه . القطار وراءه ، فراح يلاحقه !

على ان « يورى » لم يكد يوليه اهتماما ، عندما لاحت له كنيسة « يسوع المخلص » ، فوق حافة التل(١) . وإن هى إلا لحظة أخرى حتى تجلت له قباب المدينة ومداخنها ، وسقوفها ، ودورها .. فعاد إلى المقصورة قائلا : « موسكو ! .. آن الوقت للاستعداد ! » . وإذ ذاك قفز «بوجورفشيخ» ، وتناول كيس الصيد فاخرج منه بطة سمينة ، وقال : « خذ هذه .. تذكارا ، فاننى نادرا ما قضيت يوما فى صحبة مستحبة

(١) كانت هذه الكنيسة من معالم المدينة ، وكانت تقوم فى وسطها كنصب تذكارى للحروب النابليونية . وقد هدمتها الثورة الشيوعية ، لتقيم عليها قصر السوفييت .. الذى لم ينشأ حتى كتابة هذه القصة !

كهذه ! » . ولم تجد الاحتجاجات والاعتذارات فتيلا ، فلم يلبث جيفاجو ان قال فى النهاية : « لا بأس ، سآخذها كهدية منك لزوجتى ! » .. وردد بوجورفشيخ فى اغتباط : « بديع .. رائع .. زوجتك ! » .. وكأنما كان يسمع الكلمة للمرة الأولى واشتد اهتزاز جسمه من الضحك ، حتى ان كلبه « برينس » قفز من مجثمه ، لينضم إليه فى طربه !

ودخل القطار المحطة ، فساد الظلام المقصورة ، وكان الليل اقبل . ومد الأبكم الأصم البطة إلى « جيفاجو » وقد لفها فى فرخ ممزق من الورق العريض .

الفصل السادس
وقفة فى موسكو

- ١ -

● لم يفارق يورى طوال جلوسه فى القطار شعور بأن لا شىء يسير سوى هذا القطار .. أما الزمن فقد توقف سيره ، وكان وقوفه عند ساعة الظهر ، لا يتحول عنها ! .. مع أن حقيقة الأمر ان الشمس كانت تكاد تؤذن بالمغيب حين شقت عربته ، على مهل ، طريقها من المحطة ، وسط الزحام الشديد فى ميدان (سمولنسكى) .

وهو حين يذكر المشهد فيما بعد — دون أن يدرى هل ينقل عن الواقع فعلا أم عن صور عديدة متخلفة فى ذاكرته عن السنين السابقة - يخيل إليه ان الناس ، حتى فى ذلك العهد ، قد تجمعوا فى السوق بحكم العادة وحدها .. إذ لم يكن قد بقى ثمة سبب يدعو إلى تجمعهم : فهذه صناديق البضاعة قد انزل عليها غطاؤها ، لا يبالى اصحابها ان يحكموا غلقها بالمفتاح ، فليس هناك شىء يباع او يشترى فى هذا الميدان الذى تتناثر القمامة فى جنباته ، لا يجد من يكنسه !

وخيل إليه انه يتبين فى ذلك اليوم مشهدا تكرر واستقر فيما بعد : الشيوخ والعجائز ، فى اجساد نحيلة وثياب محتشمة ، واقفين منكمشين إلى الجدران ، كأنهم اصبع اتهام يلاحق المارة ، يعرضون فى صمت أشياء لا يحتاج إليها إنسان:

زهورا صناعية .. غلايات قهوة ذات غطاء من الزجاج ، وانابيب تصدر صفيرا إذا اشتد غليان الماء .. فساتين سهرة من قماش أسود يشبه الشبكة .. أزياء رسمية اصبحت ملغاة .. الخ . وإلى جانب هؤلاء أناس من عامة الشعب ، فى يدهم بضاعة نافعة : لقم جافةمن خبز أسود بائت يوزع بالبطاقات، قطع من السكر قذرة مبتلة ، اوقية من تبغ غليظ فى نصف علبة قطعت من وسطها . كل هذه البضاعة الخسيسة — التى لا يصدقها العقل — تجول فى السوق وترتفع اسعارها كلما تداولتها الأيدى !

وانعطفت العربة إلى شارع جانبى، ومن خلفها الشمس تنحدر إلى المغيب ، ومن أمامها عربة نقل فارغة يجرها حصان متوثب مجد يثير أعمدة من الغبار فى لون البرونز حين يبرق فى الشمس .

وما لبثت عربة « يورى » ان لحقتها وسبقتها ، ودهش يورى حين رأى كثرة الصحف والملصقات التى نزعت عن الجدران والأسوار وتناثرت على الأرض ، تطوح بها الرياح إلى ناحية ، وتقذف بها الحوافر والعجلات والأقدام إلى ناحية اخرى ..

واجتازت العربة عديدا من مفارق الطرق ، ووقفت امام منزل يورى ، على ناصية شارعين خلفيين .. فحبس يورى انفاسه ، واخذ قلبه — وهو ينزل من العربة — يدق كالمطرقة .. وسار إلى المدخل الأمامى ، ورفع يده إلى جانب الباب ودق الجرس .. فلم يسمع له جوابا . ودق مرة اخرى ، وظل ينتظر .. عبثا ! .. فأخذ يوالى دق الجرس ، لا يكف إلا

لحظات قصيرة يجتر فيها قلقه . وكان لا يزال يدق الجرس حين رأى الباب ينشق عن « تونيا » وهى تفتح الباب فسيحا أمامه . . فأذهلتهما المفاجأة كليهما ، ولكن فتح الباب بيد تونيا على مصراعيه كان بمثابة الترحيب ، بل بمثابة ضمة إلى حضن ! . . ثم تمالك كل منهما نفسه وأخذ يعانق الآخر . وبعد لحظة اندفعا يتكلمان فى آن واحد :

— خبرينى قبل كل شىء . هل الجميع بخير !

— نعم . . نعم . لا تقلق . كل شىء على ما يرام ، لقد كتبت لك كثيرا ، رسائل كلها ثرثرة فارغة . اعذرنى ، سنتحدث عن ذلك فيما بعد . لماذا لم ترسل برقية ؟ سيحمل « ماركل » عنك متاعك ويصعد به . اظن انك قلقت حين لم تجد « يجورونوفا » تفتح لك الباب . إنها فى الريف .

— إنك زدت نحولا . ولكن ما أنضر شبابك وجمالك ! انتظرى لحظة حتى ادفع للسائق أجره .

— لقد ذهبت « يجورونوفا » تحاول العثور على شىء من طحين القمح . . وقد سرحنا بقية الخدم . لم يبق عندنا إلا فتاة اسمها نيوشا . إنك لا تعرفها . وهى تعنى بساشا ، وليس هناك أحد سواها . لقد بلغ الجميع نبأ قرب قدومك ، إنهم كلهم — جوردون ودودوروف والجميع — فى شوق إليك .

— وكيف حال ساشا ؟

— بخير والحمد لله . إنه استيقظ الآن من نومه ، ولولا انك قادم لتوك من القطار ، وحمى التيفوس متفشية ، لأخذتك إليه على الفور .

— هل الوالد فى الدار ؟

— الم يكتب إليك احد بخبره ؟ إنه يعمل فى مجلس الضاحية منذ الصباح إلى الليل ، هو رئيس المجلس ، نعم ! هل تصدق هذا ؟ هل فرغت من دفع أجر السائق ؟ يا ماركل ! يا ماركل !

كانا يقفان وسط الطريق وقد زحمه متاع يورى : حقيبة من الجلد واخرى على هيئة قفص من الغاب . وكان المارة يتريثون ويتفحصونهما من الراس إلى القدم ، ثم يحملقون فى العربة وهى تتحرك وتبتعد عن المنعطف ، ثم يعيدون نظرتهم إلى الباب المفتوح ليروا ما الذى سيحدث بعد ذلك .

ولكن ماركل جاء يهرول من الباب ، فى صديرى يغطى قميصه القطنى ، وعلى راسه قبعة البوابين ، يرحب بسيده الشاب وهو يصيح :

— يا إلهى! إنه يورشكا(١) بعينه، إننى لا اصدق بصرى!! سيدنا العزيز المحبوب ! نور عينى ! . . إذن انت لم تنسنا ، وكنا نحن نصلى لك كل يوم . شرفت ونورت !

ثم التفت إلى المتسكعين يزجرهم بحدة : « ماذا تريدون! اى عجب ترون ؟ انصرفوا . . ما الذى يستجلب حملقتكم؟ » .

عانقه يورى وهو يقول له : « كيف حالك يا ماركل ؟ ضع قبعتك فوق راسك يا جحش ! ما اخبارك ؟ وكيف حال زوجك وبناتك ؟ » .

---

(١) صيغة التدليل لاسم يورى .

ــ وماذا عسى ان يكون حالهن؟ إنهن يكبرن والحمد لله ! اما عن الأخبار فأنت ترى بنفسك اننا لم نكف عن العمل وانت غائب تعالج مهام الأمور . ولكن اى عمل بربك ؟ ربكة كبرى وفوضى لا يسوسها الشيطان نفسه ! .. الطرقات قذرة ، والأسقف مختلة يقطر منها الماء ، والبطون خاوية كأننا فى شهر الصوم .. وكل هذا « دون ضم أو تعويض(١) » !

فقاطعته تونيا قائلة : « ساشكوك يا ماركل إلى يورى اندريفتش ، هذه هى عادته يا يورشكا . إننى لا احتمل ثرثرته ، ولكنه ارخى العنان لها إكراما لك . يظن انك تحب هذا منه . وانت ترى ان له هو ايضا تعليقات بارعة لاذعة .. حسنا . حسنا يا ماركل . لا تجادلنى . إننى اعرفك . انت مراوغ ! آن الأوان لأن تكف عن حماقتك . إنك تكلمنا كأننا من اصحاب الدكاكين ! » .

ودخلوا إلى المنزل ، وحمل ماركل متاع يورى بعد ان اغلق الباب الأمامى وراءه ، ثم استمر يسر إليه :

ــ إن انتونيا الكسندروفنا قد اغتاظت . قالت لى ، وهذا ديدنها : « يا ماركل ! إن ضميرك اسود مثل ماسورة الموقد ! » .. إنها تقول إن كل طفل ، بل كل كلب ، من اى جنس ، يدرك هذه الأيام ما هو حادث ! وهذا حق . ولكن صدقنى أو لا تصدقنى ، أن العالمين ببواطن الأمور الآن هم

---

(١) كانت عبارة « سلم دون ضم أو تعويض » هى الشعار الذى ينادى به الجناح اليسارى للحزب الاشتراكى . ويقصد بالضم استيلاء روسيا على بلاد اجنبية .

الذين طالعوا كتاب الماسونية(١) الذى ظل مائة واربعين سنة مدفونا تحت حجر . وإنى اعتقد الآن ، بعد إعمال الفكر ، اننا وقعنا فى يد خونة باعونا بيع السماح ! ولكن هل استطيع أن اجهر بلفظ واحد ؟ .. انظر الآن بنفسك ! إن انتونيا الكسندروفنا تهز راسها لزجرى ..

وقالت تونيا توجه كلامها ليورى : « ارايت مبلغ حكمته وبراعته ؟ » .. ثم التفتت إلى ماركل وقالت: « كفى يا ماركل! ضع الحقائب ، هذا كل ما نطلبه منك . وإذا احتاج « يورى اندريفتش » إلى شىء فانه سيناديك » .

ــ ٢ ــ

ــ لقد غرب عن وجهنا والحمد لله ! انت وشأنك . تستطيع أن تصغى إليه إن شئت ، ولكنى اقول لك إنه ممثل مخاتل ، تتحدث إليه فتظنه ابله القرية ، عاجزا قليل الحيلة ، وهو فى الوقت نفسه لا يكف عن شحذ سكينه . لعله لم يقرر بعد من سيكون ضحيته ، يا له من مسن ماكر !

ــ الست تبالغين قليلا ؟ اظن انه مخمور ، وهذا هو السر .. ولا شىء هناك غير ذلك .

ــ ومتى كان يفيق ؟ ليتنى اعلم ! على كل حال فانى ضقت ذرعا به . يؤسفنى ان يعود ساشا لنومه قبل ان تراه . ولولا قمل التيفوس فى القطارات ! هل فى ثيابك قمل ؟

---

(١) المقصود هو كتاب « مقررات رؤساء صهيون » الذى رسمت فيه سياسة اسرائيل .

— لا اظن ، فقد كان سفرى فى عربة قطار فاخرة ، من عهد ما قبل الحرب . يحسن بى أن اغتسل على عجل ، ثم اتم الاغتسال كما ينبغى فيما بعد . إلى اين نحن ذاهبون ؟ الم نعد نمر بحجرة الاستقبال ؟

— آه ! طبعا انت لا تدرى ! لقد تدبرت والوالد طويلا ثم استقر الراى على ان نتخلى عن جزء من الطابق الأرضى للأكاديمية الزراعية .. وعلى كل حال فالمنزل كبير ، يصعب تدفئته فى الشتاء ، حتى الدور الأعلى يزيد عن حاجتنا ، لذلك عرضناه عليهم ايضا . ولكنهم لم ينتقلوا إليه بعد . وإن نقلوا المكتبة ونماذج النبات والحبوب . وأرجو أن لا نبتلى بالفيران ، بسبب الحبوب .. فما هى إلا حبوب قمح . ولكنهم الآن يعنون بنظافة الحجرات كل العناية . وعلى فكرة ، إننا لم نعد نستعمل لفظ « حجرة » او « غرفة » بل نقول اليوم بدلا عنه « مساحة للسكن » . تعال ، من هنا ، هل يتعبك الصعود ؟ إننا سنرقى السلم الخلفى . اتبعنى ، ساريك الطريق .

— يسرنى انكم تخليتم عن هذه الحجرات . إن المستشفى الذى كنت أقيم فيه كان هو الآخر من بيوت الأفراد : حجرات عديدة متتابعة ، لا يزال بعض ارضها من « الباركيه » ، ووراء الأسرة اصص شجيرات النخيل تمتد مخالبها كأنها اشباح — حتى كان بعض الجرحى القادمين من ميدان الحرب يهبون من نومهم فزعين ! .. طبعا كانوا فى حالة غير طبيعية . اورثهم انفجار القنابل صدمة عصبية ، فلم نر بدا من إبعاد هذه الشجيرات . قصدى ان اقول إن بعض الأغنياء كانوا يعيشون فى ترف فاسد : كماليات لا حصر لها ، إسراف فى

الأثاث والسكن ، والرفاهية والمظاهر . إننى سعيد ان اقتصرنا على عدد اقل من الحجرات ، ينبغى أن نتخلى ايضا عن بعضها .

— ما هذه الحزمة التى معك ؟ إن شيئا يطل منها ، اشبه بمنقار طير . إنها بطة ! يا للفرحة ! بطة برية ، من اين جاءتك ؟ إننى لا اصدق عينى . إنها تعد اليوم ثروة طائلة !

— لقد أخذتها هدية من مسافر بالقطار ، إنها قصة طويلة ، ساورويها لك فيما بعد . ماذا افعل بها ؟ هل اتركها فى المطبخ ؟

— طبعا . إننى سارسل « نيوشا » من فورها للمطبخ لتنتفها وتغسلها . يقولون إن الشتاء سيحمل لنا فى طياته نكبات كثيرة : المجاعة والبرد القارس .

— نعم هذا ما تردده الألسن فى كل مكان . وقد قلت لنفسى وأنا أنظر من نافذة القطار ، هل فى الدنيا شىء يفضل حياة الإنسان مع اسرته فى سلام وعمل . اما ما بعد ذلك فقدر ليس فى ايدينا . يخيل إلى اننا قادمون على اوقات عصيبة ، وبعض الناس يبحثون عن النجاة بالسفر إلى الجنوب ، إلى (القوقاز) او ما هو ابعد .. وانا نفسى لا أود ان افعل ذلك ، فان الرجل ينبغى له ان يشد على اسنانه ، ويشارك فى تحمل اعباء بلاده ، ولكن الأمر يختلف بالنسبة إليك . فاننى ابتهل ان لا تقع هذه المتاعب على كاهلك . اود أن ابعث بك إلى مكان امين ، إلى (فنلندا) مثلا . ولكن لو بقينا هكذا نثرثر نصف ساعة كلما صعدنا درجة من السلم لما فرغنا منه قط !

— انتظر لحظة ، نسيت ان اخبرك . لدى لك خبر مدهش . ان « نيكولاى نيكولاييفتش » قد عاد !

— من نيكولاى نيكولاييفتش ؟

— خالك « كوليا » .

— يا تونيا . هذا مستحيل ! كيف امكن ان يعود ؟

— لم اخبرك إلا الصدق . لقد كان فى سويسرا ، ثم جال جولة كبيرة حتى بلغ لندن ، وعاد منها عن طريق فنلندا .

— هل تسخرين منى يا تونيا ؟ هل رايته بعينيك ؟ اين هو ؟ الا نستطيع ان ندعوه إلينا الآن على الفور ؟

— صبرا ! إنه يقيم مع بعض معارفه فى الريف ، وقد وعد ان يعود بعد غد ، إنه قد تغير كثيرا . وحين تراه ستصاب بشىء من الأسى وخيبة الأمل . . لقد توقف عند عودته فى بطرسبورج وانضم إلى البلاشفة ! وإن الوالد ليبح صوته وهو يجادله . . يخيل إلى ان اقدامنا تنغرز فى الأرض كلما صعدنا درجة من السلم . . تعال . إذن انت سمعت ايضا ان امامنا الكثير من المتاعب ؟ ماذا يقول الناس ؟ مشاق واخطار ومخاوف ! ؟

— نعم ، هذا هو ظنى . . ما علينا من ذلك إننا سنتحمل ، وحين تقوم القيامة سنصبر ونرى ، شاننا شان بقية الناس .

— يقولون إننا لن نجد الحطب او الماء او النور ، وإنه سيتم إلغاء النقود ، ولن تصل المؤن . . ها نحن قد وقفنا مرة اخرى . تعال ، اصعد ، انصت إلى ، سمعت انهم يبيعون

الآن فى مخازن (اربات) مواقد حديدية جيدة ، مواقد صغيرة ، تستطيع باستعمال ورق الصحف كوقود لها ان تطبخ طعامك . ولدى العنوان فينبغى أن نشترى واحدا قبل ان تنفذ كلها .

— حسنا ، سنفعل . إنها فكرة صائبة . ولكن من كان يتصور هذا الخبر عن الخال كوليا . إننى لا زلت اكاد لا اصدق !

— دعنى اخبرك بما نويت ان افعل . إننا سنحتجز فى اعلى الدار ركنا من حجرتين او ثلاث ، متصلة بعضها ببعض ، نقيم فيها مع الوالد وساشا ونيوشا ونتخلى عن بقية البيت ، ونقيم حاجزا فيبقى لنا باب خاص بنا ، كاننا فى طابق مستقل . ونضع الموقد الحديدى فى الحجرة الوسطى وتمر ماسورته من النافذة ، ونقوم نحن انفسنا بالغسيل والطبخ فيها ، ونجعلها كذلك حجرة الجلوس . وبذلك نوفر الوقود . ومن يدرى ؟ لعلنا بعون من الله نجتاز الشتاء .

— لا ريب اننا سنجتازه . لا شك فى ذلك . ما قولك فى ان نقيم حفلة صغيرة وندعو الخال كوليا ليشاركنا فى اكل البطة ؟

— هذا جميل ، وساطلب من جوردون ان ياتينا بشىء من الكحول فإنه يظفر به من مصادر مختلفة ، من معمل تحاليل او شىء من هذا القبيل ، والآن انظر . . هذه هى الحجرة التى كنت افكر فيها . هل تعجبك ؟ ضع حقيبتك ، وانزل لتأتى بالأخرى ، يمكننا أيضا ان ندعو دودوروف وشورا شليزنجر إلى المادبة التى سنقيمها . لا تمانع ؟ اليس كذلك ؟ إنك لم تنس مكان دورة المياه ؟ اذهب وصب فيها قليلا من السائل

المطهر . ريثما اذهب انا إلى ساشا وابعث بنيوشا إلى المطبخ . وحين تعد المائدة سنناديك .

— ٣ —

● حين عاد يورى إلى موسكو كان اغرب جديد صادفه هو ابنه الصغير . لقد دعى يورى إلى الخدمة العسكرية فور ولادة ابنه ، ولذلك فهو يكاد لا يعرفه !

وحدث ذات يوم، بينما كانت تونيا لا تزال فى المستشفى، إن ذهب يورى لزيارتها ، وكان يرتدى الزى العسكرى — وهو على وشك ان يغادر موسكو — ولكنه وصل ساعة إرضاع الأطفال فلم يسمح له بالدخول على ابنه !

وجلس ينتظر فى حجرة الاستراحة ، وقد ترامى إليه من حجرة الأطفال — التى تقع فى نهاية ممر بعد حجرة الولادة — صراخ عشرة او اثنى عشر طفلا يبكون معا فى وقت واحد . واقبل عبر الممر عدد من الممرضات مسرعات لوقاية الأطفال حديثى الولادة من التعرض للبرد ، فكانت الممرضة منهن تتناول طفلا كالربطة تحت كل ذراع وتحمله إلى امه .. ويعلو من الأطفال كلهم صراخ متشابه ، كانه اداء لواجب ، غير منبعث من القلب .. ثم ينفرد من بينها صوت طفل يعلو هو ايضا بصراخ ، لا يدل أن مبعثه هو الالم — شانه فى ذلك شان الآخرين — وإنما هو اشد منها حدة .. وكانه يبكى ، لا اداء لواجب ، بل عن ثورة معلنة عمدا ضد البرد !

وكان يورى قد قرر ان يطلق على ابنه اسم الكسندر ، او ساشا عند التدليل ، اكراما لحميه . ولأمر ما خيل إليه ان

الصراخ المرتفع الذى التقطته اذنه من وسط الضجة هو صوت ابنه — ولعل السبب ان هذا الصراخ ينم عن انفراد صاحبه بطبع مميز ، وإنه يتضمن معالم مستقبل إنسان بعينه ، يحدد شخصيته وقدره ! — بل بلغ به الخيال ان احس أن هذا الصراخ له جرس وقف عليه ، ينسجم مع اسم الكسندر الذى سيحمله !

وقد صدق قلب الآب ، إذ تبين فيما بعد ان هذا الصوت هو صوت ساشا ! وكان ذلك اول خبرة له بابنه . والخبرة التالية تمثلت فى الصورة الفوتوغرافية التى ارسلتها تونيا إليه وهو فى جبهة القتال ، لطفل ممتلئ وسيم ، فمه مرسوم كأنه قوس كيوبيد إله الحب ، يقف فوق غطاء من الصوف على ساقين منفرجتين ، رافعا معصميه ، كأنه يؤدى رقصة من رقصات الفلاحين . كان ساشا قد اتم حينئذ العام الأول من عمره وبدأ يمشى خطواته الأولى . اما اليوم فقد اتم سنتين وبدا يتعلم النطق .

رفع يورى حقيبته ووضعها على منضدة لعب الورق إلى جانب النافذة ، وبدا فى إخراج ملابسه .. وهو يسأل نفسه : ترى لأى غرض كانت تستخدم هذه الحجرة من قبل ؟ إنها لم تألفها عينه . لا جرم أن تونيا قد بدلت الأثاث أو ورق الجدران ، او اعادت تنسيقها بصورة اخرى .

واخرج ادوات الحلاقة .. ومن خلال اعمدة برج الأجراس فى الكنيسة المواجهة للنافذة تمام المواجهة كان يطالعه بدر مكتمل منير ، غمرت اشعته الصف الأول من ملابسه وكتبه فى الحقيبة ، فتعرف بفضله على الحجرة ، انها

ذات الحجرة التى كانت تستخدم فى الأيام الخالية لخزن الحطب ، ولإيداع المقاعد والمناضد المكسورة . وكانت « أنا » تضع فى هذه الحجرة كذلك سجلات أسرتها والحقائب التى تخزن فيها مدة الصيف ملابس الشتاء . وكانت أركان الحجرة طوال حياة « أنا » مزدحمة بسقط المتاع الذى يعلو إلى السقف ، وكانت تحرم على الأولاد دخولها .

ولم يكن يرفع هذا التحريم إلا فى أعياد الميلاد والفصح ، حين يستضيف البيت حشدا ضخما من الأولاد يأتون للمشاركة فى حفلات هذه الأعياد ، فيتح لهم الطابق العلوى كله ، يلعبون فيه «عسكر وحرامية» ، ويختبئون تحت المناضدة ، ويلطخون وجوههم بالفحم .. وقد أعدوا لكل لعبة لباسها .. إلخ .. وقد ظل يورى برهة واقفا يستعيد ذكرى تلك الأيام ، ثم نزل من السلم الخلفى ليأخذ حقيبته الثانية .

وفى المطبخ جلست « نيكوشا » القرفصاء أمام الموقد وهى تنتف البطة على ورقة من أوراق الصحف .. فلما دخل عليها وهو يحمل حقيبته ، قفزت من مكانها فى حركة رشيقة تنم عن الخجل والحياء ، وقد تورد خدها وأخذت تنفض الريش عن مئزرها وهى تحييه وتهم بتناول الحقيبة من يده .. فشكرها قائلا إنه قادر على أن يحملها بنفسه ، ومضى .. فاذا بزوجه تناديه من ثالث حجرة بعد المطبخ وتقول له :

ـ تستطيع الآن أن تدخل يا يورى !

فدخل ليجتلى طلعة ساشا . وكانت حجرة الطفل هى التى كانت تتخذها تونيا مكتبا لها أيام الدراسة . ولم يبد له ساشا فى جمال الصورة الفوتوغرافية ، غير أنه كان يطابق فى

الشبه أم يورى ، المرحومة « ماريا نيكولايفنا جيفاجو » ، بل إن ملامح ساشا كانت أصدق شبها بها من أية صورة فوتوغرافية يحتفظ بها لها !

واخذت تونيا تقول للطفل : « هذا بابا .. ابوك ! ارنا براعتك واشر له بيدك ! » .

وامالت المهد ليسهل على يورى أن يقبل طفله ويتناوله بين ذراعيه . ولعل ساشا الصغير قد خاف ونفر من هذا الغريب الكث الشعر ، فتركه يقترب منه وينحنى عليه .. ثم بذل جهده حتى قام ، تتشبث يده بثوب امه ، وتدور اليد الأخرى بغضب ثم تهوى على وجه يورى تصفعه ! .. وافزعته ــ هو نفسه ــ هذه الجراة ، فارتمى فى احضان امه وانفجر فى بكاء مرير .

واخذت تونيا تزجره : « يا شقى . يا شقى . لا تبك ياشاشونكا . ماذا يقول عنك بابا ؟ سيقول إن ساشا ولد سيىء السلوك . أرنا الآن كيف تعطى قبلة . اعط قبلة لبابا . لا تبك يا عبيط . مم تخاف ؟ » .

واخذ يورى يناشدها : « دعيه وشأنه يا تونيا ، لا داعى لهذا الانزعاج منك او الغضب . إننى اعلم السخف الذى يجول فى خاطرك : إن الذى حدث له معناه ، فهو فال سيىء، ولكن كل هذا هراء . إنه شىء طبيعى ، فالطفل لم يرن قط من قبل . غدا ستتملى نظرته منى ويالفنى ، ويتوطد بيننا الوفاق .. وسترين اننا سنصبح من أعز الأصدقاء ! » .

ومع ذلك فانه حين غادر الحجرة أحسن بانقباض ، وشعور بنذير سوء !

— ٤ —

● أدرك يورى فى الأيام القليلة التالية كم هو يعيش فى عزلة ، لا ذنب لأحد فيها — فى تقديره — وإنما حقيقة الأمر إنه يجنى ما زرع ! لقد تبدل أصدقاؤه بشكل عجيب ، أصبحت لهم فى نظره صورة معتمة لا لون لها . لم يحتفظ واحد منهم بسمته ولا بعالمه ، فى حين أن صورتهم كما هى مرسومة فى ذاكرته تتألق واضحة المعالم ! .. لعله غالى فى الماضى فى تصويرهم لنفسه .

ولقد كان من السهل أن يطلق العنان لهذه المغالاة حين كان الوضع القائم يتيح للأثرياء أن يشبعوا نزواتهم وشذوذ طباعهم على حساب الفقراء . كانت هناك أقلية تعبث ، وترى من حقها أن تترفع عن العمل ، فى حين أن الأكثرية تكد وتشقى . هذا الوضع وحده كان يكفى لبعث الوهم بأن لكل فرد فى هذه الأقلية شخصية أصيلة وطبعا متباين الألوان يختص به وحده ، ولكن سرعان ما بهتت صورتهم حين ارتفعت الطبقات الدنيا وفقد الأغنياء امتيازاتهم . أن تعجلهم فى التنازل — عن طيب خاطر وبلا ممانعة — عن عقائد ينفردون بها ويرونها وقفا عليهم ، إنما يدل على أنها لم تكن عقائد أصيلة يعتنقونها عن إيمان !

ولم يجد يورى لنفسه فى معاشرته للناس ملاذا يسكن إليه إلا عند تونيا وأبيها واثنين أو ثلاثة من رفقائه أصبحت لهم مهن صغيرة مزجاة يقبلون عليها بعناء وتواضع ، دون أن يقيموا الدنيا ويقعدوها أو يستجلبوا الرثاء بخطب رنانة .

وأقيمت بعد أيام قلائل من عودته المأدبة الموعودة ، قوامها البطة المشربة بالخمر . ولكنه كان قد لقى من قبل أغلب المدعوين إليها ، فضاع على المأدبة وصف أنها أقيمت لأول لقاء بهم بمناسبة عودته .

وكانت البطة السمينة ترفا وبذخا لا يصدقهما العقل فى تلك الأيام التى ساد فيها الجوع . ولكنهم لم يجدوا خبزا ليأكلوها به . ومن أجل هذا وحده فقد مذاقها بعض طعمه ، بل وجد الآكلون لحمها غير شهى . أما الخمر — وهى أندر بضاعة فى السوق السوداء — فقد جاء بها جوردون فى قنينة من قنينات الأدوية عليها سدادة من الزجاج ، ضمتها تونيا إلى صدرها كما تضم طفلها ، وأخذت تخلط الخمر وهى تصب منها جرعات صغيرة بمقدار من الماء تجعله قليلا أو كثيرا حسب هواها . فكانت نسبة الكحول فى المزيج إما قوية وإما ضعيفة . ولأمر ما خال الشاربون أنه أفعل فى تخديرهم مما لو شربوا صنفا واحدا قويا . وكان هذا أيضا مبعث أسفهم وضيقهم .

ولكن أكثر شىء أثار الحزن هو أن هذه المأدبة لم تكن منسجمة مع الظروف العصيبة فى تلك الأيام . فقد كان محالا أن تتصور أن جارك المقابل يصيب نفس الطعام والشراب فى عين الوقت ! ومن وراء النوافذ كانت تجثم موسكو فى الظلام جائعة ، وكأنما قد تمشى الخدر فى أوصالها .. المتاجر خاوية ، أما البط والأوز وبقية الطيور ، والفودكا ، فقد نسى الناس مجرد التفكير فيها !

وبدا أن المنهج العملى الوحيد للحياة أن يعيش الإنسان كبقية الناس ، وأن تضيع حياته فى خضم حياة الآخرين ، دون

ان تترك لها اثرا .. وان السعادة إذا لم تكن مقتسمة مع الغير فليست هى عين السعادة .. وكذلك فان البطة والفودكا حينما تخال أن ليس فى المدينة كلها بطة أو فودكا سواها ، تفقد عندك معناها !

وكذلك لم يجد اهل البيت فى ضيوفهم أنسا لأرواحهم وطمأنينة . كانوا من قبل يستريحون إلى جوردون حين كانت له افكاره المتشائمة ، يعبر عنها بكلمات متقطعة محملة بالنذر . لقد كان اعز اصدقاء يورى ، وكان فى المدرسة تلميذا مرموقا محبوبا .. اما الآن فقد كره سليقته الماضية وآلى على نفسه — وإن لم ينجح ابدا — ان يعتنق سليقة جديدة افضل منها ، ففرض على حديثه ثوبا من الفكاهة .. يروى النادرة وراء الأخرى وهو يظنها نكتة مضحكة ، فلا يكف عن التعليق عليها بقوله : « يا لها من نكتة حلوة ! يا لها من نكتة مضحكة ! » .. وهى الفاظ لا تجدها فى قاموسه ، لأن نظرة جوردون إلى الحياة لم تكن قط نظرة إلى شىء يجد فيه البهجة والمتعة ..

وكان المجتمعون يترقبون قدوم دودوروف ، فأخذ جوردون يروى الشائعات التى احاطت بزواجه ، ولم يكن يورى قد سمعها من قبل ، ومنها الزعم بأن دودوروف قد انفصل عن زوجته بعد عشرة دامت سنة واحدة . وإن جانب الفكاهة فى قصته ، (وهى فكاهة يستنبطونها افتعالا واعتسافا) ، يبدأ حين اتاه أمر التجنيد على سبيل الخطأ ، فظل ملتحقا بالجيش إلى ان يتم التحقيق فى قضيته ويصحح الخطأ . وهكذا جر على نفسه سلسلة طويلة من المتاعب ،

بسبب غياب ذهنه وإغفاله تحية الضباط . وظل شهورا بعد إطلاق سراحه وهو يخال انه لا يرى من حواليه إلا ضباطا فى زيهم العسكرى ، فيرفع يده إلى جبهته بالتحية ، خطأ ! .. وازداد شرود ذهنه ، وكاد يفترسه الانهيار العصبى .. وتقول القصة إنه قابل فى ذلك الحين فتاتين اختين فى محطة نهرية على الفولجا ، وكانت الفتاتان مسافرتين على الباخرة التى ستقله هو ايضا ، فدهمته نوبة من شرود الذهن بسبب كثرة الضباط المنتظرين فى المحطة ، يخايلونه ذهابا وإيابا أمامه .. يضاف إلى ذلك اثر الحرمان الذى عاناه فى خدمة الجيش ، فإذا به يجد نفسه قد وقع فريسة حب صغرى الفتاتين .. فيعرض عليها الزواج من فوره !

ويقول جوردون بعد ان يفرغ من سرد هذه القصة والشائعات : « أليست هذه حكاية مضحكة ؟ » . ولكن لسانه يلجم حين يسمع صوت بطل القصة من وراء الباب .. ودخل دودوروف عليهم !

وكان هو ايضا قد تبدل طبعه من النقيض إلى النقيض . كان من قبل هوائيا كالريشة فى مهب الريح ، لا يثبت ولا يستقر . اما الآن فقد أصبح دارسا منصرفا إلى تحصيل العلم ، بجد واجتهاد ومثابرة .

وحين فصل دودوروف فى صباه من المدرسة ، لاشتراكه فى تهريب مسجون سياسى ، ظل يتنقل بين مدارس الفنون الجميلة واحدة بعد الأخرى .. ثم انتهى به المطاف إلى كلية الآداب ، ونال شهادتها اثناء الحرب ، متأخرا عن زملائه ، فاحتفظت به الكلية ليشغل منصب مدرس مادة التاريخ العام

ومادة تاريخ روسيا . وهو يؤلف الآن كتابا عن إيفان الرهيب وسياسته فى الاصلاح الزراعى ، وكتابا آخر عن « القديس جوست » .

واصبح من طبعه ان لا يترك فى الحديث الدائر مسألة واحدة دون ان يتناولها بالشرح والتعليق . وكان له صوت هادىء ينبعث من انفه ، لا يعلو به ولا يهبط . مثبتا عينيه — كانما هو فى حلم — على شىء امامه ، حتى تخال انه يلقى محاضرة .

.. وقاربت السهرة نهايتها ، وبلغت الحفلة ذروتها ، وتشابك جدل الجميع وصياحهم . وحينئذ هبطت عليهم « شورا شليزنجر » وبدأت تشاكسهم كعادتها ، فزادت من الضجة والمرح .

ومع أن دودوروف كان صديق الصبا ، إلا انه لم يكن يرفع التكليف قط حين يتحدث إلى يورى . فاقبل عليه يسأله مرارا بلهجة مؤدبة عما إذا كان قد قرأ قصيدة ماياكوفسكى المسماة : « الحرب والسلام » ، وقصيدته الأخرى : « عمودى الفقرى انبوب ناى ! » .. لكن الضجة منعته من ان يسمع إجابة يورى ، فتوجه إليه بعد برهة يسأله من جديد : « هل قرأت قصيدة : « عمودى الفقرى انبوب ناى » ، وقصيدة : « الإنسان » ؟

— لقد اجبتك من قبل ولكنك لم تسمع . ان « ماياكوفسكى » يظفر دائما باعجابى . إنه امتداد لمدرسة « دستويفسكى » ، بل قل إنه واحد من الشبان الثائرين من ابطال دستويفسكى ، خرج إلى الحياة من بين جلدتى الكتاب لينظم

لنا الشعر . إن لمواهبته فيضا متقدا يلتهم الأرواح التهاما . إنه ليفصل فى الأمر بكلام قاطع لا نقض فيه ولا تساهل ، يكشف به حقيقته بوضوح ، ثم هو فوق ذلك يقتنص العبرة ويقذفها بقوة فى وجه المجتمع . بل قد يتجاوزه إلى عالم آخر فى الفضاء الخارجى ..

.. ولكن اكبر متعة فى الحفلة قدمها لهم بطبيعة الحال كوليا . لقد اخطأت تونيا حين ظنت أنه لم يكن فى المدينة ، إذ رجع إليهما يوم عاد ابن اخته ، وكان يورى قد لقيه منذ عودته اكثر من مرة ، واستنفد الاثنان مقدمات الكلام عند اللقاء بعد الغياب وشبعا من التحدث والضحك معا .

وكان اللقاء الأول فى ليلة عكرة هامدة ، يتساقط فيها من المطر رذاذ كالرماد . وقد ذهب يورى إلى الفندق ليلقاه ، وكانت الفنادق قد بدأت تأبى نزلاء إلا بإلحاح من سلطات المدينة ، ولكن نيكولاى نيكولايفتش كانت له سمعة طيبة وظل محتفظا ببعض صلاته القديمة .

وكان الفندق أشبه شىء بمستشفى للمجاذيب تركت إدارته للمرضى انفسهم : فراغ وفوضى وارتجال ! .. ومن خلال النافذة ، فى الحجرة التى لم تجد من يكنسها ، تقع النظرة على الميدان الفسيح الذى يبعث فى القلب إحساسا بالخلاء المطبق والرهبة ، كأنه ميدان يتمثله الحالم فى نومه ، لا ميدان يتجلى للعين امام الفندق !

ووقع اللقاء على يورى وقع حادث عظيم مثير لا ينسى . إنه يلقى معبود طفولته ، والأستاذ الذى سيطر على عقله فى صباه .. وقد زانه الآن شعره الذى تحول إلى لون الرماد ،

كما انسجمت عليه بذلته غير المحبوكة ، من تفصيل بلد أجنبية .. وكان رغم سنه محتفظا برونق الشباب وبهائه .

ولا جرم أن الحوادث الضخمة الجارية قد غيبته فى تلافيفها ، بحيث إذا قيس إليها تضاءل امامها . ولكن لم يجل قط فى خاطر يورى ان يقيس قدره بالشبر والاصبع .

وتملكه العجب حين راى الخال كوليا يتحدث فى معترك السياسة باطمئنان وبثقة هادئة . كان من اكثر بنى قومه احتفاظا برويته ورباطة جاشه فى تلك الأيام . وخيل إليه أنه بازاء طراز من الناس طارىء غير مالوف . وان هذا الطراز كان قد انقرض وعفى عليه الزمن . كل اثره ان يترك فى نفس ناظره شيئا من الحيرة والارتباك .

ولكن ما اكثر المسائل التى تملكت بسحرها زمام قلبيهما فى تلك السويعات الأولى من لقائهما . إنها مسائل تختلف كل الاختلاف عن مسائل السياسة ، تلك التى جعلتهما يندفعان فى الضحك ، والنشيج ، وتبادل العناق ، وفى الحديث إلى ان يلهث كل منهما وتخنق اللهفة صوته .

وكان الذى الف بينهما ان كلا منهما له معدن الفنان الخلاق ، ومع انهما مرتبطان بصلة القربى فان الماضى قد نشر من مرقده وهب من جديد ، يجمع بينهما .. واستثيرت ذكرياتهما القديمة ، وتبادلا الحديث يسأل كل منهما الآخر عن الجديد فى حياته وحوادثها وملابساتها .. وما شرعا يتناجيان بأهم ما يشغلهما — نجوى لا يعرفها إلا اصحاب الموهبة الفنية الخلاقة — حتى ارتفعت الفروق بينهما واختفت بقية الروابط .



وتملكه العجب حين رأى الخال كوليا يتحدث فى معترك السياسة باطمئنان وبثقة هادئة ..

لم يعد الأمر أمر خال وابن أخت ، أو شيخ وشاب ، وإنما لم تبق بينهما إلا قرابة واحدة : هى قرابة الفيض الروحانى لأحدهما للفيض الروحانى للآخر ، والمبادىء الأولى لهذا للمبادىء الأولى لذاك .

وقد مضت على نيكولاى نيكولاييفتش عشر سنوات لم يتحدث فيها عن مشاكل التأليف ومعنى رسالة الكاتب بمثل هذا العمق والاستيعاب ، أو مع إنسان يماثله فى الأفكار والمعتقدات .. ولم يصادف يورى خلالها إنسانا يلقى عنده ما يظفر به الآن من فهم صادق لآرائه ، تنشط له نفسه وتجد فيه تشجيعا .

وظل الاثنان مستغرقين فى حدة الحديث يذرعان الحجرة ذهابا وإيابا ، أو يقفان فى صمت عميق أمام النافذة ، ينقران على زجاجها ، تهتز نفس كل منهما وتتسامى حين يرى كم تصدق بصيرة الآخر ويتجلى لهما كم يفهم الواحد الآخر فهما عميقا !

.. وهكذا جرى لقاؤهما الأول ، ثم لم يتقابلا بعد ذلك إلا فى حضرة الناس ، وحينئذ كانت تختفى شخصية الخال كوليا . لقد كان يشعر إنه فى موسكو ضيف عابر ، وقد سره هذا الشعور . وإنه ليتساءل : هل موطنه فى بطرسبورج أو بلد آخر ؟ هذه مسألة لا تزال باقية بدون جواب قاطع . وطابت نفسه للحفاوة التى يلقاها باعتباره من رجال السياسة الذين يجدون فى الصالونات ميدانا لعرض آرائهم ، ولعله افترض أن الصالونات السياسية قد عهدتها موسكو كما عهدت باريس صالون « مدام رولان » فى مطلع الثورة الفرنسية .

وحين يزور صديقاته من النساء فى منازلهن المضيافة ، فى الشوارع الخلفية الهادئة من موسكو ، كان يعاتبهن وأزواجهن — فى أرق أسلوب — بسخريته من تمسكهن فى الحياة بمذهب ضيق متحجر لا يساير الزمن ، وأصبح يفخر بأن له صلات بالصحف اليومية ، كما كان يفخر من قبل بتبحره الواسع فى تاريخ الآداب والأديان .

وكان يقال عنه إنه خلف وراءه فى سويسرا مغامرة غرامية بقيت معلقة — لم تبلغ مداها — كما خلف آمالا كثيرة لم يفرغ منها ، وكتابا لم يتم تأليفه .. وإنه إنما عاد إلى موسكو بمحض رغبته فى أن يلقى بدلوه أيضا فى خضم المعترك ، وأنه يعتزم إذا ظفر بالنجاة والسلام أن ينطلق عائدا — لا بتريث — إلى جبال الألب التى يحبها .

وكان مشايعا للبلاشفة ، يرد على لسانه ذكر اثنين من رجال الثورة الاشتراكية ينتميان إلى الجناح اليسارى ويقول إنهما يشاركانه آراءه وإنهما يكتبان فى الصحف تحت توقيع مستعار ، فيتخذ الأول اسم « ميروشكا بومور » ويتخذ الآخر اسم « سيلفيا كوتيرى » .

.. ويزجره الكسندر الكسندروفيتش قائلا : « إنك تغيرت بشكل مخيف ، فلقد صدعتنا بكلامك عن سخف مقالات « ميروشكا » وأشباهه ، وعن الطاقة الكبرى فى مقالات « ليديا بوكورى » !

فيجيبه « نيكولاى نيكولاييفتش » مصححا الاسم : « كوتيرى لا بوكورى ، و « سيلفيا » لا ليديا ! » .

— بوكورى أو بوتبورى ، سيان .. فما اهمية الاسم ؟

فيرد عليه نيكولاى نيكولاييفتش فى إصرار وصبر : « قلت لك ان الاسم الصحيح هو كوتيرى » .

وينشب بينهما جدل طويل على النحو التالى :

— فيم تجادل ؟ إن الأمر واضح ، بدليل ان وجهك يحمر خجلا وانت تحاول إثباته لنا بحجج جديدة . إنها بديهية اولية. لقد عاشت جموع الشعب قرونا طويلة معيشة نكراء لا تطاق. خذ اى كتاب فى التاريخ فسواء أكان النظام السائد هو نظام الإقطاع ، او الرق ، او الراسمالية ، أو الصناعة ، فانه نظام غير طبيعى وغير عادل . لم يكن هذا مجهولا منذ زمن طويل ، وكانت الدنيا تعد انقلابا يحمل النور إلى الشعوب ويضع كل شىء فى مكانه الذى ينبغى ان يكون فيه .

— انت تعلم حق العلم ان لا جدوى من ترميم البناء القديم ، بل ينبغى إذا اردت الاصلاح ان تنزل إلى الأساس العميق وتبدأ به .. لست انكر ان النتيجة قد تكون هدم البناء كله ، ولكن اى خير فى هذا ؟ إن الفزع من ان يتهدم البناء كله لا يمنع انه متهدم فعلا . إنها مسالة وقت ، كيف يمكن لك ان تنكر ذلك ؟

— ليست هذه هى المسالة ، وليس هذا هو الموضوع الذى كنت اتحدث عنه .

وفقد « الكسندر الكسندروفيتش » رباطة جاشه ، واشتعل الجدل حدة وعنفا :

— إن اصدقاءك أمثال « بوتبورى » و « ميروشكا » هم اناس لا ضمير لهم . إنهم يقولون شيئا ويفعلون شيئا آخر ! .. وعلى اية حال فان منطقك غير سليم ، وكلامك هراء . انتظر لحظة ، وساريك شيئا . ثم يقوم ينقب عن صحيفة بها مقال يناقض راسه ذيله ، فيفتح ادراج المكتب ويغلقها بعنف ليستمد من اضطرابه وضجته معينا لبلاغته وفصاحته !

ويحب الكسندر الكسندروفيتش ان يقطع حبل كلامه شىء يعترضه ويقف فى سبيله ، فانه يتخذ من هذه المقاطعة ذريعة تستر تلعثمه وشروده . وهو يسترد فصاحته دائما حين يبحث عن شىء اضاعه ، كان يفتش عن فردة حذائه الواقى من الجليد فى حجرة خزن الملابس وهى معتمة .. او حين يقف على باب الحمام وقد علق فوطة بذراعه.. او حين يناول جيرانه على المائدة إحدى صحاف الطعام .. او حين يصب الخمر فى كؤوس اصدقائه .. الخ .

وكان يورى يجد متعة فى الاستماع إلى حميه ، ويحب لهجته التى يتميز بها ابناء موسكو . إن شفته العليا — التى يغطيها شارب قصير الشعر — تبرز عن شفتيه السفلى .. كما تبرز ربطة عنقه المنعقدة — فى شكل انشوطة — عن رقبته. وهذا التشابه بين شفته وربطة العنق يجعل شخصه ينم احيانا عن مزاج صبيانى برىء ، يستدر العطف .

* * *

وفى ليلة المادبة وصلت «شورا شليزنجر» متأخرة جدا . إنها كانت قادمة لفورها من اجتماع ، وكانت ترتدى لباس

الرجال وقبلتهم . فخطت إلى الحجرة وانفجرت فى شكايات واتهامات وهى تصافح الأيدى الممتدة إليها :

— كيف حالك يا تونيا ؟ كيف حالك يا الكسندر ؟ إننى ممتعضة أشد الامتعاض . موسكو كلها تعلم أنه عاد ، كل الناس تتحدث بذلك ، ثم لا يخبرنى احد منكم بعودته ! لعلى لست جديرة باهتمامكم . أين هو صاحبنا يورى . دعونى اصل إليه . كيف حالك ؟ قد قرات المقال . إنه بديع إننى لم افهم منه كلمة واحدة . ولكنه وليد موهبة كبرى ، يتبين لك ذلك لاول وهلة . كيف حالك يانيكولاى نيكولاييفتش ؟ سأفرغ لك ياعزيزى يورى بعد لحظة واحدة . إننى اريد ان اتحدث إليك . طبتم مساء يا اطفال . انت حاضر يا « جوجوشكا » يا بطة ! — (توجه تحيتها هذه إلى قريب بعيد لاسرة جروميكو ، وهو رجل ديدنه الإعجاب بكل نجم يسطع فى المجتمع ، ويطلق عليه اصدقاؤه تفكها اسم «البطة» — بسبب ضحكته البلهاء — او اسم « الدودة » لانه طويل نحيف !) . . انتم اكلتم وشربتم ولكن سالحق بكم سريعا . انتم لاتتصورون ايها الاعزاء اى شىء ضاع عليكم . انتم لاتعلمون شيئا ولم تروا شيئا لو كنتم تعلمون بما يحدث وما يجرى فى الدنيا . . اذهبوا واحضروا اجتماعا حقيقيا للعمال ، مؤلف من عمال وجنود من لحم ودم ، ولا مجرد صور مستمدة من كتاب ، فلو قام إنسان يخطب فيهم مطالبا بمواصلة القتال حتى النصر ، لهتفوا له اشد الهتاف ! لقد كنت استمع إلى احد البحارة . . آه يا عزيزى يورى ، لو كنت مكانى لاذهلتك الدهشة والعجب . يا له من حماس ! يا له من تصميم وإجماع رائع !

ولم يكف الحاضرون عن مقاطعة المتحدثة ، كل منهم يرفع صوته عاليا ، ولكنها شقت طريقها إلى يورى وشدت على يده ، ووجهها يقارب وجهه ، وصوتها يعلو فوق الضجة كأنه فونوغراف صاخب :

— دعنى اقودك يا عزيزى يورى ، دعنى اريك الشعب على حقيقته . ينبغى لك ، نعم ، ينبغى لك أن تنتشق عبير الأرض ، وتحس بها . لماذا تحملق إلى هكذا ؟ الا تعلم ان راسى شاب فى الجهاد ؟ إننى تلميذة جامعة (بستوزيف)(١) ، وقد دخلت السجن ، وحاربت خلف المتاريس فى الشوارع . نعم . ما ظنك بى ؟ حقا إنك تجهل الشعب كل الجهل ، ولكنى قادمة من الاجتماع وكنت غارقة وسط جموع الشعب . سأفتتح لهم مكتبة عامة ينتفعون بها !

لا بد ان الخمر شعشعت فى راسها ، وكذلك كان حال يورى ، فقد اصابه الدوار . لم يلحظ قط كيف حدث أن اتخذت « شورا » مكانها فى طرف الحجرة وبقى هو فى الطرف الآخر . ثم الفى نفسه يقف على راس المائدة ، متهيئا فيما يبدو — وعلى غير توقع منه — لإلقاء خطبة . لكنه احتاج ان تصبر بعض الوقت حتى يسود الصمت :

« سيداتى ! سادتى ! »

« إننى اود . . اسكت يا ميشا . اسكت يا جوجوكشا . ماذا افعل يا تونيا ؟ انهم لا يريدون الصمت . سيداتى ! سادتى ! لى كلمة او كلمتان . إننا على وشك ان نمر بتجربة لم تخطر لنا على بال من قبل ، ولا يصدقها العقل . نتبين أن تدهمنا ،

---

(١) هى جامعة للبنات ، اغلب طالباتها ينتمين الى الجناح اليسارى .

إليكم ما اتمناه لكم : ادعو الله ان لا يفقد حينئذ احدنا الآخر ، وان لا نفقد ارواحنا . يا جوجوشكا دع الهتاف إلى نهاية كلامى . إننى لم افرغ بعد ، اقترب واستمع إلى بعناية . اصبحت جموع الشعب فى هذه السنة الثالثة من الحرب تؤمن بان الفرق بين الذين يحاربون فى جبهة القتال والذين بقوا فى المؤخرة سيزول إما عاجلا او آجلا . فإن أنهار الدم المهراق ستفيض إلى ان تبلغنا جميعا ويغوص فيها كل من تخلف عن القتال . الثورة إنما هى هذا الفيضان . وحين يقع ذلك سيخيل إليكم ــ كما كان يخيل إلينا ونحن فى الجيش ــ ان الحياة قد وقفت ، وان كل فرد اصبح صفر اليدين لا يملك شيئا ، وان لا شىء يحدث فى العالم سوى القتل والموت . ولو مد فى آجالنا إلى الوقت الذى تكتب فيه المذكرات عن العهد الذى نعيش فيه الآن ويسجل تاريخه ، فاننا سنحكم من قراءة هذه المذكرات اننا مررنا فى السنوات الخمس او العشر الأخيرة بتجارب تفوق ما مر منها ببقية الشعوب فى قرن كامل ! لا ادرى إذا كان الشعب سيهب من تلقاء نفسه ويزحف مندفعا من فوره كالسيل العرم ، او ان كل شىء سيتم على أيدى اناس يعملون نيابة عن هذا الشعب ويتكلمون باسمه . لا مجال فى هذا الحادث الجلل لأن نسال اين وثائق التفويض ، او اين المراسم المؤيدة للسلطة والتى تجرى فى جو من الشعور بمأساة رهيبة . إننا سنصدقهم ونودع بين ايديهم ثقتنا بهم . سيكون من الوضاعة والصغار ان ننقب عن دوافع هذه الحوادث الجسام ، بل قد لا يكون وراءها دافع ما . إننا لا نجد إلا فى عراك الأسرة شيئا يسمى بداية الحادث . . فبعد

ان يجذب الواحد منهم شعر الآخر ، ويحطم الأطباق ، يثوبون إلى رشدهم ليسالوا من الذى بدأ الحادث . إن الحادث الجلل حقا حادث لا بداية له ، إن كان لهذا العالم بداية ، إننا نصطدم فجأة بشىء كائن بيننا نعثر به ، فاذا هو يشملنا كانه يهبط علينا من السماء !

« وإنى اعتقد كذلك ان روسيا مقدر عليها ان تصبح اول دولة اشتراكية منذ بدء الخليقة ، وحين يحدث هذا سنصاب بالذهول زمنا طويلا ، فاذا ثاب إلينا رشدنا بقينا مع ذلك لا ندرك الأمور إلا نصف إدراك . سنجد أن نصف ذكرياتنا قد انمحت ، سنكون قد نسينا ما الذى حدث اولا ، وما الذى تلاه ، ولن نسعى لمعرفة الأسباب لشىء لا تفسير له ، سيعمنا النظام الجديد وسنالفه كما نالف رؤية الغابات على الافق البعيد او السحاب فى السماء ، سيزول كل ما عدا ذلك ولا يبقى له اثر ! » .

واستطرد يورى فاضاف إلى كلامه السابق عبارة او عبارتين ، وكان حينئذ قد افاق من سكرته ، وتملك تماما وعيه ، ولكنه مع ذلك حين جلس لم يتبين ما يقال له . . كان يخلط فى الجواب بين سؤال وسؤال ، واحس ان الجميع يغمرونه بمحبتهم ، ولكنه شعر بانقباض شديد يهصر قلبه . فقال :

ــ شكرا لكم . شكرا لكم . إننى مقدر كريم عواطفكم ، ولست جديرا بها . لا تسرفوا فى بذل حبكم ، وإنما استبقوا منه لأنفسكم ذخيرة تنفعكم فى المستقبل فيما لو سالت قلوبكم ان تهب حبا يفوق ما تنطوى عليه من حب .

ارتفع الضحك والتصفيق ، فقد ظنوا انه صاغ لهم نكتة وكلامه مستملحا عن عمد ، على حين انه لم يفطن لما قاله ، إذ كان ذهنه مستغرقا فى مطالعة نذر السوء ، يتملكه شعور بالعجز عن التحكم فى المستقبل ، رغم أن قلبه متعطش اشد التعطش لعالم تسوده الطيبة، وأن هذا القلب قادر كل القدرة على أن يعيش سعيدا .

.. ثم بدأ الضيوف فى الانصراف ، تنطق وجوههم بالإعياء ، ومعاناة السهر ، وكانوا يتثاءبون ، فاذا فتح احدهم فكيه واغلقهما ، بدا كانه حصان ! والقى اهل البيت على ضيوفهم تحية الوداع ، وهم يزيحون الستائر ويفتحون النوافذ ، وقد لاح فجر شاحب فى السماء وهى تمطر وتغطيها سحب عكرة مخضرة .. وقال احد الضيوف : « لقد هبت زوبعة لم نفطن لها وسط ثرثرتنا » .. فأمنت « شورا » على كلامه بقولها : « لقد دهمنى المطر وانا قادمه ، وكادت العاصفة تلحقنى وانا داخلة » .

وكان الظلام لا يزال يغمر الشارع الجانبى ، وقطرات الماء تتساقط عن الأشجار ويختلط وقعها بزقزقة العصافير بللها المطر . ثم دوى الرعد مرة ، كأن السماء يشقها محراث ، ثم أعقبه سكون ، تلته بعد برهة زمجرة مكتومة تكررت أربع مرات ، كأن يدا تقذف فى الفضاء جسما ثقيلا .. واضاء البرق جانبا من الحجرة المتربة المليئة بدخان التبغ ، وفجأة لاحت — بسرعة تيار الكهرباء — عناصر الحياة : الهواء ، والماء ، والعطش إلى الجذل ، والأرض والسماء ..

وامتلأ الشارع الجانبى بأصوات الضيوف المنصرفين . كانوا قد بدءوا وهم فى الدار نقاشا لم يقطعه خروجهم للطريق .. وشيئا فشيئا خفتت الأصوات وهى تبتعد ، حتى غابت واختفت ..

وقال يورى : « لقد سهرنا طويلا . فلنذهب إلى الفراش . ان كل من احب فى هذا العالم هو انت ووالدك » .

— ٥ —

● وانقضى شهر أغسطس ، وهذا هو شهر سبتمبر يوشك ان يلحق به ، والشتاء على الأبواب .. الناس يعيشون فى جو يوحى بقدر محتوم لا مفر منه ، سيدركهم بلا ريب كما سيدرك الموت امنا الأرض إذا حل الشتاء .. والحديث عن ترقب الشتاء يجرى على كل لسان . كان لا بد من خزن الطعام والحطب ، ولكن فى تلك الأيام التى شهدت انتصار المذهب المادى ، انتقل التفكير من الماديات إلى المعانى التى تنم عنها . لم يعد الحديث يدور عن الطعام والحطب ، بل عن مشاكل التغذية وتوفير المؤن . واسقط فى ايدى سكان المدن ، فغدوا ولا حيلة لهم ، كانهم اطفال يواجهون المجهول ! .. هذا المجهول الذى اكتسح كل العادات ، وصار لا يترك خلفه إلا الدمار .. (مع ان هذا المجهول هو وليد المدنية ومن صنعها !) .

وبقى الناس يتحدثون ويخادعون انفسهم ، وجهادهم اليومى فى الحياة ماض بخطى متعثرة ثقيلة إلى مصيره المجهول .. ولكن يورى راى الامر على حقيقته وادرك ان

لا نجاة ، وإنه هو وامثاله مكتوب عليهم ان يصرعوا محطمين ، فان أمامهم محناً ستتلقفهم .. بل لعل الذى سيتلقفهم هو الموت . إن أيامهم معدودة ، وهذه الأيام تفر أمامه ، يكاد يرى فرارها رأى العين !

وكان الذى امسك عليه صوابه هو انشغاله بتفاصيل الحياة اليومية : بعمله ، بهمومه، مشاغله ، وزوجته ، وابنه، وسعيه وراء الرزق ، وطقوس مهنته التى يضمها فى إطار متواضع بلا فخفخة .. نعم ، لقد وجد فى كل اولئك نجاة لنفسه !

وادرك انه قزم ضئيل إزاء الآلة الضخمة المخيفة التى يتمثل فيها المستقبل . إنه يحب المستقبل ويخشاه فى وقت واحد ! وكان يبطن اعتزازا بمقدرته على الجمع بين هاتين العاطفتين المتناقضتين .. واخذ يلتهم ببصره — كأنه يلقى نظرة اخيرة او تحية الوداع — الأشجار ، والسحب ، والناس ، والطرقات ، ومشاهد موسكو .. تلك المدينة الروسية العظيمة التى تغالب المحن .. وإنه لعلى استعداد لأن يضحى بنفسه لتنصلح الأحوال ، ولكنه عاجز عن أن يفعل شيئا !

وكان منظر السماء والناس يأخذ عادة بمجامع قلبه حين يجتاز ميدان (اربات) ، عند تقاطعه بشارع مخزن العربات القديمة بالقرب من صيدلية الجمعية الطبية الروسية .

وكان قد استأنف عمله بنفس المستشفى الذى لا يزال يحتفظ باسم « مستشفى الصليب الربانى » ، ولو أن جماعة

القساوسة التى تعمل تحت هذا الاسم كانت قد حلت ، ولم يجد أحد اسما للمستشفى يفضل اسمه المذكور . وكان موظفو المستشفى قد انقسموا إلى معسكرات مذهبية مختلفة: فهذا معسكر المتعالين ، يضايقه منهم غباؤهم — أما هم فيرونه عنصرا خطيرا ! — ومعسكر الغلاة المتبحرين فى السياسة الذين يرونه لا يخلص للراية الحمراء تمام الاخلاص . لذلك لم يرض عنه لا هؤلاء ولا أولئك !

وعهد إليه المستشفى — علاوة على عمله — بأن يتولى قسم الإحصائيات ، فأصبح يمر بين يديه عدد لا ينتهى من الاقرارات ، وفى اثرها عدد لا ينتهى من الاستمارات التى فرض عليه أن يملأ خاناتها . فان كل شىء ينبغى ان يسجل ويرفع لأولى الأمر : نسبة الوفيات ، نسبة الأمراض ، بيان مرتبات موظفى المستشفى ، مستوى عقائدهم السياسية واشتراكهم فى الانتخابات ، والعجز الدائم فى الوقود والغذاء والأدوية .. الخ .

وصار يورى يجلس إلى مكتبه القديم بجانب النافذة ، فى حجرة الأطباء . وكانت بها اكوام من الخرائط والرسوم ، من كل شكل وحجم ، ازاحها يورى إلى جانب من الحجرة . وكان يغتنم احيانا وسط العمل وقتا يكرسه لنفسه ، لا ليحرر فيه مشاهداته الطبية فحسب ، بل ليكتب مؤلفه «اقزام ورجال» ، الذى يسجل فيه مذكراته ـ باسلوب ملؤه الأسى والانقباض ـ عن الأيام التى يعيشها . وكان الكتاب يجمع بين النثر والشعر ، وتسرى فى غصونه نغمة دفينة هى وليدة شعوره بأن

نصف العالم قد فقد كيانه ، والله اعلم اى دور اصبح يلعبه فى الحياة !

وتغمر شمس الخريف بأشعتها الذهبية اللطيفة ارجاء حجرته وجدرانها الناصعة البياض . لقد مر عيد صعود العذراء واخذ الثلج يتجمد على سطح الأرض عند الفجر . وبدا العقيق وطيور الشتاء تندفع طائرة فى الغابات بين اشجار اصفرت أوراقها وتساقط أكثرها .. وإذا السماء ترتفع فى مثل هذه الأيام إلى أعلى سمت لها ، وينبعث من الشمال ضوء ازرق داكن يتنفس بالبرد فيشق الهواء الشفاف بين الارض والسماء . إن كل شىء فى الوجود قد اصبح اقدر من ذى قبل على أن تستوعبه العين والأذن . كل صوت ينطلق مجلجلا فيسمع عن بعد سحيق ، وتصبح الحقول صفحة مكشوفة كأنها مسرح الحياة كلها لعدة سنين قادمة .. وما كانت النفوس لتحتمل كل هذا الإشراق لولا انه قليل العمر ، يأتى فى نهاية اليوم — وايام الخريف قصيرة — قبل ان يحل الغسق المبكر .

وهذا هو الضوء الذى رآه يغمر حجرته ، ضوء غروب شمس مقتبل الخريف ، التى تغيب مبكرة .. ضوء لطيف براق كأنه قطر الندى ، او كأنه التفاحة الناضجة ..

وجلس يورى إلى مكتبه يجرى قلمه ثم يتريث ليفكر ويغمس سن القلم فى الحبر ، بينما تمر فى صمت اشباح طيور من وراء النافذة الطويلة فى حجرة الأطباء ، فتلقى شيئا من ظلها على يده وهى تتحرك فوق الورق ، وظلا متكاملا على المنضدة وعلى الجدران ، ثم تختفى فى صمت ..

ودخل عليه استاذ معمل الكيمياء ، وهو رجل بدين اصابه من النحول ما اصبح معه جلده يتهدل فوق جسده طبقة وراء طبقة ، وقال له : « إن اوراق الشجر قد سقطت كلها إلا قليلا ، فاعجب لها كيف احتملت كل الرياح والأمطار ، ثم يكفى ان يأتى صباح واحد يجمد فيه الثلج حتى يحصدها حصدا ! » .

صوب يورى نظره إلى النافذة ، فادرك ان الاشباح التى خال أنها طيور تمر امام النافذة لم تكن إلا اوراق الشجر ، تعلو بها الريح عن الأغصان وتسبح فى الهواء محتفظة بارتفاعها لحظة .. ثم تهوى كأنها نجوم عسجدية ، بعيدا عن الأشجار فوق العشب ..

وسأله استاذ المعمل: « هل احكم سد النوافذ بالملاط ؟ » فاجابه يورى وهو ماض فى الكتابة ! « لم يتم ذلك بعد » .

— الا تعتقد ان الوقت قد حان لسدها ؟

وكان يورى مستغرقا فى الكتابة ، فلم يرد عليه .. فاستمر الآخر يقول : «خسارة كبيرة أننا فقدنا «تاراسوك». إنه كان يساوى وزنه ذهبا ، كان يرقع لك الحذاء ، ويصلح الساعة ، ويفعل كل شىء ويأتيك بأى شىء تطلبه فى هذه الدنيا .. والآن ينبغى لنا ان نتولى بأنفسنا سد النوافذ » .

— ليس لدينا ملاط .

— تستطيع أن تصنع بنفسك شيئا منه . سأعطيك الوصفة .

واخذ يشرح له كيف يصنع الملاط من زيت الكتان

ومسحوق الطباشير ، ثم قال : « سأتركك الآن . اظنك تريد ان تنصرف إلى عملك » .

وذهب إلى النافذة الثانية وانحنى فوق قنيناته ونماذجه ، ثم قال بعد برهة : « إنك ستؤذى عينيك ، فقد حل الظلام ولن يعطوك اى نور ، هيا نعود إلى بيوتنا » .

— سأستمر فى العمل عشرين دقيقة اخرى .

— اتعلم ان زوجته تشتغل ممرضة هنا ؟

— زوجة من ؟

— زوجة تاراسوك . — نعم أعلم .

— لا احد يدرى اين هو ، إنه يتنقل فى أرجاء البلاد . لقد عاد فى الخريف الماضى مرتين ليرى زوجته ، وها هو الآن يغيب من جديد . إنه يعاون فى إقامة النظام الجديد للحياة . واصبح من جنود البلشفيك ، الذين تراهم الآن فى كل مكان ، يذرعون الشوارع ويزحمون القطارات . هل اقول لك شيئا عنهم ؟ خذ مثلا « تاراسوك » . إنه من الذين يقال عنهم « سبع صنائع فى يده » ، فهو إذا عمل عملا اتقنه ، ولكن ما الذى تعلمه فى الجيش ؟ تعلم القتل كما كان يتعلم من قبل اية مهنة اخرى. أصبح يجيد الرماية . ان اعصابه حسنة الانعكاسات، والتناسق تام بين حركة عينه وحركة يده ، وقد منحوه وساما ، لا لشجاعته او نباهته ، بل لأنه لا يخطىء المرمى ! هذا ديدنه . كل عمل يتولاه يستبد بعواطفه وحماسه ، فلا عجب ان صمم على ان يتفوق ايضا فى القتل ! اصبح يدرك معنى البندقية فى يد رجل ، انها تضفى عليه قوة وسلطانا وتميزه عن الآخرين ، فهو يريد أن يكون صاحب قوة وسلطان.

والرجل الذى يحمل بندقية بيده ليس رجلا كبقية الرجال . كان هؤلاء الرجال ينقلبون فى الأيام الخالية إلى قطاع طرق ، ولكن جرب الآن أن تنزع البندقية من يد تاراسوك ! .. ثم جاءت المناداة بشعار « أديروا السلاح نحو أسيادكم » ، فأطاع تاراسوك الأمر ! هذه هى الحكاية كلها ، وهذه هى حقيقة الماركسية .

— هذا عمل طبيعى صادق مستلهم من الحياة ذاتها . اليس كذلك ؟

وتركه الرجل ورجع إلى أنابيب تجاربه الكيمائية ، ثم عاد يسأل : « كيف كان حالك مع خبير المواقد ؟ » .

— اشكرك إن ارسلته إلى . إنه رجل مدهش . لقد صرف الساعات يتحدث معى عن « هيجل » و « كروتشى » !

— لا غرابة فى ذلك فقد نال شهادة الدكتوراه من جامعة (هيدلبرج) ، ولكن كيف حال الموقد ؟

— ليس على احسن حال .

— لا يزال ينبعث منه الدخان ؟

— باستمرار .

— لا شك انه لم يحكم وضع المدخنة ، فإن ماسورتها ينبغى أن تمر من الحجرة إلى الخارج خلال كوة ، فهل جعلها تمر من النافذة ؟

— لا ، بل من كوة ، ولكن انبعاث الدخان من الموقد لا ينقطع .

— إذ لا ريب انه لم يحسن تدبير تيار يجعل الهواء يخرج

بسهولة ، آه لو كان تاراسوك معنا الآن ! ولكن ثق أن الموقد سينصلح حاله فى نهاية الأمر ، فان موسكو لم تبن فى يوم واحد . إن إصلاح الموقد يختلف عن العزف على البيانو ! إنه يحتاج إلى حذق وبراعة . هل حصلت على الحطب اللازم لك ؟

— من اين احصل عليه ؟

— سابعث إليك ببواب الكنيسة ، إنه متخصص فى سرقة الحطب ، إنه يهدم الأسوار ويهشمها إلى قطع من الخشب صغيرة، على انك ينبغى ان تساومه ، ولكن لا . إن مصيدة الفيران تنفعك خيرا منه . .

ونزلا معا إلى حجرة المشجب فلبسا معطفيهما وخرجا. وتساءل يورى : « كيف تنفعنى مصيدة الفيران ؟ ليس فى بيتنا فيران ! » .

— إننى لم اتكلم عن الفيران ، بل عن الحطب . اعنى بمصيدة الفيران امراة عجوزا لها معاملات واسعة فى الحطب جعلت منها تجارة منتظمة . إنها تشترى المبنى كله من اجل خشبة ما اشد الظلام ! احترس ، ولا تخط خطوة إلا بحذر ، كنت استطيع فى الأيام الخالية أن اقودك وانا مغمض العينين إلى اى مكان فى هذا الحى ، فانى اعرف فيه كل حجر ، لاننى ولدت بالقرب منه . ولكنى منذ بدءوا يهدمون الأسوار أصبحت لا اهتدى إلى طريقى حتى ولو كنت أمشى فى وضح النهار . . لكاننى فى بلد غريب ! ثم إن هناك مبان عجيبة انكشفت للعيون بعد هدم الأسوار ، الم تلحظ ذلك ؟ منازل صغيرة من طراز العهد الإمبراطورى ، كنت من قبل لا يقع عليها بصرك ، وقد

بقيت كما خلفها اصحابها . لا تزال امام ابوابها مناضد خضر مستديرة ومقاعد للجلوس بالحديقة ، تتهالك وتبلى فى بستان المنزل . وقد مررت بأحد هذه المنازل ، مكان قفر على ناصية ثلاثة شوارع ، فوجدت عنده امراة عجوزا تنقب فى الأرض بعصا ، لعل عمرها قد بلغ المائة . سألتها : « يا جدتى ، هل تبحثين عن الديدان لتذهبى إلى صيد السمك ؟ كنت امزح بطبيعة الحال ، ولكنها اخذت كلامى مأخذ الجد ، واجابت : « لا . إننى لا ابحث عن الديدان ، بل عن نبات عش الغراب . والحق ان المدينة أصبحت كالغابة تحس فيها برائحة أوراق الشجر العطنة ، والطحالب . . » .

— أظن اننى أعرف المنزل الذى تتحدث عنه . إنه واقع على ناصية شارع الفضة وشارع الصمت . اليس كذلك ؟ ان اعجب الأشياء تصادفنى حين أمر هناك ، كأن اقابل رجلا لم القه منذ عشرين سنة ، او أعثر على شىء . ويقال إنه مكان غير مأمون ، فالحارات الخلفية كأنها جحر أرانب ، متشابكة متداخلة تنتهى إلى مغارة اللصوص القديمة ناحية (سمولنسكى) . وقد يحدث لك ان تجد نفسك قبل ان تفطن لكانك قد وقعت فى يد اللصوص فجردوك من كل ثيابك وتركوك عاريا ثم لاذوا بالفرار !

— انظر إلى مصابيح الشارع ، انها لا تكاد تضىء . لا عجب أن أصبح يطلق عليها الآن من قبيل التندر اسم «غواة البطح !» احترس ان لا تصيبك انت ايضا بطحة بالغة.

- ٦ -

● إن حوادث عديدة تصادف يورى حقا على ناصية شارع الفضة .. فقد حدث له قبل معركة اكتوبر بقليل ، فى ليلة حالكة باردة ، ان عثر برجل يرقد فوق الرصيف ، مغمى عليه ، يرتمى جسده عند ناصية الطريق، وقد انفرجت ذراعاه وساقاه ، وراسه مسند إلى عمود النور . ولما حاول يورى ان يوقظه اخذ يئن ويتمتم بكلمات قليلة عن دفتر كان فى جيبه ، وتبين ان اللصوص هاجموه وسرقوه ودقوا رأسه .. ولكن يورى تحقق أن عظامه بقيت سليمة . فذهب يورى إلى الصيدلية فى ميدان (اربات) وطلب بالتليفون من المستشفى ان يرسل عربة الإسعاف، وحمل الرجل إلى « عنبر الحوادث » .

وتبين فيما بعد أن المصاب زعيم سياسى مشهور ، وقد عنى به يورى واشرف على علاجه ، فاسبغ الرجل عليه فيما بعد حمايته وانقذه من مآزق عديدة فى تلك الأيام التى كانت مليئة بالريب والشكوك !

- ٧ -

● نفذت فكرة تونيا واحتجزت الأسرة لها ثلاث حجرات فى الطابق الأعلى لتمضية فصل الشتاء . وكان يوم الأحد يوما قارس البرد شديد الريح تغطى سماءه سحب كثيفة حبلى بالثلوج، وكان يوم راحة ليورى لا يؤدى فيه عمله بالمستشفى.

وأشعل الموقد فى الصباح ، وبدأ ينفث الدخان . وبذلت « نيوشا » جهدها لإشعال الحطب المبتل ، وظلت تونيا —



عثر برجل يرقد فوق الرصيف ، مغمى عليه ، يرتمى جسده عند ناصية الطريق ، وقد انفرجت ذراعاه وساقاه ..

وهى تجهل كل شىء عن المواقد — ترشدها بنصائح متناقضة. وحاول يورى — بفضل خبرته — ان يتدخل ، ولكن زوجته امسكته برفق من كتفه ودفعته خارج الحجرة ، وهى تقول له : « لا تتدخل فيها لا شأن لك به ، ستكون كمن يلقى على النار زيتا ! » .

— نعم ، حبذا الزيت .. المصيبة أن ليس هناك زيت وليست هناك نار!

— لا تمزح ! ليس هذا وقت المزاح .

وقد افسد خلل الموقد خططهم جميعا . كان كل واحد منهم يأمل ان ينجز كل ما يريد عمله فى البيت قبل ان يحل الظلام ، حتى يخلص له بقية اليوم للتمتع بحريته . ولكن موعد العشاء تأخر ، ولم تستطع تونيا أن تغسل شعرها ، وكان لا مفر من التخلى عن خطط عديدة ..

وزاد الدخان اكثر فاكثر ، ولما اشتدت الريح تراجع الدخان فانبث فى داخل البيت ، لينعقد فى الحجرة فى شكل سحابة من الهباب ، كأنها وحش أسود فى عالم مسحور !

وعمد يورى اخيرا إلى دفع الجميع إلى الحجرتين الأخريين ، واخرج من الموقد نصف حطبه ، وصف الباقى صفوفا متباعدة ، ووضع بينهما شظايا من الخشب وبعض النشارة . واندفعت الرياح إلى الحجرة فاهتزت الستائر ، وانبعجت وارتفعت اذيالها فوق النوافذ ، وتناثر الورق من فوق المكتب ، وانصفق باب فى الممر باصطكاك شديد .. واخذت الرياح تطارد بقية الدخان ، كالقط يطارد فارا ! وبدا الحطب يشتعل ويطقطق ، وزمجرت النار فى الموقد وبرزت

ألسنتها كطقع من معدن ملتهب فى حمرة وجه المريض بداء السل . وراق جو الحجرة ولطف هواؤها ، وانعقد البخار فوق زجاج النوافذ . وكان يورى قد احكم سدها بالملاط الذى صنعه طبقا لوصفة أستاذ معمل الكيمياء فكانت له رائحة دهنية دافئة . وانبعثت من كومة الحطب بجوار الموقد رائحة حادة نفاذة للحاء الشجر الذى شيطه قربه من النار .. رائحة مختلطة بعطر لذيذ يتنفس به الخشب الغض .

واندفع نيكولاى نيكولايفتش إلى الحجرة اندفاع الريح وقال :

— القتال دائر فى الشوارع . إن طلبة المدرسة الحربية يحاربون دفاعا عن الحكومة المؤقتة ضد جنود الحامية الموالية للبلشفيك . والمناوشات بينهما تجرى فى كل أرجاء المدينة ، والا يعرف عدد المراكز الرئيسية التى يتحصن فيها الجنود المتمردون . لقد تعرضت لأخطار كثيرة فى طريقى إليكم ، مرة عند شارع (ديميترونكا) الكبير ، ومرة عند بوابة (نيتسكى) ، والآن قد انقطع المرور وينبغى للسائر ان يدور دورة واسعة ليصل إلى مقصده !.. تعال يا يورى ، هات معطفك واخرج معى ، ينبغى لك ان تشهد ما يحدث . إن التاريخ يصنع امام اعيننا ، وهذا لا يحدث إلا مرة واحدة فى العمر !

ولكنه بقى فى الحجرة يتحدث ساعتين . ثم تناولوا العشاء . ولما حان موعد اوبته إلى داره ، وهم بأن يجر يورى معه ، إذا بجوردون يندفع إلى الحجرة كما فعل هو ، ليحمل عين الأنباء التى حملها من قبله ..

ومع ذلك كانت الحوادث قد تطورت ، فقد اخبرهم جوردون أن إطلاق الرصاص من البنادق قد تزايد ، وان بعض المارة قد قتلتهم رصاصات طائشة .. بل إن حركة المرور توقفت كل التوقف ، وقد استطاع هو الوصول إلى شارع خلفي بمعجزة ، ولكن الطريق سد من ورائه !

وابى نيكولاى نيكولاييفتش ان يصدقه ، وخرج يعدو ، ثم ما لبث أن عاد بعد برهة وجيزة يقول إن الرصاص يصفر فى الشارع فيطير نتفا من الطوب والطلاء من على الجدران ، وان حركة المرور قد توقفت .

واصيب « ساشا » فى ذلك الأسبوع بنزلة برد ، واخذ يورى يقول مؤنبا : « قلت ذلك مرة ، وكررته مائة مرة ، ينبغى ان لا يلعب بجوار الموقد ، إنه من الأسوأ أن يتعرض لشدة النار من أن يتعرض لشدة البرد » .

والتهب حلق « ساشا » ، وارتفعت حرارته ، وكان من طبعه ان يفزع من المرض فزعا شديدا ، ولما حاول يورى ان يفحص حلقه دفع يده وكز على اسنانه وهو يصرخ ويختنق ، ولم ينفع فيه تهديد او إغراء .. ولكنه غفل لحظة وفتح فمه واسعا ليتثاءب ، فانتهز يورى فرصة غفلته ودس بملعقة شاى يضغط بها على لسانه حتى تسنى له ان يفحص الحلق القرمزى واللوزتين المتورمتين ، وكانت عليهما بقع بيض ، فاقلقته رؤية هذه البقع !

وافلح بمناورة مشابهة ان ياخذ عينة من هذه البقع . واستطاع — لانه يملك ميكرسكوبا فى المنزل — ان يتاكد من ان الطفل غير مصاب بالدفتريا .

ولكن ساشا أصيب فى الليلة الثالثة بتشنج عصبى ، وارتفعت حرارته إلى درجة عالية وتعذر عليه التنفس .. فاسقط فى يد يورى ، ولم يجد له حيلة فى تخفيف آلامه ، وقال لتونيا إن الطفل يحتضر ، فحمله الاثنان بالتناوب وراحا يسيران به فى الحجرة .. وبدا أن هذه الحركة نفعت الصبى ، فتحسنت حالته .

وكانوا فى حاجة إلى لبن وماء الصوداء من اجل ساشا ، ولكن القتال فى الشوارع كان قد بلغ ذروته ، فلم تنقطع نيران المدافع والبنادق لحظة واحدة .. وحتى لو افلح يورى فى اختراق ساحة القتال ، مخاطرا بحياته ، فانه لن يعثر حين يجتازها على إنسان واحد فى الشوارع ، فان المدينة قد كفت عن الحياة إلى أن يتقرر مصير المعركة !

ولقد كان هذا المصير واضحا : فقد توالت الأنباء بأن العمال مسيطرون على الموقف . وبقيت جماعات من طلبة المدرسة الحربية تقاتل ، ولكن كان بعضهم فى عزلة عن بعض ، والكل فى عزلة عن مركز قيادتهم . واحتلت وحدات من الجنود حى (سيفتسيف) واخذت تشق طريقها إلى وسط المدينة . واستطاع جنود من جبهة القتال فى المانيا — ومعهم شبان من العمال — أن يحفروا خندقا فى شارع جانبى ، وقبعوا فيه . ثم بدءوا بعد قليل يألفون سكان الشارع ويمازحون من يخرج منهم امام الباب ، وبدات الحركة تدب قليلا فى بعض ارجاء المدينة .

ودام اسر جوردون ونيكولاى نيكولاييفتش ثلاثة ايام فى منزل اسرة جيفاجو ، ثم ردت لهما حريتهما . وقد فرح يورى

لبقائهما فى المنزل اثناء مرض ساشا . وغفرت لهما تونيا زيادة الفوضى على ايديهما .. ولكنهما حسبا أن لا وسيلة لهما لرد جميل اصحاب البيت إلا إذا عملا على تسليتهم بثرثرة لا تنتهى، وقد اورثت هذه الثرثرة يورى غاية الإعياء ، وسره أن شيعهما إلى الباب !

— ٨ —

● ووصلته رسالة بأن الضيفين قد وصلا إلى منزليهما سالمين . ولكن كان من سبق الحكم أن يقال إن المدينة قد عمها الأمن .. فلا يزال القتال دائرا فى بعض الأماكن ، ولا تزال احياء عديدة مغلقة المنافذ . ولم يستطع يورى الذهاب إلى المستشفى ، واشتاق إلى عمله وإلى سجل مشاهداته الطبية ، وإلى الدفتر الذى يكتب فيه مذكراته ، (وكان قد وضعه فى درج مكتبه بحجرة الأطباء) .

وكان الناس لا يبتعدون عن بيوتهم كثيرا إذا خرجوا فى الصباح وساروا قليلا ليشتروا الخبز أو ليقفوا مع حشد من الناس مجتمعين حول غريب فى يده زجاجة لبن يسألونه من اين ظفر بها ! .. ويعود إطلاق النار بين الحين والحين فى كافة انحاء المدينة ، ويسرى القول بأن الجانبين دخلا فى مفاوضات، وان المدافع تزيد من طلقاتها أو تصمت تبعا للأنباء التى تدل على أن هذه المفاوضات تسير فى طريق النجاح أو فى طريق الإخفاق .

وخرج يورى ذات ليلة من شهر اكتوبر (حسب التقويم القديم) ليزور احد زملائه ، دون أن يكون هناك ما يضطره

لهذه الزيارة . وكانت الشوارع مقفرة ، ولم يصادف فى طريقه إنسانا ، فسار مسرعا وقد اخذ الثلج الهش يتساقط كالعثير وتتقاذفه رياح بدأت تستيقظ .

وكان يجتاز دروبا خلفية ، واحدا بعد الآخر ، حتى نسى عددها .. وبدأ الثلج يتزايد سقوطه ، واشتدت الرياح وانقلبت إلى عاصفة ثلجية ، من هذه العواصف التى تصفر بين الحقول وتلقى عليها غلالة بيضاء . اما فى المدينة فهى تضطرب يمنة ويسرة كأنها فى حيرة قد ضلت طريقها .

وكان هناك شىء من التشابه بين دنيا المعنويات ودنيا الماديات ، بين الاضطرابات القريبة والاضطرابات البعيدة ، بين مشاهد الأرض ومشاهد السماء . ومن هنا وهناك ينطلق سيل من طلقات الرصاص المنبعثة من مراكز معزولة قد خفت مقاومتها . ومن فوهات المدافع . تنبعث كرات من لهيب محتضر ترتفع للسماء ثم تنشق وتتبدد ، وكذلك الثلج تلفه الرياح فى كرات ترتفع هى ايضا إلى السماء . بل إن الثلج فوق الأحجار المبتلة التى تطؤها قدم يورى كان ينبعث منه بخار كالدخان .

ولحق به على ناصية طريقين صبى يجرى حاملا بين ذراعيه لفة من صحف لم يجف عليها حبر المطبعة ، وهو يصيح : « آخر ساعة ! آخر ساعة ! » ، فناوله يورى قطعة من النقود وقال له : « احتفظ لك ببقيتها » ، فأخرج الصبى من اللفة — كأنما ينزع قشرتها — صحيفة ودفعها إلى يده ، ثم اختفى وسط العاصفة الثلجية .

وقف يورى تحت مصباح النور وبدأ يقرأ العناوين الضخمة ، وكانت الصحيفة «ملحقا» صدر فى ساعة متأخرة ، مطبوعا على جانب واحد ، وقد نشر فيه الإعلان الرسمى من بطرسبورج بأنه قد تم تأليف مجلس السوفييت ، وإنه قد توطدت فى روسيا سلطة السوفييت وديكتاتورية الطبقة العاملة . ثم تلا ذلك أول مراسيم الحكومة الجديدة ، وأنباء متفرقة تلقتها الصحيفة بالتلغراف والتليفون .

لكن رياح العاصفة لا تلبث أن تلطم عينى يورى وتغطى الصحيفة بنخالة دقيقة مغبرة تخشخش ، غير أن العاصفة لم تكن هى التى صدته عن متابعة القراءة ، بل كانت الهزة التى افترست روحه .. وشعوره بطغيان تلك الحوادث الجسام على فؤاده ، وتفكيره فى عواقبها لقرون عديدة قادمة !

وكان لامناص له من متابعة القراءة على كل حال ، فأخذ يتلفت حوله، يبحث عن مكان أكثر ضوءا وأوفر وقاية من المطر . وعجب حين وجد نفسه واقفا مرة أخرى على ناصية شارع الفضة وشارع الصمت ، أمام منزل من خمسة أدوار ، له باب زجاجى وراءه ردهة حسنة الإضاءة . فدخل ووقف تحت مصباح السقف يوالى قراءة الأنباء . وبلغته أصوات وقع أقدام فوق السقف ، ونزل شخص على مهل حتى وصل منتصف السلم ، ثم تريث كأنه يشاور نفسه ، ثم نكص يجرى راجعا إلى الطابق الأول . وسمع أيضا — لا يدرى من أين — صرير باب يفتح ، وارتفع صوتان بصياح ضاع وضوح ألفاظه بفضل الصدى الرنان ، فلم يستطع أن يفرق هل هو صوت رجل أم



ووقف يورى تحت مصباح النور وبدأ يقرأ العناوين الضخمة ، وكانت الصحيفة « ملحقا » صدر فى ساعة متأخرة ..

صوت امراة ، ثم اغلق الباب بشــدة وهبطت الســلم بعزم ــ هذه المرة ــ خطى سريعة !

وكان يورى مســتغرقا فى تلاوة الصــحيفة ، وليس فى عزمه ان يرفع بصره ، ولكن النــازل وقف فجاة عنــد نهاية السلم ، فحمله ذلك على أن يرفع وجهه عن الصحيفة .

وكان الهابط صبيا فى سن الثانية عشرة ، على راســه قبعة وعلى جسده رداء كلاهما من جلد حيوان الرنة ، وكان يلبسه ووبره إلى الخارج ـ كما هى العادة فى سيبريا ـ وكان وجهه شديد السمرة وعيناه ضيقتين كأهل ولاية (قرغيز) ، وله سمة تنم عن انه من الطبقة الأرستقراطية : هذه اللمحة اللامعة الشاردة ، وهذه الرقة المتحفظة التى تنطق بالتعالى، وهى صفات يتميز بها احيانا من تجرى فى عروقه دماء موروثة من مزاوجة اجناس مختلفة ..

وبدا على الصبى انه حسب يورى شخصــا يعرفه ، فوقف ينظر إليه فى حيرة وقد تولاه الخجل ، كأنما تبين حقيقة شخصيته فلم يجــد فى نفســه الجراة على مخاطبته . واراد يورى ان يضع حدا لهذا الخطأ ، فصــوب إليه نظــرة باردة مثبطة ، جللته من راســه إلى القدم .. فاستدار الصبى وهو مرتبك حائر ، وقصد مدخل البيت حيث تريث ونظر من جديد خلفه ، قبل ان يخرج وهو يدفع الباب الزجاجى وراءه بشدة !

وانصرف يورى بعد لحظات من خروج الصبى ، وذهنه منشغل بالحوادث التى قراها . لم ينس الصــبى وحده بل نسى زميله الذى كان يعتزم زيارته .. وعاد إلى بيته لا يلوى

على شىء . ولكن الهاه عن شجونه فى الطريق حادث آخر ، من تلك الحوادث العارضــة المالوفة فى الحياة كل يوم ــ ولو انها كانت تتخذ فى تلك الايام اهمية مبالغا فيها ــ فبينما كان يورى يسير فى الظلام غير بعيد عن بيته ، عثرت قدمه بكومة من قطع الخشب ، وكان يقع فى الشارع معهد ما من معاهد الحكومة ، هو الذى يتسلم بلا ريب هذا الخشــب ، وكانت الدلائل تدل على ان كمية الخشب هى كل حطام منزل من منازل اطــراف المدينة ، وأن فناء المعهد لم يتسع للخشب كله ، فبقى بعضه على الرصيف ، يحرسه جنــدى يحمل بندقية ويذرع الفنــاء ذهابا وإيابا ، ثم ينظر احيانا خارج البوابة .

ولمعت فى ذهن يورى فكرة ، فنفذهــا بلا تردد : انتهز لحظة ادار فيها الحارس إليه ظهره ، وأثارت الرياح ســحبا من الثلج ، فتسلل فى الظلام مجانبا نور المصــباح ، وخلع من قاع الكومة عرقا من الخشب جذبه بكل قوته ، وحمله فى مشقة على ظهــره .. ثم ما لبث أن أحس أن حمله خفيف ــ « فكل إنسان يجد حمله خفيفا عليه) ــ ودلف يتستر بظل الجدران، حتى وصل بغنيمته سالمة إلى الدار !

وكان قدومه فى أوانه ، إذ كانت ذخيرتهم من الحطب قد نفدت ، فقطع العرق قطعا صغيرة جعل منها كومة ، ثم اشعل يورى الموقد وجلس امامه القرفصاء فى صمت .. على حين دفع الكسندر الكسندريفتش مقعده الكبير إلى جانب الموقد يلتمس عنده الدفء .

واخرج يورى الصحيفة من جيبه ومد بها يده إليه ، قائلا: « هل رايت هذا ؟ إنها اخبار هامة ، الق عليها نظرة » .

وظل يورى جالسا القرفصاء ، يقلب الحطب فى الموقد .. وطفق يتكلم كأنه يناجى نفسه :

ـ يا لها من جراحة ! تمسك مشرطا وتقطع كل خلية خبيثة عفنة .. بكل بساطة وبلا حماقة .. تمسك بصنم الظلم، وهو وحش مخيف قديم ، الف طوال القرون أن تنحنى له الجباه وتلمس يداه وتؤدى له مراسم التبجيل والتوقير .. تمسكه وتحكم عليه بالإعدام ! هذه الجراة وهذا المضى فى الامر إلى غايته هما من خصائص الطبع الروسى ، تجدهما فى مؤلفات « بوشكين » حين يمضى إلى غايته لا يتلفت ، مندفعا كالشهاب .. وفى مؤلفات تولستوى حيث ترى إيمانه الجرىء بالحقائق لا بالأوهام !

فقاطعه الكسندر الكسندرييفتش ، وقد حسب الكلام موجها إليه : « ذكرت بوشكين ؟ انتظر لحظة حتى افرغ من الصحيفة ، فإنى لا استطيع أن اقرأ وأن انصت فى آن واحد ! » .

واستمر يورى فى مناجاته : « وهاك دليلا على نبوغ من تولى هذا الأمر . افترض انك قلت لإنسان أن يمضى فيبنى عالما جديدا ، ويبدأ عهدا جديدا ، فإنه لا بد سوف يسألك قبل كل شىء ان تتاح له مساحة خالية يتحرك فيها . وسينتظر ان تلفظ القرون السابقة انفاسها الأخيرة حتى يتأتى له ان يبدا فى بناء العالم الجديد ، إنه يريد أن يسجل ـ كالتاجر فى دفتره ـ حساب ما له وما عليه ، على صفحة بيضاء ، بأرقام صحيحة. ولكن كل ذلك لا يبالى به احد هنا عندنا ، حيث يقال : « هذا هو صنع أيدينا ، خذه أو دعه ! » .. إن هذا الشىء الجديد ،

هذه الأعجوبة من اعاجيب التاريخ ، هذا الكشف الخارق ، قد انفجر وسط تيار الحياة اليومية دون أن يبالى بسيرها أو يبدأ من البداية ، وإنما هو يبدأ من الوسط لا يؤخره تمهل أو تريث. ينفجر فى اليوم الذى يصادفه، أيا كان ذلك اليوم ، وفى الساعة التى تصادفه ، حتى ولو كانت ساعة زحمة انصراف الناس عن عملهم ! .. هذا هو النبوغ بحق ، وأن العظمة بحق هى التى تغض النظر عن تقدير مناسبة الزمان والمكان !

— ٩ —

● واقبل الشتاء ، نفس الشتاء المألوف المتوقع . لم يكن شتاء مخيفا مثل شتاء السنتين اللاحقتين ، ولكنه كان مع ذلك من نوعهما ايام سود، من جوع وبرد ، تنفق فى مراقبة تحطيم كل ما كان مألوفا من قبل ، وتغيير كل اسس الحياة .. وفى بذل جهود غير إنسانية للقبض على ناصية الحياة وهى تفلت من بين اصابعك ! ثلاثة فصول شتاء ، متتابعة ، رهيبة ! .. وليست جميع الأحداث التى يبدو اليوم انها حدثت فى شتاء (١٩١٧ ـ ١٩١٨) قد حدثت بالفعل فى ذلك الشتاء ، فإن بعضها قد يكون حدث فى شتاء تال .. ولكن تلك الفصول الثلاثة المتتابعة قد اختلطت الآن فى الذاكرة ، بعضها ببعض ، بحيث صار من العسير التفريق بينها !

ولم تكن هناك بعد اية لحمة بين النظام القديم والعهد الجديد ، إذ لم يكن الصراع بينهما قد بلغ اقصى حدته ـ شأن الصراع المتلاحم بين الخناجر المشرعة ـ كما حدث حينا قامت الحرب الاهلية بعد عام .. ذلك أن الروابط بينهما لم تكن

كافية .. وكأننا كنا بإزاء لعبة الصورة الواحدة التى قطعت
إلى اجزاء صغيرة وخلط بينها ، حتى اصبح أصل الصورة
لغزا مبهما ، وبات المطلوب حل هذا اللغز بإعادة تركيبها كما
كانت ! .. فلقد كان الظنون ان النظام القديم نصف للصورة ،
والعهد الجديد نصفها الآخر ، ومع ذلك فعندما وضع احدهما
بجوار الآخر لم يتطابقا ، ولم تنطق الصورة بمعنى !

.. وفى كل مكان باتت تجرى انتخابات جديدة ، للمشرفين
على نظام الإسكان ، والتجارة ، والصناعة ، وشئون البلديات
.. وصار يختار لكل منصب قوميسار .. رجال يلبسون
سترة من جلد اسود ، لهم سلطة لا حد لها ، وإرادة من حديد
سلاحهم الإرهاب والمسدس ! .. لا يحلقون لحاهم إلا قليلا ،
ولا يكادون ينامون ! .. وكانوا يعرفون طبقة البورجوازيين
المتخفين ، وطبقة متوسطى الحال من حملة الأسهم الحكومية
الرخيصة ، فعاملوهم دون أدنى رحمة — وقد ارتسمت على
شفاههم ابتسامة إبليس — كما يعامل احقر اللصوص حين
يضبطون متلبسين !

أولئك كانوا رجال الحكومة الذين أعادوا تنظيم كل شىء
طبقا للخطة الجديدة ، فـ « بلشفوا » الشركة بعد الشركة ،
والمؤسسة فى إثر المؤسسة .. واصبح مستشفى الصليب
الربانى يسمى « المستشفى المستصلح الثانى » . وتغيرت
فيه معالم كثيرة : فصلت طائفة من موظفيه .. واستقالت
طائفة اخرى ، حين وجدت المرتبات غير مجزية .. !

وكان بالمستشفى اطباء لهم عيادات انيقة يؤمها
الموسرون ، اجورهم مرتفعة ولسانهم ذرب ، يحيطهم مجتمعهم

بالإعزاز والتدليل ، تركوا المستشفى سعيا وراء منفعتهم وإن
زعموا انهم تركوه احتجاجا على الأوضاع التى لم يقبلوها !
.. ثم اخذوا ينظرون شزرا إلى من بقى بالمستشفى من
الأطباء . وكان « يورى » من طائفة الباقين !

وفى الأمسيات ، كانت تجرى بين يورى وتونيا امثال
هذا الحديث :

— لا تنسى يوم الأربعاء ، فى مبنى اتحاد الأطباء . سوف
يعدون لنا فى القبو كيسين من البطاطس المحفوظة بالثلاجات،
وسأخبرك عن الوقت الذى يرخص لى فيه بالانصراف . ينبغى
ان نذهب معا ونأخذ الزحافة لحمل الكيسين .

— لا تقلق يا عزيزى ، لا يزال امامنا متسع من الوقت .
لماذا لا تأوى الآن لفراشك ؟ إن الوقت متأخر ، واود لك ان
تستريح . إنك لا تستطيع ان تفعل كل شىء بنفسك !

— لقد انتشرت الأوبئة كما تعلمين .. والإعياء يضعف
من القدرة على مقاومة الأمراض . إننى اراك أنت ووالدك فى
صحة سيئة جدا . ينبغى ان نفعل شيئا . ليتنى ادرى ما الذى
ينبغى ان نفعله ! إننا لا نعنى بأنفسنا العناية الكافية .
اتسمعين يا تونيا ؟ هل غلبك النوم ؟

— كلا .

— أنا لا يقلقنى أمر نفسى ، فإن لى سبع ارواح ..
ولكن إذا فرض واصابنى الوباء ، فحذار ان تفقدى رباطة
جأشك . هل تعديننى بذلك ؟ .. وينبغى عندئذ ان
لا تستبقينى فى الدار ، بل يجب ارسالى إلى المستشفى فورا .

ـ دعك من هذا الكلام يا عزيزى ، ادعو الله لك بالصحة والعافية .. وعلى كل ، فإننا سنجتاز المآزق حين تصادفنا !

ـ تفكرى ! لم يبق اناس شرفاء ، أو اصدقاء ! .. بل لم يبق احد يعرف حاضره او مصيره ! .. فإذا حدث حادث ، فحذار ان تثق بأحد سوى « بيتشوزكين » ـ إذا كان ما زال يومئذ على قيد الحياة ! ـ هل غلبك النوم ؟ إن المرتبات الجديدة لم تعجب هؤلاء السادة فانصرفوا ، والآن يزعمون ان لهم مبادىء ، وعندهم غيرة على حقوقهم كمواطنين ! إنهم إذا قابلوا احدنا فى الطريق لا يتكرمون بمصافحته ، بل غاية تحيتهم له إشارة من حاجب ! .. وكأنى بهم يسألوننى ساخرين : « هكذا رضيت أن يستخدمك هؤلاء الناس ؟ » .. فأجيبهم : « نعم ، إذا كان هذا الأمر لا يسوؤكم . إننى فخور بالحرمان ، وإنى احترم هؤلاء الذين انالونى شرف تحمل هذا الحرمان الذى فرضوه علينا » .

— ١٠ —

● وكان طعام اغلب الناس مقصورا على حبوب « الدخن » المسلوقة وحساء رءوس سمك الرنجة ـ ثم السمك نفسه ، بلا رءوس ، كطبق ثان ـ وكانوا يأكلون احيانا ثريدا من حنطة او شعير مسلوق. وكان مفروغا منه ان الناس لن يجدوا طعاما لهم غير هذا لزمن طويل !

وتدربت تونيا ـ على يد معلمة صديقة لها ـ على كيفية عجن الخبز فى الموقد الهولندى . وكان القصد من ذلك ان تبيع

جانبا من الخبز وتشترى بثمنه حطبا للموقد الكبير تستخدمه ـ كما فى الأيام الخوالى ـ بدلا من جهاز الطبخ الحديدى الذى لم ينقطع عن نفث الدخان ، والذى لا تشتد فيه النار .

وقد اجادت تونيا صنع الخبز ، ولكنها لم تحسن البيع والشراء .. فكان لا مفر من ان تعود للجهاز الحديدى اللعين .. واصبح حالهم حقا سيئا للغاية !

وذات صباح ارتدت تونيا ، بعد أن خرج يورى إلى المستشفى ، معطفها الشتوى البالى ، الذى نسل قماشه ورق ، حتى باتت ترتجف فيه من البرد ولو كان الجو دافئا ! .. وخرجت « تصطاد » حطبا ، بعد إذ لم يبق فى البيت إلا قطعتان منه !

.. وسارت على غير هدى فى دروب الحى ، حيث قد يصادف المرء فلاحا من إحدى القرى الواقعة خارج موسكو ، جاء ليبيع البطاطس او الخضراوات . فان الفلاح إذا سار بأحماله فى الشوارع الرئيسية يتعرض لأن يقبض عليه !

وسرعان ما عثرت تونيا على بغيتها .. صادفت شابا ضخم الجسم يرتدى معطف الفلاحين ، ولم يلبث ان عاد معها يجر وراءه الزحافة كأنها العوبة فى يده ، ثم تبعها بحذر إلى الفناء .

وفى الزحافة ـ تحت غطاء من الخيش ـ كان فتات حطب من شجر هش ، وكانت تونيا تعرف قيمة هذا الحطب الخسيس . فقد وجدته رطبا حديث العهد بالقطع ، لا يصلح للوقود .. ولكن لم يكن لها خيار .. كان من العبث ان تجادل او تساوم !

وحمل الشاب من الحطب ملء ذراعيه ، خمس أو ست مرات ، إلى حجرة الجلوس .. وفى النهاية اخذ مقابل ذلك صوان تونيا الصغيرة ، الذى كانت ابوابه مغطاة بمرآة ، فرفعه وربطه فوق زحافته ثم غطاه ، ليحمله هدية إلى زوجته ! .. وقبل ان ينصرف ، ذكر تلميحا أن لديه كمية من البطاطس ، وسأل عن ثمن البيانو الذى رآه فى المنزل !

وحين عاد يورى إلى الدار ، لم يقل شيئا عن صفقة تونيا . كان من الأحجى ان يهشم الصوان نفسه ويستخدم خشبه .. ولكن كان من العسير على النفس ان يحطموا الصوان بأيديهم !

وقالت له تونيا : « على المنضدة رسالة لك وصلت اخيرا . هل رايتها ؟ » .

ــ اهى الرسالة التى بعث بها المستشفى ؟ نعم ، بلغنى خبرها . إنهم يطلبوننى لعيادة مريض ، وسأذهب بلا ريب ، غير أنى اريد ان اصيب شيئا من الراحة قبل أن اذهب . فالمريض يسكن بعيدا فى جهة ما بالقرب من قوس النصر ، ولدى العنوان .

ــ هل عرفت الأجر الذى يعرضونه عليك ؟ خير لك ان تقراها بعناية . الأجر هو « زجاجة كونياك المانى ، او زوج من الجوارب » ! .. اى جنس من الناس هم ؟ هل جال ذلك بخاطرك ؟ إنهم لا يدركون فيما يبدو اى حياة نحياها هذه الأيام . يظنوننا « اغنياء حرب » ومحدثى نعمة !

ــ لا شك أن الأجر مأخوذ من « مورد » .

.. موردون ، وملتزمون ، ووكلاء ! .. اسماء صارت تطلق على مؤسسات صغيرة اهلية تعاقدت مع الحكومة لمدها بمؤن مختلفة .. فقد الغت الدولة نظام التجارة الفردية ، وإن سمحت لهذه المؤسسات ببعض التسهيلات فى ايام الأزمات الاقتصادية !

ولم يكن على راس هذه المؤسسات رجال كانوا من قبل ارباب نعمة ، او تولوا رياسة مؤسسات ثم فصلوا من عملهم ــ فمثل هؤلاء الناس لا يستغيثون من الضربة التى يترنحون من وقعها ــ بل كان على رأسها رجال أعمال من فئة جديدة .. رجال « بلا جذور » .. بل حثالة طفت على السطح بفضل الحرب والثورة !

وشرب يورى قدرا من الماء المغلى المحلى بالسكر الصناعى ــ السكارين ــ وعليه قليل من اللبن .. ثم مضى ليعود مريضه .

وكانت الثلوج الكثيفة تغطى الشوارع من الرصيف إلى الرصيف ، وترتفع فى بعض الأماكن إلى مستوى نوافذ الطابق الأول ! .. وهنا وهناك ، تطوف بها أشباح صامتة ، بين الحياة والموت ، تحمل نزرا يسيرا من الطعام ، او تجره على زحافة . ولم تكن هناك وسائل نقل متوفرة .

وكانت بعض الحوانيت لا تزال محتفظة بلافتاتها القديمة ــ وإن لم تبق صلة بين ما تعلن عنه هذه اللافتات وبين ما تتجر

فيه الجمعيات التعاونية التى احتلت تلك الحوانيت . فلقد كانت هذه الحوانيت جميعا فارغة ، خاوية على عروشها ، بل ومغلقة .. ونوافذها موصدة بالأعمدة الحديدية او العوارض الخشبية !

ولم يكن السبب فى فراغ هذه الحوانيت وغلقها إنه لم تكن هناك بضائع ، وإنما كان السبب ان خطط تنظيم كل جوانب الحياة — بما فى ذلك التجارة — بقيت حتى ذلك اليوم حبرا على الورق ، ولم تتناول تفصيلات « ثانوية » كتموين هذه الحوانيت الموصدة الأبواب !

— ١١ —

● ووجد يورى البيت فى نهاية شارع (برست) ، بالرقب من بوابة (تفير) . وكان بيتا مبنيا بالقرميد حول فناء ، كثكنات الجنود . وكان يتسلق جدرانه ، ويدور معها ، سلم خشبى غير مكشوف .

وكان نزلاء البيت يعقدون اجتماعهم العام الذى كان قد تحدد موعده قبل زمن طويل ، وحضرته امراة مندوبة من مجلس السوفييت الخاص بالضاحية . وجاءت لجنة عسكرية لتراجع رخص حمل السلاح وتنقب عن السلاح غير المرخص به ، فأشارت على النزلاء بأن يعودوا إلى مساكنهم انتظارا لدورهم . ولكن رئيس اللجنة طلب إلى اعضاء مجلس السوفييت أن لا ينصرفوا ، إذ أن التنقيب عن السلاح لن يستغرق وقتا طويلا ، ويمكنهم بعد ذلك استئناف الاجتماع .

وعندما وصل يورى ، كانت اللجنة العسكرية تكاد تفرغ

من التنقيب ، الا إنها لم تكن قد مرت بعد بالطابق الذى يقصده .واوقفه على مصطبة الطابق جندى يحمل بندقية ، ولكن رئيس اللجنة سمع جدالهما فأمر بان يؤجل التنقيب حتى ينجز الطبيب عيادة مريضه .

وفتح الباب رب الأسرة : فتى مؤدب ، له وجه شاحب زيتونى ، وعيون سود حزينة . إنه مستثار اللب بسبب اشياء كثيرة : مرض زوجته ، وهذا التنقيب الموجه إليه ، ومجىء طبيب ينبغى له الاحتفاء به لأنه يكن احتراما عميقا للطب والأطباء .

ورغب ان يقدم للطبيب — توفيرا للوقت والعناء — ملخصا قصيرا عن الحالة ، ولكن عجلته جعلت كلامه غير مفهوم وغير مرتبط بعضه ببعض !

وراى يورى مسكنا يجمع بين ملامح البيوت الفخمة والشقق الأرضية الرخيصة . اغلب أثاثه تم شراؤه على عجل ، كتوظيف امين للنقود خشية ان يبتلعها التضخم المالى . وكان الأثاث مكونا من اجزاء متفرقة من اطقم كانت من قبل متكاملة ، ومن اشياء فرادى لا علاقة بين احدها والآخر ، وكان لها فى الأصل توأم مماثل .

وكان الفتى مؤمنا بأن علة زوجته مرجعها صدمة عصبية . فراح يشرح ليورى — بكلام كان يسترسل فيه مرارا إلى مواضيع أخرى دخيلة — كيف انهما اشتريا ساعة اثرية تعلن الوقت بعزف لحن راقص . وكانت الساعة معطلة تستعصى على الإصلاح ، فاشترياها بثمن بخس ، لا لشىء إلا لأنها مثال

رائع للفن فى صناعة الساعات ، (وقاد الفتى يورى إلى حجرة مجاورة ليرى هذه الساعة) . وكانت هذه الساعة لم تملأ يد الزنبرك فيها منذ عهد طويل، وإذا بها تدق فجأة وتعزف هذا اللحن الراقص ، ثم تخرس ! . . فأصاب الزوجة الرعب وآمنت انه نذير بأن ساعتها الاخيرة قد دقت . . وها هى الآن راقدة تهذى ، لا تعرف زوجها ، ولا تأكل ولا تشرب !

وسأله يورى بلهجة تنم عن الشك : « اتظن انها صدمة عصبية ؟ هل استطيع ان اراها ؟ » .

ودخلا حجرة اخرى يتدلى من سقفها مصباح من القيشانى ، وفيها فراش عريض مزدوج ، على جانبيه منضدة من خشب (الماهوجنى) . وكانت ترقد على حافة الفراش امراة ضئيلة الجسم لها عيون سود واسعة ، يغطيها اللحاف حتى ذقنها ، وحين راتهما اخرجت ذراعا من تحت الغطاء واشارت لهما بأن يغربا عن وجهها . وانسدل كم قميصها فانكشف إبطها ، ثم بدات — كانها منفردة وحدها فى الحجرة — تنشد بصوت خفيض شيئا يشبه اغنية حزينة ، حركت اشجانها فبكت منهنهة كالطفل ، تبتهل ان يعيدوها إلى البيت ! . . ولما اقترب منها يورى أدارت له ظهرها ورفضت أن يلمسها . . فقال يورى : « ينبغى لى ان افحصها ، ولو أن الأمر بين واضح . إنها مريضة بالتيفوس، وعلتها شديدة ، ياللمسكينة! لا جرم انها تحس بأنها فى ضنك شديد ، ونصيحتى لك ان تودعها أحد المستشفيات . إننى اعلم انك تعنى بها فى البيت وتوفر لها كل ما تحتاج إليه ، ولكن من المهم جدا أن تخضع فى الأسابيع الأولى لمراقبة طبية لا تنقطع . هل فى وسعك ان

تظفر بإحدى وسائل النقل ، بعربة خيل أو حتى بعربة يد ؟ وينبغى بطبيعة الحال أن يلف جسدها بدثار ، وساعطيك ترخيصا لها بدخول المستشفى .

— ساحاول . ولكن انتظر لحظة . هل تظن ان هذا هو مرضها حقا ؟ إنه شيء فظيع !

— نعم ، يؤسفنى أن هذه هى حقيقة مرضها .

— انا اعلم اننى سافقدها إذا ذهبت ، اليس فى إمكانك ان تباشر علاجها هنا وتاتى كلما استطعت ؟ لا شيء يسعدنى اكثر من ان ادفع لك ما تريد .

— إننى آسف . لقد قلت لك إن الذى تحتاج إليه هو مراقبة طبية دائمة ، فاتبع قولى فإن نصيحتى لك هى لصالحك . والآن ابذل غاية جهدك للعثور على عربة ، وساكتب لك الترخيص . وافضل ان اكتبه فى حجرة الاجتماع إذ ينبغى ان يمهر بخاتم إدارة المنزل ، وهناك إجراءات اخرى لا بد من إتمامها .

— ١٢ —

● وبدا السكان ، وهم يتدثرون بالشيلان ومعاطف الفرو ، يعودون واحدا بعد واحد إلى القبو المحروم من التدفئة ، والذى كان يستخدم من قبل كمخزن لحفظ البيض ، أما الآن فقد اتخذته لجنة المنزل مكانا لانعقاد مجلس الإدارة ! وكان فى احد جوانبه مكتب وعدد من الكراسى لا يكفى للجميع ، فضمت إليها اقفاص البيض الفارغة إذ قلبت راسا على عقب ورتبت جنبا إلى جنب . . وكانت بقية الأقفاص قد كومت فى جانب الحجرة

حتى بلغت السقف ، وفى ركن آخر اكوام من نشارة الخشـب تجمعت فى كتل صغيرة حين اختلطت بالصفار الذى تساقط من البيض المكسـور . وكانت تجوس خـلال الأكـوام فيران تخشخش ، ثم تنفلت احيانا فتجرى إلى وسـط الحجرة التى غطيت ارضها بالبلاط ثم تفر راجعة . وكلما حدث ذلك صرخت من بين سكان البيت امراة بدينة وقفزت فوق صندوق ، وهى ترفع اذيال ثوبها بتأنق وتدقدق على الخشب بكعب حذائهـا الفاخر وتصيح بصوت مخمور اجش تصطنعه افتعالا :

— يا اوليا . يا اوليا ! إن الفيران قد ملأت البيت كله ! ابتعدى عنى ايتها الوحوش الضارية القذرة . اى. اى. اى. انظروا إليها . إنها تفهم ، يا للشـناعة ، انظـروا كيف تبرز اسنانها الخبيثة استعدادا للطعن والنهش . اى. اى . اى . إنها تحاول الصعود والاندساس تحت ثيابى ، إننى مرتعبة . اديروا ابصاركم ايها السادة ، عفوا ، إننى آسفة ، لقد نسيت اننا رفقاء الآن .. لا سيد ولا مسود ..

وكان معطفهـا من فراء (الاستراخان) ينشق عن ذقن مزدوج متهدل لحمه فى طيات ثلاث راحت ترتعش وهى توقوق كالبطة ، كمـا انشق عن ثدى ممتلىء وبطن ضـخم رافلين فى الحرير . كانت المراة من قبل ملكة جمال فى حلقة خلابة تتألف من صغار التجار وكتبة الحوانيت، اما الآن فان عيونها الضيقة — كعيون الخنازير — لا تزيد عن شق بين اجفانها المتورمة ! فلقد حاولت غريمة لها ان تقذفها مرة بماء النـار ، ولكنهـا اخطأتها ، فلم تقع على وجهها إلا نقطة او نقطتان حفرت لهـا شقوقا هينة ، حتى ليصح القول إنها اضفت عليهـا شيئا من

الجمال كانها طابع الحسن ، بعضها على خدها وبعضها على جانب من فمها .

وقالت لها المراة مندوبة مجلس الضـاحية ، وكان قد تم انتخابها رئيسة لمجلس الإدارة واتخذت مجلسها وراء المكتب:

— كفى عن الصياح يا « كرابوجينا » !

وكانت هذه المراة المندوبة تعرف المنزل من قبل وتعـرف الكثيرين من سكانه ، طوال حياتها ، وكان قد جرى لهـا قبل الاجتماع حديث غير رسمى مع العمة « فاتيما » خادمة المنزل التى سبق لها ان عاشت مع زوجها واولادها فى ركن من هذا القبو القذر ثم اصبحت الآن تعيش مع بنت واحدة فنقل مسكنها إلى الطابق الأول فى حجرتين يدخلهما الضوء .

سالتها المندوبة : « كيف الأحوال » .. فبدات « فاتيما » تشكو من انهـا لا تستطيع أن تنهض بمفردها بعبء منزل كبير كهذا المنزل وسكانه العديدين ، وانها لا تجد عونـا من احد ، فالمفروض أن السكان تتناوب كل أسرة منهم فى تنظيف السـلم ودرجات الباب ، ولكن احدا منهم لا يقوم بواجبه .

— صبرا يا فاتيما ، لا تقلقى، سنريهم ! اى لجنة هذه ؟ إنهم لا خير فيهم . إن بعض المجرمين يجدون لهم ماوى ويظل آخرون — مشـكوك فى اخلاقهم — غير مسجلين . سنتخلص منهم جميعا وسننتخب لجنة اخرى وساجعلك مديرة للمنزل ، ولكن بشرط ان تكتمى السر !

فالتمست منها العمة فاتيما ان تعفيهـا ، ولكن المندوبة رفضت ان تصغى إليها .. وجالت بنظراتها فى ارجاء الحجرة ، ثم قررت ان فى الحاضرين كفاية لعقد الاجتماع ، وطلبت منهم

الصمت . وافتتحت الجلسة بخطبة قصيرة جعلتها بمثابة مقدمة ، ثم نعت على لجنة المنزل تقاعسها وإهمالها ، وطلبت إلى من شاء منهم ان يرشح نفسه عضوا فى اللجنة الجديدة ، ثم انتقلت إلى مواضيع اخرى . وفى ختام كلمتها قالت وكأنها لم تعد كلامها من قبل :

ــ هذا هو الأمر يا رفاق . ينبغى الاعتراف بصراحة ان هذا المنزل كبير ، إنه يصلح فندقا . انظروا إلى كل هؤلاء المندوبين الذين يأتون إلى المدينة للاشتراك فى المؤتمرات ، إننا لا ندرى اين نؤويهم . لذلك تقرر الاستيلاء على هذا المنزل ليكون فندقا لأعضاء مجالس الضواحى وللزوار القادمين من الأقاليم . وتقرر ايضا ان يطلق عليه اسم (فندق تيفرزين) ، تخليدا لذكرى الرفيق تيفرزين الذى كان يسكن فى هذا المنزل قبل نفيه ، كما تعلمون كلكم . هل هناك اعتراض ؟ والآن انتقل إلى الكلام عن موعد الاستيلاء . لا داعى للعجلة . امامكم عام كامل . سنوفر للعمال منكم مسكنا ، وعلى الآخرين ان يبحثوا بأنفسهم لأنفسهم عن مكان يأويهم ، وامامهم مهلة عام كامل .

.. وتعالى الصياح من كل جانب : « كلنا عمال .. كل واحد منا .. كلنا عمال ! » .. وارتفع صوت بالبكاء : « هذا تعصب شديد لقوم دون قوم » .

ــ وهذا هو طبعنا من قديم : الدس ! كل الأقوام متساوية الآن . إننى اعرف من تقصدين !

ــ من فضلكم ، لاتتكلموا جميعا فى آن واحد . على من اجيب اولا ؟ أيها الرفيق « فالدركين » : ما دخل القوميات

هنا ؟ انظر إلى كرابوجينا . إنك لا تزعم ان القومية كان لها دخل فى تقرير وضعها . ولسوف نخرجها ولا ريب من المنزل » .

فصاحت كرابوجينا : « انت فاعلة ؟ . ارينى قدرتك ! يا عجوز ياحيزبون .. » .. وانهالت عليها بشتائم اخرى ، ثم التفتت إلى الحاضرين تستنجد بهم وتناديهم باسماء تدليل مضحكة وافتها فى حدة العراك !

فقالت العمة « فاتيما » غاضبة :

ــ يالك من شيطان ! الا تخجلين ؟

وقالت المندوبة : « لا تتدخلى يا فاتيما . إننى اعرف كيف ادبر امر نفسى ، كفى ياكرابوجينا . إننى اعرف كل شىء عنك . الجمى لسانك وإلا سلمتك للسلطات على الفور ، قبل أن يقبضوا عليك بتهمة صنع الفودكا سرا وجعل مسكنك مغارة للصوص ! » .

وكانت الضجة قد بلغت ذورتها حين دخل يورى إلى الحجرة وسأل اول إنسان رضى ان ينصت إليه او يدله على احد اعضاء لجنة المنزل ، فإذا بالرجل يضع كفه حول فمه ، كبوق النفير ، ويصيح بصوت يعلو على الضجة :

ــ « جا .. ليو .. لينا » . تعالى هنا .

ولم يستطع يورى ان يصدق اذنيه ، فقد اقبلت على نداء هذا الاسم ــ وهو اسم تدليل للنساء ــ امراة نحيفة قد انحنى ظهرها قليلا ، وهى العمة فاتيما ! فقال محدثا نفسه حين راى وجهها المتغضن : ليست هذه جاليولينا ، بل ام جاليولين ! ولم يذكر لها اسمه من فوره ، بل اكتفى بأن قال لها :

ـ فى هذا المنزل حالة تيفوس (وذكر لها اسم المريضة) . وهناك احتياطيات كثيرة ينبغى اتخاذها لمنع انتشار الوباء .. وثمة مسألة اخرى : ينبغى نقل المريضة إلى المستشفى ، وساحرر ترخيصا بدخولها ، ولكن ينبغى للجنة المنزل ان تضع عليه خاتمها . اين استطيع ان افعل هذا ؟

وحسبته يعنى بقوله هذا : « كيف تنتقل المريضة إلى المستشفى » ،فأجابته : « ستأتى عربة من مجلس الضاحية إلى الرفيقة « ديمينا » وهى المندوبة رئيسة الاجتماع . إنها طيبة القلب وساخبرها بالأمر ، وانا واثقة انها ستترك العربة للمريضة . لا تقلق ايها المواطن الطبيب ، سنعمل على نقلها للمستشفى بلا ريب .

ـ هذا بديع ، الواقع انى اردت ان أسالك اين استطيع ان احرر الترخيص ، ولكن إذا كانت لديكم عربة ايضا فهذا افضل .. هل لى ان اسالك : انت والدة الملازم جاليولين ؟ لقد كنا معا فى كتيبة واحدة فى جبهة القتال .

فحملقت فيه بشدة وقد تولتها الدهشة وشحب وجهها ، ثم امسكت يد يورى وقالت : « تعال اخرج معى . سنتكلم فى الفناء ! » .

وما إن خرجا من الباب حتى أسرعت تقول :

ـ تكلم همسا بحق السماء . لا تخرب بيتى ! إن «يوسوبكا»(١) قد اختار لنفسه طريقا خاطئا . احكم بنفسك . اى إنسان هو ؟ إنه كان صبى صانع ، اى عاملا ، ينبغى له ان

(١) « يوسوبكا » كان اسم ابنها « جاليولين » فى طفولته .

يفهم ويدرك ان الناس البسطاء هم أحسن حالا اليوم . إن الأعمى يستطيع ان يرى ذلك ولا احد ينكره . انا لا اعرف رايك . قد لا تجد فى فعلته ضيرا من وجهة نظرك، ولكن الفعلة من جانبه إثم لا شك فيه . غفر الله له ! أباه كان جنديا بسيطا فى الجيش حين قتل . يقولون إن وجهه شوه وانفصلت ذراعاه وساقاه عن جسده وتمزقت إربا إربا !

وارتعش صوتها وتريثت حتى تهدأ قليلا ، ثم مضت تقول :

ـ تعال ، ساتى لك بالعربة . إننى أعرف من انت ، إنه كان هنا فى اجازة ليومين واخبرنى انك تعرف «لارا جيشار» . إنها كانت فتاة طيبة ، وإنى لأذكرها . كانت تأتى لزيارتنا . ترى كيف اصبحت الآن ؟ لست أعلم . فلا يدرى أحد أحوال اناس مثلكم . إنه من الطبيعى أن يتساند افراد الأسر الكريمة ، ولكن « يوسوبكا » ليس من هذا القبيل . إنه يرتكب بعمله اثما . تعال لنسأل عن العربة . إننى واثقة ان الرفيقة « ديمينا » ستسمح لكم بها . اتعرف من هى الرفيقة ديمينا ؟ إنها اولجا ديمينا ، كانت تشتغل خياطة ، وقد صنعت لأم لارا بعض ثيابها . إنها من ابناء حينا ، من ابناء هذا المنزل بالذات .. تعال .

— ١٣ —

● كان الظلام يسدل استاره ويلفهم من كل جانب ، لا يشقه إلا ضوء على شكل دائرة ، يقفز بين شآبيب الثلج المنهمر ، منبعثا من مصباح بطارية تحمله ديمينا ، وهى تسير

إلى الأمام تسبقهم بخطوات اربع او خمس ، فكان فى هذا الضوء ربكة لهم لا هداية .. إن الظلام ضارب اطنابه من حولهم ، وكانوا قد تركوا المنزل الذى عرف فيه اناس كثيرون « لارا » ، والذى كانت تتردد عليه وهى فتاة ، كما نشأ فيه — فيما يقال — زوجها باشا انتيبوف .

وقالت له ديمينا بلهجة معابثة توحى بانها تحميه تحت جناحها : « هل تستطيع ان تهتدى إلى الطريق بدون مصباح ايها الرفيق الطبيب ؟ إن لم تستطع اعرتك مصباحى . إننى اقول لك الحق ، إننى كنت مولعة بهذه الفتاة « لارا » فى صبانا . كان لأسرتها مشغل لتفصيل الملابس وكنت اشتغل فيه كصبية خياطة . ولقد رايتها هذا العام . قطعت رحلتها وتخلفت فى موسكو ، فقلت لها : اين تذهبين ايتها البلهاء . ابقى هنا فنعيش معا ، وسنجد لك عملا . ولكن ضاع قولى سدى ولم تستطع البقاء . هذا هو شانها ، إنها تزوجت « باشا » بوحى من راسها لا قلبها ! .. ومنذ ذلك اليوم عاشت تتخبط ، ولا تلوى على شىء !

— وما حكمك عليها ؟

— احذروا . إن الأرض زلقة ، لا ادرى كم مرة قلت لهم ان لا يقذفوا الماء القذر من النوافذ . كانك تتحدث إلى جدار اصم ! تسالنى ما حكمى عليها ؟ ماذا تعنى .. اى حكم ؟ ليس لدى وقت لأن احكم . انظر . إننى اسكن هنا . هناك شىء واحد لم اقله لها : إن اخاها ، الذى يعمل فى الجيش على ما اظن[١] ، قد اعدموه رميا بالرصاص . اما امها ، التى كانت

(١) هو الذى بدد عهدته يوما فاقترضت له المبلغ من صاحب الضيعة .

معلمتى فى مشغل الملابس، فاننى ساعنى بها . ها قد وصلت، فلأدخل . وداعا .

.. وهكذا افترقا . وكان نور مصباح بطاريتها الضئيل يتواثب على مدخل البيت الضيق المرصوف بالحجر ، ثم يعلو فيكشف الجدران الملطخة والسلالم القذرة . وسار يورى فى جوف الظلام ، إلى يمينه شارع حديقة النصر وإلى يساره شارع حديقة العربات — (وهما اسمان جديدان) — يمتدان إلى نهاية البصر فى غلالة من الثلوج ، بعد إذ لم يبق لهما منظر الشوارع ، وإنما اصبحا بمثابة « شقوق » وسط غابة من المبانى ، وكانها دروب فى غابات سيبريا ..

ووجد البيت حين عاد دافئا يعمه الضوء ، وسألته تونيا : « لماذا تأخرت ؟ قد حدث شىء اثناء غيابك » . ثم استطردت قبل ان يستطيع الإجابة عليها : « نعم ، شىء لم يكن فى الحسبان . فبالأمس كسر الوالد المنبه — وقد نسيت ان اخبرك — فاغتم لذلك غما شديدا . فالمنبه هو ساعتنا الوحيدة التى لم تتعطل . وقد حاول إصلاحه فاخذ يعالجه المرة بعد المرة ، ولكن بلا جدوى . وصاحب محل تصليح الساعات — ودكانه قريب منا — يطلب اجرا غير معقول : ثلاثة ارطال من الخبز ! .. ولم ادر ماذا افعل . واسقط فى يد الوالد . ولكن حدث منذ قليل ان رن جرس فجاة رنينا يصم الأذان ، فافزعنا واذهلنا . كان رنين جرس المنبه ! هل تتصور هذا ؟ لقد عاد المنبه للدوران من تلقاء ذاته ! » .

فضحك يورى وقال : « كما دقت ساعة المريضة بالتيفوس ! » .

وروى لها قصة المريضة ودقات ساعتها ..

- ١٤ -

● ولكن يورى لم يصب بدوره بالتيفوس إلا بعد زمن . وكانت الأسرة حينئذ قد بلغت آخر طاقتها فى تحمل اعباء الحياة ، فلم يبق عندهم طعام ، وقرصهم الجوع ، وذهب يورى ليقابل عضو الحزب الذى سبق له أن انقذه من الموت حين هجم عليه اللصوص . فساعده الرجل قدر جهده ، ولكن الحرب الأهلية كانت قد بدأت ، فصار لا يمكث فى موسكو إلا نادرا .. فضلا عن انه كان يرى ان الحرمان الذى يعانيه الشعب فى تلك الأيام أمر طبيعى .. وهكذا مضى عضو الحزب يخفى انه هو ايضا يعانى آلام الجوع ! .. وإذ ذاك لجا يورى إلى اسرة شارع (برست) — مريضة التيفوس وزوجها المورد — ولكن الزوج الشاب كان قد اختفى ، فلم يعرف احد — ولا زوجته ! — خبره .. وحين ذهب يورى لمقابلة « جاليولينا » لم يجدها فى مسكنها ، ووجد اغلب السكان وجوها جديدة عليه ! وكانت « ديمينا » قد رحلت إلى جبهة القتال .

ووصله ذات يوم إشعار بانه قد خصص له حمل من الحطب بالسعر الرسمى ، وكان عليه أن يتسلمه من محطة (فندافا) ، فعاد إلى داره يخترق شارع (ميشانسكايا) المترامى الأطراف ، وعينه على سائق عربة النقل التى تحمل الكنز الذى هبط عليه من السماء ! .. وخيل إليه ان الشوارع قد تغيرت ، ووجد نفسه يترنح يمينا ويسارا ، وقدماه لاتقويان

على حمله ! فقال لنفسه : « إنها هى ! ساصاب انا ايضا بالتيفوس . » .. وسقط على الأرض ، فالتقطه السائق وارقده فوق الحطب ..

ولم يعرف يورى قط كيف عاد إلى داره !

- ١٥ -

● وتتابعت عليه نوبات من الهذيان طيلة اسبوعين .. ورأى فى الحلم تونيا تضع على مكتبه شارعين : شارع حديقة العربات عن يساره ، وشارع حديقة النصر عن يمينه ، ثم اضاءت مصباح المكتب فعم الشارعين ضوء برتقالى دافىء ، وعندئذ استطاع ان يكتب ..

كتب ما كان ينبغى له أن يكتبه منذ عهد طويل ، فحالت دون ذلك الحوائل ، والآن اتيحت له الكتابة فاقبل عليها بحماس ، وعبر حق التعبير عما يريد قوله .. ولكن صبيا كان يقاطعه بين الحين والآخر ، صبى بعيون ضيقة كعيون اهل (قيرغيز) ، يرتدى معطفا من جلد حيوان الرنة ، غير مزرر ، ووبره إلى الخارج ، (كما يفعلون فى مناطق « الأورال » بسيبريا) .

.. وادرك تمام الأدراك ان هذا الصبى هو رسول الموت او بتعبير اصدق ، هو موته قد تمثل إنسانا ، ولكن كيف يكون هو موته ثم يعينه فى الوقت ذاته على نظم قصيدة ؟ .. كيف يكون فى الموت نفع ، او يستمد منه العون ؟

لم تكن قصيدته عن الدفن ولا عن البعث ، بل عما بينهما من الأيام . وكان عنوان القصيدة « خضم المعترك » . ولقد

طالما ود أن يصف كيف ان الأرض السوداء المجنونة المعششة بالديدان ظلت طوال ثلاثة أيام تهاجم رمز الحب الذى لا يموت، وتلقى عليه الصخور والحصى ، بينما تعلو الأمواج وثب على شاطىء بحر حتى تعمه وتغطيه .. وكيف استمرت زوبعة هجوم الأرض فى جنونها الأسود طوال الأيام الثلاثة ، تهجم وتتراجع ، وتكر وتفر . وكان لا يفتأ يقفز إلى ذهنه إلى شطران من القصيدة :

ما اسعدنا أن نكون بقربك ..

وان يحين وقت اليقظة

.. وعلى قرب منه كانت تجثم جهنم ، والفساد ، وانحلال ، والموت .. وكذلك على قرب منه كان الربيع ، ومريم المجدلية ، والحياة .. وكان وقت اليقظة قد حان ، وقت اليقظة والنهوض .. وقت القيام .. وقت البعث !

– ١٦ –

● وبدات صحته تتحسن .. وكان فى أول امره مستسلما كالطفل ، لا يذكر شيئا ، ولا يرى علاقة بين شىء وآخر ، بل لا يدهشه شىء .. وطبقت عليه زوجته نظاما للتغذية يتألف من الخبز الأبيض والثريد والشاى المسكر ، وسمحت له بالقهوة .. وقد نسى هو أن هذه الأشياء منعدمة ، واخذ يتذوقها كما يتذوق الشعر او الحكايات الخرافية ، التى يسمح بها — بل توصف وتزكى — لمن هو فى دور النقاهة .. ولكن سرعان ما بدأ يفكر ويعجب ، فسأل تونيا :

— من أين ظفرت بكل هذا ؟



وسقط على الأرض ، فالتقطه السائق وأرقده فوق الحطب ..

— جرانيا هو الذى جاء بها الينا

— من جرانيا ؟

— جرانيا جيفاجو !

— جرانيا جيفاجو ؟

— نعم اخوك « يفجراف » الذى جاء من (اومسك) . اخوك غير الشقيق .. إنه كان يزورنا كل يوم اثناء مرضك .

— هل يرتدى معطفا من جلد الرنة ؟

— نعم ، إذن فقد رأيته ؟ مع انك كنت غائبا عن الوعى طول الوقت ! لقد ذكر انه صادفك على السلم فى أحد البيوت ذات مرة ، فعرفك واراد ان يكلمك ، ولكنك — فيما يبدو — اخفته خوفا شديدا ! إنه يعبدك ويقرأ كل كلمة تكتبها . كم من اشياء اتى بها الينا : ارز وسكر وفواكه مجففة .. الخ .. إنه فتى عجيب ، يحوطه شىء من الغموض ، واعتقد ان له صلة ما بالحكومة .. ومن رايه انه ينبغى لنا ان نرحل لسنة أو لسنتين من هذه المدينة الكبيرة ، و « نعود إلى الأرض » ، فترة من الزمن . وقد فكرت ان نذهب إلى (كروجر) ، وسألته رايه فيها فقال إنها فكرة بديعة ، إذ نستطيع هناك ان نزرع الخضر ونعيش وسط الغابات ، فلا معنى لأن نموت كالخراف مستسلمين !

وفى شهر ابريل من ذلك العام رحل يورى جيفاجو هو واسرته كلها إلى ضيعته القديمة فى (فاريكينو) بالقرب من مدينة (يورياتين) ، فى اعماق الأورال .

الفصل السابع

الرحلة

— ١ —

● كان ذلك فى نهاية مارس . وكما هو مألوف ، كانت الأيام القلائل الأخيرة من هذا الشهر هى اول الأيام الدافئة فى العام ، فهى تبشر بربيع زائف، لا تلبث ان تعقبه موجة من برد شديد .. وكان آل جيفاجو يتاهبون للرحيل . ولكى يتكتموا سبب الهرج الذى دب فى البيت ، راحوا ينبئون السكان — الذين اخذوا يحومون كالعصافير فى البيت — أن المسكن كان ينظف ويعد لاستقبال عيد الفصح .

وكان « يورى » معارضا للرحيل . وكان يعرف ان المعارضة لن تنتهى إلى شىء ، ومن ثم اكتفى بأن ابدى تلميحات اعتراضية . بيد ان الوقت لم يلبث ان سنح لكى يفضى بما كان يجول فى ذهنه وقد فعل ذلك فى مجلس عائلى ضمه وأباها . وسألهما فى آخر الأمر : « افتريان اننى على خطأ ؟ .. الا تزالان تصران على السفر ؟ » .

وقالت تونيا : « إنك تقول أن لا بد لنا من ان ندبر امورنا ما استطعنا ، لعامين قادمين ، إلى أن يستقر النظام الجديد لحيازة الأرض وملكيتها ، ويتسنى لنا ان نحصل على رقعة — خارج (موسكو) — نزرع فيها الخضر . ولكن ، كيف نقضى المدة إلى أن يتسنى ذلك ؟ .. هذه هى النقطة المهمة حقا ،

وانت لم تحدثنا عنها » . وقال الأب يؤيدهـا : « إنه محض جنون ! » .

فقال يورى فى انصياع لهما : « فليكن ! .. إنمـا الذى يمضنى حقا ، هو عدم التاكد المطلق ، إننـا نذهب معصوبى الأعين إلى أفق مجهول .. إلى مكان لا نعرف عنه شيئا . فان أمى وجدتى قد ماتتا ، كما ان جدى معتقل رهينـة ــ إذا كان على قيد الحياة حتى الآن ــ وهؤلاء هم الثلاثة الذين عاشـوا فى (فاريكينو) ! .. إنكما لتعلمان أن جدى قد عقد صفقة ما فى العام الأخير من الحرب ، فباع الغـابات والمصـانع ، او بالأحرى سجل عقود ملكيتها باسم شخص آخر : مصرفا كان هذا الشخص أو إنسانا ، لست أدرى . بل إننـا فى الواقع لا ندرى شيئا . فلمن الضيعة الآن ؟ .. لست اعنى من الذى يمتلكها ، فلست احفل بهـذا مقدرا ذرة ، وإنما اعنى .. من المسئول عنها ؟ .. من الذى يديرها ؟ .. وهل يجرى العمل فى اقتطاع الاخشاب ؟ .. وهل تعمل المصانع ؟.. ثم ــ وقبل كل شىء ــ من صاحب السلطان فى تلك البقعة من البلاد .. او ــ بالأحرى ــ من الذى سيكون صاحب السلطان ، عندما يقدر لنا أن نصل إلى هناك ؟

« إنكما تعولان على ميكوليتسين ، المدير الشيخ ، لكى يدبر لنا الأمر ، ولكن من ادراكما بانه لا يزال هناك ؟ .. بل من ادراكما بأنه لا يزال على قيد الحياة ؟ .. وعلى اية حال ، فما الذى تعرفانه عنه ، اللهم إلا اسمه .. وحتى هـذا لا نتذكره إلا لان جدى كان يجد عناء فى نطقه ! .. على اننى لا ابغى ان

امضى فى ذكر المصاعب ، فقد عقدتما عزمكمـا ، وقـد قبلت ما ارتأيتماه ، فلا مجال للإرجاء . إنما يجب ان نعرف بدقـة ما ينبغى على الإنسان أن يفعله من اجل السـفر ، فى هـذه الايام ! » .

ــ ٢ ــ

● وذهب «يورى» إلى محطة (ياروسلافسكى) ليسال عن ذلك . كانت هناك صفوف لا حصر لهـا من المسافرين ، تتحرك عبر الأبهاء . وفوق معابر بين اسيجة خشبية . كمـا كان هناك تحتها ــ على الأرض المرصوفة بالأحجار ــ اناس فى معاطف الجيش الرمادية ، يسعلون ، ويبصقون ، ويتقلبون على الأرض ، ويتكلمون باصوات مرتفعة ــ على غير انتظار ــ غير حاسبين حساب الأقبية التى كانت تردد الصوت وتضخمه.

وكان اغلبهم من مرضى التيفـوس الذين كانت تلفظهم المستشفياتِ ــ المزدحمة بما يزيد عن سعتهـا ــ فى اليـوم التالى لزوال الخطر عنهم ! وكثيرا ما كان « يورى » نفسـه ــ يمارس عمله كطبيب ــ يضطر إلى ان يفعل ذلك ، ولكنه لم يكن يتصور أن ثمة كل هذه الكثرة من التعسـاء ، ولا كان يتصور انهم كانوا يضطرون إلى ان ينشدوا المأوى فى محطات السكك الحديدية .

وقال له حمال يرتدى مرولة بيضاء : « يجب ان تحصل اولا على إذن يعطيك الأسبقية على سواك ، ثم يتحتم عليك ان تأتى إلى هنا يوما بعد يوم ، لتسال عما إذا كان ثمة قطـار ، فإن القطارات اندر من الذهب فى ايامنا هـذه ، والمسألة ..

مسألة حظ ! » . وفرك الرجل اصبعيه فى حركة ذات معنى ، وهو يقول : « ثم ، لا بد من بعض الدقيق .. إن العجلات لا تدور بدون زيت طبعا ، وما احسبك إلا عارفا بذلك ! » .. ودق على تفاحة آدم فى حلقه ، مستطردا : « واكثر من ذلك ، انك لا تستطيع ان تواصل الحياة دون قليل من الفودكا » .

— ٣ —

● وحوالى تلك الفترة ، كان «الكسندر الكسندروفيتش» قد دعى ـ عدة مرات ـ ليعمل كمستشار للمجلس الاقتصادى الأعلى ، كما دعى « يورى » ليعالج عضوا من اعضاء الحكومة كان يعانى مرضا خطيرا . ولقد تقاضى كلاهما اجرا بالعملة التى كانت تعتبر اعلى عملة : بأذون صرف على اول متاجر سلع الاستهلاك المحدودة ، التى انشئت حديثا . وكان المتجر فى احد مخازن الجيش القديمة ، بالقرب من دير القديس سيمون ، فكان الطبيب والأستاذ العالم يخترقان ساحة الدير ، ثم ساحة الثكنة ، ويجتازان بابا حجريا منخفضا إلى قبو تحت مستوى الأرض . وكان المدخل ينحدر ويزداد اتساعا عند طرفه الأقصى ، حيث امتدت منضدة للبيع من احد الجانبين إلى الجانب الآخر . وكان يقف خلفهما عامل يزن ، ويكيل ، ويسلم السلع فى حركات هادئة غير متعجلة ، وهو « يشطب » اسماء السلع فى قائمة لديه بخطوط عريضة ، بالقلم الرصاص . وكان يجدد موارده — بين آن وآخر — بمزيد من السلع يأتى بها من مؤخرة المخزن .

ولم يكن ثمة عملاء كثيرون ، ومن ثم كان دوراهما يحينان سراعا ، فيقول عامل المتجر وهو ينظر إلى أذون الصرف : « الأوعية ! » . فكانا يقدمان عددا من اكياس الوسائد — بين كبير وصغير — ويراقبانها بأعين متلهفة وهى تملأ بالدقيق ، والحبوب ، والمكرونة ، والسكر ، والدهن ، والصابون ، والثقاب ، واكياس من الورق تبينا فيما بعد انها تحتوى على جبن قوقازى .

وكانا يسرعان — وهما مشدوهان لكرم العامل ، وحريصان على ان لا يضيعا وقته — فيضعان الأكياس بعضها داخل بعض ، ليجعلا منها كيسين كبيرين ، يرفعانهما إلى كتفيهما .. ثم يغادران القبو وهما منتشيان .. لا لمجرد التفكير فى القوت فحسب ، وإنما لشعورهما بأنهما بدورهما كانا شخصين نافعين فى الدنيا ، ولم يكونا يعيشان عبثا ، بل كانا يستحقان المديح والشكر اللذين كانت « تونيا » تسبغهما عليهما حين يعودان إلى البيت .

— ٤ —

● عكفت « تونيا » على تفقد مقتنيات الأسرة وامتعتها ، بينما كان الرجلان يغيبان اياما بأسرها فى المكاتب الحكومية ، يسعيان وراء مستندات السفر ، او يعملان على تسجيل المسكن حتى يتسنى للأسرة ان تعاود الإقامة فيه إذا ما رجعت إلى (موسكو) . وكانت « تونيا » تجوس خلال الحجرات الثلاثة — التى اصبحت المسكن المأذون به رسميا لأسرة جيفاجو — تزن اصغر الأشياء فى يدها عشرين مرة ، وهى

تعمل فكرها ، قبل ان تقرر ما إذا كانت تضمه إلى كومة الأمتعة التى كانوا سيحملونها معهم . ولم يكن معـدا لاستعمالهم الخاص — من المتاع — سوى قليل ، اما الباقى فكان خليقا بان يستخدم كعملة يبتاعون بها ما يحتاجون إليه فى طريقهم ، وفى الأسابيع الأولى لوصولهم . وكان نسيم الربيع يتسلل خلال النافذة المفتوحة ، يحمل فى ثناياه عبير الخبز الأبيض الطازج ، بينما تصبح الديكة ويلعب الأطفال ويتصايحون فى ساحة الدار . وكلما ازداد مرور الهواء فى الحجرة اشتدت رائحة « النفتالين » الواقى من العث ، منبعثة من الحقائب المفتوحة التى كانت ملابس الشتاء قد رصت بداخلها .

وكان اختيار الأشياء التى تؤخذ يخضع لإملاء نظرية دقيقة ، قامت على اسس ما شوهد من امر اولئك الذين رحلوا من قبل ، واتصلوا باصدقائهم الذين خلفوهم وراءهم . وقد لخصت هذه النظرية فى بضع قواعد بسيطة ولكنها ذات أهمية بالغة . وكانت هذه القواعد تتسلط على تصرفات « تونيا » وكأنها صوت خفى يأتى خلال النافذة — من الخارج — مع صرخات الأطفال، وتغريد العصافير ، فيهمس إليها بالتعليمات!

كان الصوت يقول : « خذى اثوابا كاملة من الاقمشة . ولكن الأمتعة تفحص خلال الطريق، ومن ثم فان الاقمشة مبعث خطر ، ما لم يراع فى دسها ان تبدو كالثياب المصنوعة . خذى اقمشة من كل نوع للملابس .. ومعاطف بوجه خاص ، ما لم تكن بالية جدا .. لا حقائب ولا سلال، فلن يكون ثمة حمالون، لذلك احرصى على ان لا تاخذى شيئا لا نفع من ورائه .. واحزمى كل شىء فى حزم صغيرة تستطيع حملها امراة او صبى

صغير . ولقد ظهر أن الملح والتبغ عظيما النفع ، ولكنهما محفوفان بالخطر .. وكذلك النقود ، على ان تكون بالعملة التى اصدرتها حكومة « كيرينسكى » . والمستندات والوثائق هى اصعب ما يمكن اصطحابه بأمان ! » .. وهكذا ، وهلم جرا !

— ٥ —

● وهبت عاصفة ثلجية شديدة فى اليوم السابق على يوم رحيلهم . فكانت هناك سحب رمادية من الثلج ، ترقى صاعدة إلى السماء فى حركة حلزونية ، ثم ترتد إلى الأرض على شكل إعصار ، وتهب مندفعة فى الشارع المظلم ، فتلفه فى غلالة بيضاء .

وتم حزم كل المتاع ، ودبر الأمر بحيث يترك المسكن — بما بقى فيه من اشياء — فى رعاية زوجين مسنين ، هما مساعد بدال (سابقا) وزوجته ، من اقرباء « يجوروفنا » ، وكانا يقيمان فى (موسكو) ، وقد ساعدا « تونيا » فى الشتاء السابق على عقد صفقات مقايضة ، نزلت فيها عن ثياب واثاث فى مقابل بطاطس وخشب للوقود !

(ولم يكن من سبيل إلى ائتمان « ماركل » ، فمع انه لم يقل — فى مركز المليشيا الذى اختاره منتدى لنفسه — إن سادته السابقين كانوا يمتصون دمه ، إلا انه اتهمهم — بدلا من ذلك — بأنهم استبقوه فى الجهل طيلة تلك الأعوام ، متعمدين ان يخفوا عنه أن الدنيا قد انحدرت من القردة !) .

وصحبت « تونيا » الزوجين المسنين فى جولة خلال المسكن ، وهى تجرب المفاتيح فى الأبواب ، وتفتح وتغلق الأدراج والصوانات ، وتتذكر آخر التعليمات التى يعن لها ان تدلى بها إليهما . وكانت المقاعد والمناضد قد دفعت لصق الجدران ، والستائر قد نزعت .. وفى ركن من كل حجرة كانت ثمة اكوام من الحزم . وكانت الحجرات عارية ، وقد جردت من وسائل الراحة الشتوية ، فكانت — إذ ترى فى ظل العاصفة التى كانت تتجلى خلال النوافذ العارية — تذكر كلا منهم بأحزان الماضى واشجانه .. فراح «يورى» يفكر فى امه ، وراحت « تونيا » و « الكسندر الكسندروفيتش » يتذكران موت « آنا » وجنازتها . ولغير ما مبرر ، شعروا بأن تلك الليلة كانت آخر ليلة لهم فى الدار ، وإنهم لن يروها بعد ذلك إطلاقا ! .. وبالرغم من انهم لم يتصارحوا بهواجسهم — تفاديا من ان يثقل كل منهم قلبى صاحبيه — إلا أن تلك الهواجس اكربتهم ، فراحوا يناضلون ليكبحوا دموعهم ، وهم يستعرضون حياتهم السالفة تحت سقف تلك آلدار .

ومع كل هذا ، فقد بذلت « تونيا » قصارى جهدها لتحتفظ بمظهرها العادى، متوسلة إلى ذلك بالاندماج فى حديث لا نهاية له مع زوجة الرجل الذى كان سيضطلع برعاية الدار . وكانت تبالغ — فى ذهنها — فى تقدير الصنيع الذى يوليها إياه هذان الزوجان ، فحرصت على ان لا تبدو غير عارفة بجميلهما ، وظلت تعتذر إليهما ، وهى تدخل كل حجرة ثم تعود ببعض الهدايا للمراة — من « بلوزات » واقمشة من القطن ومن الحرير موشاة بزخارف ونقوش — وكانت هذه

الأقمشة جميعا داكنة تتخللها نقوش رفيعة خفيفة ، او زخارف متخذة من علامات الموسيقى .. كذلك كان الشارع — وهو يطل على الحجرة خلال النوافذ العادية ، فى ليلة الوداع هذه — مظلما ، تتخلل صفحته نقوش من قوالب الثلج وندفه !

— ٦ —

● وبارحوا المنزل فى الفجر ، وكان حريا بالسكان الآخرين ان يكونوا نياما ، ولكن واحدة منهم — تدعى زيفوروتينا — كانت مشغوفة شغفا لا علاج له ، بتنظيم المناسبات الاجتماعية ، فأيقظت السكان جميعا صائحة : « انتباه ! .. انتباه ! اسرعوا يا رفاق ! .. تعالوا فودعوا آل جروميكو السابقين ! » ، فتقاطروا جميعا إلى خارج الباب الخلفى للدار — إذ كان الباب الأمامى قد سد بألواح خشبية فى تلك الأيام — وانتظموا فى نصف دائرة ، وكأنهم يتأهبون لتلتقط صورتهم .. وكانوا يتثاءبون ، ويرتجفون ، ويشدون حول اجسامهم المعاطف الرثة التى كانوا قد طرحوها على اكتافهم ، وراحوا يدقون الأرض بأحذيتهم الضخمة — المصنوعة من اللباد — والتى كانوا قد دسوا أقدامهم فيها بعجلة !

وكان «ماركل» قد ملأ جوفه بنوع قاتل من الخمر ، وفق إلى العثور عليه رغم « جفاف » تلك الأيام ، واطل ملقيا بكل جسمه على سياج درجات المدخل ، التى كانت موشكة ان

تنهار . ورغب فى ان يحمل متاع المسافرين إلى المحطة ، فلما ابوا عليه ذلك استاء اشد الاستياء . واخيرا ، تخلصوا منه ، وخرجوا إلى الشارع . وكان الظلام لا يزال مسيطرا ، والرياح قد هدات ، واخذ الجليد يتساقط اغزر واكثف مما كان فى الليلة السابقة . وكانت كسف كبيرة من الثلج المندوف تهبط سابحة فى الفضاء متكاسلة ، معلقة فوق الأرض ، مترددة قبل ان تستقر عليها .

ولكن الظلام كان اخف ادلهاما فى شارع (اربات) ، وكان الثلج يهبط اشبه بستار مسرح بعرض الطريق ، ينسدل ببطء ، وهو يهز اطرافه الدنيا حول سيقان السائرين ، حتى خيل إليهم انهم لم يكونوا سائرين ، وإنما جمدوا فى اماكنهم كمعالم للزمن والعصر ! .. ولم يكن فى الطريق احد من المارة اللهم إلا أصحابنا هؤلاء . على انهم لم يلبثوا ان صادفوا مركبة يجرها جواد صغير فى بياض الثلج ، ويقودها حوذى لاح كما لو انه كان قد التف بقطن مندوف ، فقبل ان يقلهم ومتاعهم إلى المحطة ، لقاء اجر خيالى — وإن لم يكن رغم ضخامته يساوى « كوبيك » واحدا فى تلك الأيام — ولم يتخلف إلا « يورى » ، الذى ترك يقطع المسافة على قدميه ، استجابة لرجائه .

— ٧ —

● ووجد « تونيا » ووالدها قد احتلا مكانين فى احد تلك الصفوف التى لا نهاية لها ، والتى كانت تصطف فى المحطة . وكان « نيوشا » و « ساشا » يتمشيان حول المكان ، ويتبينان

— من وقت إلى آخر — ما إذا كان الوقت قد حان لكى ينضما إلى الكبار . وكانت تفوح منهما رائحة زيت « البارافين » ثقيلة ، فجة ، إذ لطخت رقبتاهما — ورسوغهما ، وكعوبهما — بكميات غزيرة منه ، اتقاء للقمل والحشرات . وكانت الصفوف تسعى إلى ابواب ارصفة المحطة . ولكن المسافرين كانوا مضطرين إلى ان يسيروا نصف ميل او اكثر ، على طول الخط ، حتى يصلوا إلى القطار . ذلك لأنه لم يكن فى المحطة عدد كاف من عمال النظافة ، فتراكمت فيها الأوساخ ، ولم يعد فى الوسع ان تدرج العجلات على القضبان الممتدة بمحاذاة الأرصفة ، نظرا لما كان يعلوها من قاذورات وثلج . ومن ثم فقد كانت القطارات تقف على مسافة منها .

ولوحت « تونيا » بذراعها ليورى ، فلما اصبح على قرب كاف منها ، صاحت ترشده إلى المكان الذى كان عليه ان يختم فيه أذون السفر بخاتم المحطة . وقالت حين عاد : « أرنى ما الذى اثبتوه ! » . فأراها الأوراق ، من فوق الحاجز الذى كان يفصل بينهما . وإذ ذاك قال الرجل الذى كان يقف خلفها فى الصف ، وهو يمد بصره من فوق كتفها : « هذه أذون للسفر فى العربة الخاصة ! » .

وكان الرجل الذى يتقدمها اكثر إيضاحا . فلقد كان من اولئك المشغوفين بدراسة اللوائح ، الذين يعرفون — فى كل ظرف ممكن — ما ينطبق على ذلك الظرف من قواعد ، والذين يتطوعون للحديث عن هذه القواعد ولو لم تكن لهم مصلحة شخصية من ورائها ، ويتقبلونها على انها أمر مسلم به ..

ومن ثم فانه قال : « هذا الخاتم يبيح لكم حق المطالبة بمقاعد فى عربة مقسمة إلى درجات ، اعنى عربـة ركاب ، إذا كانت فى القطار عربة للركاب ! » .

واندمج جميع من فى الصـف فى التعـليق : « عربـة للركاب ؟ ! .. حقا ! يجب ان تحمـدوا حظكم إذا قدر لكم ان تعثروا على مكان فى ردهات القطار ، فى هذه الأيام ! » . ولكن الرجل الذى تولى الشرح ، قال : « لا تنصتوا إليهم . سأجلو لكم الأمر ، فهو غاية فى البساطة . لقد الغيت جميع القطارات الخاصة ، فليس هناك سوى نوع واحد من القطارات ، لجميع الركاب على السواء ، من جنود ومسجونين وماشية وافراد .. كلهم سواء فى قطار واحد ! » . ثم التفت إلى الجمع قائلا : « لماذا تغررون بالرجل ؟ .. إن الكلمات لا تكبدكم شيئا ، وفى وسعكم أن تقولوا ما تشـاءون ، ولكن الواجب يقتضيكم ان تشرحوا ما تقولون ، حتى يتسنى فهمه ! » .

فتعالت التعليقات فى وجهه : « ما اوضـح شرحك حين اخبرت الرجل انه حصل على اختام تبيح لهم ركوب العربـة الخاصـة ! .. جدير بك ان تتأمل محدثك قبـل ان تشرع فى الشرح . كيف يتاح لرجـل بهـذا الوجه ان يركب العربـة الخاصة ؟ .. إن العربة الخاصة مفردة للبحارة ، وقـد اوتى البحارة عيونا يقظة وبنادق . ولكن ، انظر إلى هـذا ، فماذا ترى ؟ .. إنه من اعضاء الطبقات صاحبة الأملاك . والأسوا من هذا انه دكتور .. من السادة السابقين ! .. إنه يسحب بندقيته من الصراع ، ويقول وداعا ! » .

ولا يعلم احد إلى اى مدى كان العطف الذى اثارته حال الطبيب خليقا بان يصل ، لو لم يتجه اهتمام الحشد نحو امر آخر . إذ كان القوم قد راحوا ينظرون فى فضـول — لفتـرة من الزمن — نحو النوافذ الزجاجية الهائلة ، القائمة عنـد الخطوط الحديدية ، والتى علتها سقوف امتدت لعدة ياردات. ولم يكن الثلج المتساقط ليبدو للأنظار إلا بعد الطرف الأقصى للسقوف . وكان — إذ يرى على البعد — يبدو وكأنه ساكن تقريبا ، لبطء حركته وهو يسقط إلى الأرض ، كمـا يهبط إلى سطح الماء فتات خبز يلقى إلى الأسماك !

وكانت ثمة اطياف ظلت تخطـر — على البعـد — طيلة نصف الساعة الأخير ، ماضية على طول الطريق ، جماعات ووحدانا . ولقد اخذت بادىء الأمر على أنها اطياف رجال من مستخدمى السكك الحديدية ، يؤدون واجباتهم . ولكن شرذمة من القوم ما لبثوا ان اندفعوا بعيدا عن الأرصـفة . وبدت فى الاتجاه الذى كانوا يجرون نحوه غمامة صغيرة من الدخان ، فصرخت اصوات انبعثت من الصفوف : « افتحوا الأبواب ايها الماكرون ! » . وتحرك الحشد متجها إلى الأبواب ، يدفع من فى المؤخرة من هم امامه ، واصواتهم تتعالى : « انظروا إلى ما يجرى ! .. لقد حبسونا هنا ، فى حين ان بعض الأنذال قد داروا حول المكان ، وقفزوا إلى خارج الأرصفة .. افتحـوا ايها الأبالسة ، وإلا دمرنا الأبواب تدميرا ! .. هيا يا رفاق ، لندفع الأبواب ! » .

وقال المشغوف بمعرفة القوانين : « لا حاجة بالحمقى إلى ان يحسدوا اولئك النـاس على نصيبهم ، فهم مجندون

مدعوون لأشغال السخرة فى (بيتروجراد) . وكان من المقرر إرسالهم إلى (فولوجدا) عن طريق المحطة الشمالية ، ولكنهم حولوا إلى الجبهة الشرقية .. إنهم لا يسافرون بمحض إرادتهم ، وإنما هم تحت الحراسة ، وسيتولون حفر الخنادق ! ».

— ٨ —

● ومكثوا ثلاثة أيام فى القطار ، ولكنهم لم يبتعدوا عن (موسكو) كثيرا . واستمر الطقس البارد مسيطرا ، فكانت الخطوط الحديدية ، والحقول ، والغابات ، وسقوف القرى — التى تتراءى خلال النوافذ — ترزح تحت جليد سميك .

وحالف آل جيفاجو الحظ ، فاستولوا على ركن لأنفسهم فى الصف الأعلى من أسرة النوم ، مقابل النافذة الطويلة المعتمدة التى تلى السقف مباشرة .. فاستقر بهم المقام فى وسط عائلى خاص . ولم تكن «تونيا» قد سافرت فى قطار من قطارات البضائع من قبل . كان القطار عاليا عن الأرض ، ذا أبواب انزلاقية ثقيلة ، حتى لقد اضطر « يورى » فى بادىء الأمر إلى أن يرفع النساء بين ذراعيه ليساعدهن على الصعود ، ولكنهن لم يلبثن أن تعلمن كيف يهبطن ويصعدن دون معونة .

ولم تبد العربة — فى نظر تونيا — — أكثر من حظيرة للماشية ، أقيمت على عجلات ، فراحت تتوقع أن تهوى منهارة مع كل زهرة ! ولكنهم ظلوا يهتزون إلى الأمام وإلى الخلف ،

وذات اليمين وذات اليسار ، ثلاثة أيام بطولها ، كلما بدل القطار من سرعته أو اتجاهه .. ثلاثة أيام بطولها ، والعجلات تقرقع تحتهم ، كأنها عصى تقرع طبلا فى لعبة آلية للأطفال .. ومع ذلك ، فقد ظلوا سالمين ! .. وتبينت «تونيا» أن مخاوفهم لم تكن تقوم على أساس ما !

وكان القطار يتألف من ثلاث وعشرين عربة ، كان آل جيفاجو فى الرابعة عشرة منها . ولم تكن تحاذى الرصيف من هذه العربات — كلما وقف القطار فى محطة — سوى العربة الأمامية ، أو الخلفية ، أو الوسطى .. دون سواها . وكان البحارة فى المقدمة ، والركاب العاديون فى الوسط ، والعمال المجندون فى ثمانى عربات فى المؤخرة . وكان عدد هؤلاء العمال نحو خمسمائة من كافة الأعمار ، والظروف ، والمهن .. وكان منظر ذلك الخليط من الركاب يستلفت الأنظار ، فقد كان ثمة محامون ، وسماسرة ممن يعملون فى « البورصة » فى (بطرسبورج) — من أهل الثراء والأناقة — جنبا إلى جنب مع حوذية ، وخدم ممن اعتادوا مسح الأرض ، وعمال ممن يشتغلون فى الحمامات العامة ، وتجار للمخلفات القديمة من التتار ، ومعتوهين هاربين من المصحات العقلية ، وأصحاب حوانيت ، ورهبان .. وقد حشروا جميعا فى زمرة الطبقات الاستغلالية !

وكان المحامون والسماسرة يجلسون بأقمصتهم ذات الأكمام القصيرة ، حول المدافىء الحديدية الحامية ، يتبادلون رواية ما لا حصر له من القصص ، ويتندرون بالفكاهات ، ويضحكون .. كانوا أناسا تربط بينهم بعض الروابط . ولم

يكونوا يشعرون بقلق ما ، إذ كان لهم أقارب من ذوى النفوذ يعملون من اجلهم فى مواطن إقامتهم الأصلية . فاذا قدرت اسوا الافتراضات ، فقد كان بوسعهم أن يفتدوا انفسهم ويشتروا حرياتهم ، فيما بعد !

اما الآخرون فكانوا يرتدون احذية ضخمة و «قفاطين» ، أو كانوا حفاة ، فى اقمصة طويلة اسدلت خارج سراويلهم ، وبعضهم بلحى والبعض غير ملتحين ، وقد وقفوا عند الأبواب نصف المفتوحة ، يتصيدون النسمات فرارا من جو العربات الراكد ، وقد تشبثوا بجوانب العربات ، أو بالألواح التى تثبت بعرض الأبواب ، وراحوا ينظرون فى وجوم إلى الفلاحين والقرى — على جانبى الطريق — دون أن يتحدثوا إلى احد .. هؤلاء لم يكن لهم أصدقاء ذوو نفوذ ، فلم يكن لهم ما يبنون الآمال عليه !

وكان عدد المجندين للعمل يفوق سعة العربات التى افردت لهم ، فسمح للفائضين منهم بالجلوس فى العربات التى خصصت للركاب بالمجان ، ومنهم اولئك الذين شغلوا العربة الرابعة عشرة .

— ٩ —

● كانت « تونيا » تستوى جالسة بحذر — كلما وقف القطار — حتى لا يصطدم راسها بالسقف ، ثم تطل خلال الشق الذى انفرج الباب عنه ، لترى ما إذا كان ثمة ما يستحق ان تغادر العربة من اجله . وكان هذا يتوقف على حجم

المحطة ، مدى الفترة التى يمكثها القطار فيها ، وما يحتمل ان يعرض لها من فرص لعقد صفقة على أساس المقايضة ! .. وهكذا كان الأمر فى هذه المرة ، فان تباطؤ سرعة القطار ايقظها من إغفاءة . وكان عدد الاشارات والتحويلات التى مر بها يوحى بكبر حجم المحطة . ففركت « تونيا » عينيها ، وسوت من شعرها ، وبعد أن نبشت فى قاع إحدى الحزم ، اخرجت منشفة مطرزة برسوم الديوك الصغيرة ، واطواق الخيل ، والعجلات . وساعدها « يورى » — الذى استيقظ هو الآخر — على الهبوط من السرير . وتتابعت مناظر « اكشاك الإشارة » والمصابيح العالية خلال الباب ، واعقبتها مناظر الأشجار وهى تلوح للقطار — فى حفاوة — بمناديل من الثلج الأبيض. وقفز البحارة إلى الرصيف قبل ان يقف القطار ، وتسابقوا إلى خلف مبنى المحطة ، وهم يحطمون الثلج باقدامهم ، إلى حيث كانت الفلاحات يقفن عادة ليتجرن فى الأغذية ، فى غفلة من القانون . وكان زيهم الرسمى الأسود ، وسراويلهم ذات المقاعد العريضة ، والأشرطة التى كانت ترفرف من قلنسواتهم التى لا حافة لها .. كل هذه كانت تخلع طابعا من الاستهتار على زحفهم السريع ، وتحمل الناس الآخرين على أن يفسحوا لهم الطريق ، وكأنهم أمام رتل من المنزلقين على الجليد وقد اندفعوا بسرعة هوجاء !

وخلف المحطة ، وقفت فتيات ونسوة من القرى المجاورة ، كل تختبىء وراء الأخرى فى انفعال واستحياء ، وكأنهن يقفن بباب قارىء للمستقبل ، مصطفات فى صف واحد ، ملصقات بجدار المحطة ، يبعن الخيار ، والجبن (القريش) ، ولحم



ولم تسمع تونيا الكلمة الأخيرة ، فتساءلت : « ما الذى تعنينه يا عزيزتى ؟ » ..

الجاموس المسلوق، وفطائر الشوفان التى احتفظت بسخونتها إذ لفت بين طيات قطع من القماش . وكانت وجوههن تتضرج حياء — وهن ملتفات بأوشحتهن ، غائصات فى المعاطف المصنوعة من فراء الغنم — إزاء النكات التى راح البحارة يطلقونها .. على أنهن كن فى جزع منهم — إذ كان البحارة عادة هم الذين يؤلفون الوحدات التى تساق لمكافحة الاتجار المحرم فى « السوق الحرة » — ولكنهن سرعان ما تخلصن من خوفهن حين وقف القطار تماما ، واقبل الركاب المدنيون ينضمون إلى الجمع . واشتدت حركة المقايضة .

وسارت « تونيا » أمام صف النسوة تتفقد سلعهن ، ومنشفتها ترفرف فوق كتفها ، وكأنها ذاهبة إلى خلف المحطة لتغسلها فى ماء الجليد . وصاحت عدة نساء خلفها : « هاى ! ماذا تريدين فى مقابل منشفتك ؟ » . ولكنها واصلت سيرها ، وزوجها يتبعها . وفى نهاية الصف ، كانت ثمة امرأة ذات وشاح (شال) أسود ، ذى نقوش قرمزية، فما إن رأت المنشفة حتى أومضت عيناها الجريئتان ، وتلفتت حولها فى حذر ، ثم تسللت إلى جوار « تونيا » ، وكشفت عن بضاعتها هامسة فى لهفة : « تأملى هذا ! اراهن انك لم ترى له مثيلا منذ امد طويل .. اتريدينه ؟ .. لا تطيلى التفكير وإلا اخذه سواك ! .. اتقبلين ان تعطينى منشفتك مقابل نصف واحد ؟ » .

ولم تسمع تونيا الكلمة الأخيرة ، فتساءلت : « ما الذى تعنينه يا عزيزتى ؟ » .. وكانت المراة تعنى نصف ارنب برى مشوى ومشطور إلى نصفين . فرفعته قائلة : « قلت لك هل

تأخذين النصف فى مقابل منشفتك ؟ .. فيم تحملقين؟ إنه ليس لحم كلاب، فإن زوجى صياد، وهذا ارنب برى لا ريب فيه! ».

وتبادلا سلعتيهما ، وكل منهما تعتقد انهـا الرابحة فى الصفقة . وشعرت «تونيا» بخجل ، وكأنها قد غشت الفلاحة ، بينما كانت هذه مغتبطة بنصيبها ، فنادت صديقة لها كانت قد باعت هى الأخـرى سـلعها ، وانطلقت وإياها عائدتين إلى القرية والفرصة سانحة ، وراحتا تسيران بخطى واسـعة مبتعدين فى الطريق المكسوة بالجليد .

وفى تلك اللحظة ، ثار صخب بين الحشـد . وراحت امراة عجوز تصرخ : « هاى ، انت ! .. إلى اين تذهب ؟ اين نقودى ؟ .. متى دفعت لى أيها اللص العديم الحيـاء ؟ .. الا انظروا إلى هـذا الخنزير الجشع ، اناديه فلا يحفل حتى بالالتفاف خلفه . قف ! .. قلت لك قف ، أيها السيدُ الرفيقُ ! .. لقد سرقنى ! .. قف يا لص ! .. ها هو ذا يبتعـد ، إنه هو فأمسكوه ! » .

ــ ذلك الشخص .. ذلك الحليق الذقن ، الذى يبتسم!

ــ اهو ذاك الذى أوتى خرقا فى كم ثوبه ؟

ــ اجل ، اجل .. امسكوه ، هذا السارق !

ــ اهو ذاك الذى أوتى رتقا عند مرفق كمه ؟

ــ نعم ، نعم .. أواه ، ياربى العزيز .. لقد سرقنى !

ــ ما هذا الصخب ؟ .. ما الذى يجرى هنا ؟

ــ لقد اشترى الرجل الذى هناك بعض اللبن والفطائر ، فملأ كرشه ثم مضى دون أن يدفع .. ولهذا تصيح العجـوز وتبكى !

ــ ما ينبغى ان يحدث هذا .. لماذا لا يهرعون خلفه ؟

ــ يهرعون خلفه ؟ ! .. إنه محوط بالأحزمـة وأكياس الرصاص من راسه إلى قدميه . إنه هو الذى سيجرى خلفك لو تبعته !

ــ ١٠ ــ

● كان فى العربة الرابعة عشرة عدد من المجندين للعمل، يرافقهم حارسهم « فورونيوك » . .ووقف ثلاثة من الرجال فى معزل عن الآخرين . اولئك كانوا : « بروخور بريتولييف » الذى كان صرافـا فى حانوت للخمور تملكه الحـكومة ، فى (بطـرسـبورج) ، وكانـوا يسـمونه « الصراف » .. و « فاسيابريكين » ، وهو فتى فى السادسة عشرة من عمره ، كان يتدرب على الاتجار بالسلع الحديدية .. و « كوستويد ــ اموركسى » وهو ثائر اشـيب ينتمى إلى حزب العمـال التعاونى ، تردد على كافة مؤسسات العقاب فى العهد القديم، وبدا الآن يرتاد مؤسسات العهد الجديد !

وكان المجندون قد بدءوا يتعارفون تدريجيا ـ وهم الذين كانوا اغرابا كل عن الآخر عنـدما سيقوا للتجنيد ــ فظهر ان « الصراف » و «فاسيا» قد جاءا من منطقة واحدة من البلاد ، هى إقليم (فياتكـا) ، وأن القطـار لن يلبث أن يسـير عبر منطقتهما . فلقـد كان « بريتولييف » من (ماليش) ، وكان

شعره قصيرا ، ووجهه مشوها بآثار الجدرى ، انطس ، قبيحا . وكانت بزته الرسمية الرمادية — التى اسود ما تحت إبطيها — تلف جسمه بإحكام ، كما يلف المشد (الكورسيه) جسد امراة مترهلة ! .. وكان يجلس الساعات ساكنا ، وكأنه طيف واجم ، ويحك البثور المتناثرة فى يديه — وهو مستغرق فى التفكير — حتى تدمى وتتقيح .

ولقد كان يسير فى اصيل ذات يوم — منذ اشهر قلائل — فى شارع (نيفسكى) ، حين الفى نفسه فى كمين لرجال المليشيا، عند ناصية شارع (ليتيينى) . كان عليه ان يبرز اوراق هويته ، فظهر انه كان يحمل دفترا للتمرين من الدرجة الرابعة ، اى من النوع الذى يعطى لمن لا يعملون ، والذى لا يمكن حامله من ان يبتاع شيئا . ومن ثم احتجز مع كثيرين ممن القى القبض عليهم للسبب ذاته ، ثم سيقوا إلى الثكنات تحت الحراسة . وتقرر ان توفد جماعته — كما اوفدت الجماعة التى سبقتها — لتحفر الخنادق فى جبهة (ارشانجل) ، ولكنها حولت عن وجهتها اثناء الطريق لترسل إلى الشرق ، عن طريق (موسكو) .

وكانت لبريتولييف زوجة فى (لوجا) ، حيث كان يعمل قبل الحرب . وقد سمعت بسوء طالعه — بطريق غير مباشر — فتخيل إليها انه فى طريقه إلى الشمال ، واسرعت إلى (فولوجدا) — ملتقى الخطوط الذاهبة إلى (ارشانجل) — لكى تبحث عنه ، وتسعى للظفر بالإفراج عنه . ولكن الفرقة لم تذهب إلى هناك ، وكان من الخير لها لو مكثت فى دارها . فما كنت لتعرف ، فى تلك الأيام ، اين انت .. ولا اين تقيم !

وكان بريتولييف يقيم فى (بطرسبورج) — حيث كان منصبه قد حمله ، فى بداية الحرب — مع سيدة تدعى « بيلاجيا تياجونوفا » . وذات يوم كان يتريض معها ، ثم افترقا لتعود هى إلى البيت ويذهب هو للوفاء بموعد فى مكان ما ، فإذا به يعتقل ولما تمض لحظات على فراقهما ، حتى لقد كان يرى ظهرها وهى تنحدر فى شارع (ليتيينى) وتغيب وسط الزحام! .. وكانت هى امراة من الطبقة المتوسطة ، مليئة الجسم فى التفاف .. ذات قوام مهيب ، ويدين جميلتين ، وشعر غزير ، كانت تنسقه فى ضفيرة لا تنفك تطوح بها فوق كتفها وهى تتنهد . وقد كانت هذه الـ « بيلاجيا » فى العربة الرابعة عشرة من القطار — هى الأخرى وقد آثرت طواعية ، ومن تلقاء نفسها ، ان تصحبه فى رحلته .

وكان من العسير ان تعرف ما اجتذب هذه المراة إلى رجل بليد ، قبيح ، مثل بريتولييف ! ولكن من المؤكد ان كلا منهما كان يتعلق بصاحبه . وفى عربة اخرى — من العربات الأمامية — كانت ثمة صديقة اخرى له ، تدعى « اوجريسكوفا » . وكانت فتاة بارزة العظام ، ذات اهداب بيضاء ، وقد استطاعت — بطريقة ما — ان تستقل القطار . وكانت تياجونوفا تدعوها : « المحقنة » و « الخرطوم » وكثرا من الأسماء النابية . وكانت الغريمتان على شقاق حام ، فكانت كل منهما تحرص على ان تتفادى الأخرى . ومن ثم فإن « اوجريسكوفا » لم تفد قط على العربة الرابعة عشرة ، فكان من الأمور الباعثة على الحيرة ، ان يحاول احد ان يعرف كيف كانت تلتقى بمحط عواطفها . ولكن .. لعلها كانت تقنع بمجرد التطلع إليه عن

بعد ، فى المناسبات التى كان الركاب يهبطون فيهـا عن بكرة ابيهم ، ليساعدوا فى نقل الوقود إلى القاطرة .

— ١١ —

● وكانت قصة « فاسيا » تختلف عن هذه . كان ابوه قد قتل فى الحرب ، فأرسلته امه إلى (بطرسبورج) ليتتلمذ على عمه فى حرفته . فقد كان للعم حانوت خاص فى سوق (ابراكسين) . وفى احد ايام الشتاء الأخير استدعى العم إلى مجلس السوفييت المحلى ، ليجيب عن بضعه اسئلة ، فأخطأ طريقه ، واجتاز بابا قاده إلى مكتب لجنة اختيار فرق العمال . وكانت الغرفة زاخرة بالمجندين ، وإن هى إلا برهة حتى حضر الجنـود ، فأحاطـوا بالرجـال ، وقـادوهم إلى ثكنـات (سيمونوفسكى) ، حيث قضوا ليلتهم ثم سيقوا فى الصباح إلى المحطة !

وذاعت أنباء اعتقال كل هـذا العدد ، فأقبلت اسرات المعتقلين لتودعهم . وكان بين المودعين « فاسـيا » وزوجة عمه . وتوسل العم إلى الحارس ــ وهو نفس « فورونيوك » الذى كان فى العربة الرابعة عشرة ــ ليدعه يخرج فيودع زوجته . ورفض الحارس ان يسمح له بذلك ، ما لم يقدم رهينة ، فقد إليه « فاسيا » ، ومن ثم احتجز هـذا ، واطلق سراح العم .. وكانت هذه آخر مرة راى فيهـا عمه وزوجة عمه !

وعندما تكشفت الخدعة ، اخذ «فاسيا» ــ الذى لم يكن قد ارتـاب فى شىء ــ يبـكى وينتحب ، وارتمى على قدمى

«فورونيوك» ، وراح يقبل يديه ويتوسل إليه ان يخلى سبيله ، ولكن هـذا كله لم يجد فتيـلا .. لا لأن « فورونيوك » كان قاسيا بطبيعته ، وإنما لأن النظام كان صارما فى تلك الفتـرة القلقة ، وكان الحارس مسئولا ــ بحياته ــ عن عدد من هم فى رعايتـه ، وكان هـذا العدد يراجع بين آن وآخـر بنداء الأسماء من القوائم ..

وكانت هذه هى الطريقة التى قدر بها لفاسيا ان يصبح من المسخرين ..

اما التعاونى « كوستويد » ــ الذى طالما حظى باحترام سجانيه ، ونجح فى أن يكون على علاقات طيبة بهم ، مهما يكن نظام الحكم ــ فقد لفت نظر رئيس القافلة ، اكثر من مرة ، إلى موقف « فاسيا » المنطوى على ظلم فادح . وقـد أقر رئيس القافلة بأن الخطأ كان فظيعا ، ولكنه قال إن ثمـة عقبـات رسمية فى سبيل فعله أى شىء لإصلاح الموقف ، إلى أن تصل القافلة إلى غايتها .. ووعد بأن يبذل خير ما فى وسعه بعـد ذلك .

وكان « فاسيا » فتى جذابا ، متناسق القسمات ، يبدو كواحد من غلمان القصور الملكية ، او كمـلاك من أولئك الذين يشاهدون فى الصور . وكان بريئا ، طاهرا ، نقى النفس إلى درجة غير مألوفة . وقد اصبح احب الاعمال إليه ان يقبع عند اقدام من كانوا يكبرونه سنا ، وان يتطلع إليهم ، وقد عقد يديه حول ركبتيه ، فينصت إلى حديثهم او إلى قصص مغامراتهم . وكان بوسعك ان تفهم الحديث بمراقبة عضـلات وجهه وهو يتمالك نفسه ليكبح الضحك او ليمسك الدموع .

— ١٢ —

● كان آل « جيفاجو » قد دعوا التعاونى « كوستويد »
إلى العشاء ، فجلس فى ركنهم ينهش ساقا من الأرنب الجبلى
فى تلمظ مسموع . وكان شديد الخوف من تيارات الهواء ، فظل
يبدل موضعه عدة مرات ، حتى اهتدى اخيرا إلى وضع
يناسبه . فقال : « هذا افضل ! » .. حتى إذا فرغ من ساق
الأرنب ، لعق اصابعه ، ومسحها بمنديله ، ثم شكر مضيفيه
قائلا : « ان نافذتكم غير مناسبة ، وينبغى ان تسد شقوقها
بالمعجون .. ولكن ، لنعد إلى حديثنا . إن الأرانب المشوية
بديعة حقا ، ولكن من الخطل ان نستنتج من ذلك ان الفلاحين
فى رخاء .. وهذا ابسط تصوير لحالهم ، إذا اغتفرتم لى هذا
التعبير ! » .

وقال يورى : « آه ، خفف من غلوائك ! .. انظر إلى
المحطات التى نقف بها . إن الأشجار والأسوار لا تزال قائمة ،
تجتث ليتخذ خشبها وقودا . والأسواق ! .. والنساء ! ..
ما ابدع أن تتصور ان الحياة لا تزال تسير فى مجراها — فى
مكان ما من الأماكن — وان القوم مغتبطون بها . فليس كل
امرىء تعسا . اليس فى هذا تبرير لكل شىء ! » .

— هو كذلك ، لو كان الأمر كما تقول .. ولكنه ليس
كما تصوره ! .. كيف تفكر فى انه على هذا الشكل ؟ .. ليس
عليك سوى ان تنظر إلى ما يجرى فى الداخل ، فى اى مكان
على خمسين ميلا او مائة ميل من الخط الحديدى .. إن
الفلاحين ثائرون ، والانتفاضات لا تنقطع . لسوف تقول إنهم

يقاتلون الحمر والبيض على السواء .. وإنهم يحاربون من
يكون من الفريقين فى الحكم ، دون تمييز ، فهم — بأبسط
تعبير — ضد اى سلطان يفرض ، لأنهم لا يعرفون ما الذى
يبتغون .. ولكن ، اسمح لى أن اخالفك فى هذا . فإن الفلاح
يعرف تمام المعرفة — وخيرا منك ومنى — ما يصبو إليه ،
ولكنه يريد شيئا يختلف تماما عما حصل عليه !

« فعندما جاءت الثورة وايقظته ، قرر ان هذا هو تحقيق
حلمه .. الحلم القديم .. حلمه بأن يعيش فى أرضه ، ومن
عمل يديه ، بلا حكومة .. فى استقلال ، ودون ان يكون مدينا
بشىء ما ، لأى مخلوق ! ولكنه بدلا من ذلك ، الفى انه لم يفز
بأكثر من ان بدل الطغيان القديم — طغيان الحكومة القيصرية —
بطغيان جديد اشد قسوة .. بربقة الحكومة الثورية العليا !
.. فهل تعجب — بعد ذلك — إذا كانت القرى فى قلاقل ،
لا تستطيع ان تستقر ؟ ! .. ومع ذلك ، فانت تقول إنهم
سعداء ! .. لا ، هناك كثير من الأمور لا تعرفها يا صديقى
العزيز ، ويخيل إلى — كما اخشى — انك لا تريد ان تعرفها! » .

— آه ، فليكن ! .. استطيع ان اقول إننى لا اريد ..
فلماذا ينبغى — بالله عليك — ان أعرف كل شىء ، وان ازعج
نفسى واسقمها من اجل كل شىء ؟ .. إن التاريخ لم
يستشرنى ، وانا مسوق إلى الرضا بما يحدث — مهما يكن —
فلماذا إذن لا اتجاهل الحقائق ؟ .. ستقول إن هذا مسلك
غير واقعى . ولكن ، اين الواقع او الحقيقية فى روسيا اليوم؟
..يقينى انها فرت من الوجود مذعورة . من الثابت اننى اريد
ان أصدق ان الفلاحين اليوم فى خير حال، وان القرى اكثر رخاء

.. فإذا لم املك ان اصدق هذا ، فماذا ينبغى ان افعل ؟ .. ومن الذى اصدق ؟ وعلى ماذا اعيش ؟ .. إننى مضطر إلى ان اواصل العيش ، فإن لى اسرة يجب ان ارعاها !

واشار بيده فى قنوط ، تاركا الحديث لحميه ، وابتعد فاطل براسه عن حافة السرير الذى كانوا يجلسوا فوقه ، ليتأمل ما كان يجرى تحته ! .. كان « الصراف » بريتولييف وعشقيته بيلاجيا منهمكين فى الحديث مع فاسيا وفورونيوك الحارس . وكان القطار يدنو سراعا من موطن فاسيا وبريتولييف ، فراح هذا يتذكر الطريق إلى قريته .. المحطة ، والطريق التى تسلكها حسب ما إذا كنت ممتطيا جوادا ، او كنت تسير على قدميك .. وكان فاسيا وهو يسمع الأسماء القروية المألوفة ، ينساق لسحرها ، فيروح يرددها وعيناه تبرقان ، وكأنه تحت سحر حقيقى !

وقال والانفعال يخنق صوته : « تهبط عند الجدول الجاف ، ثم تذهب إلى (بويسكى) .. اليس كذلك ؟ » .

— بلى .. من هناك تسلك طريق (بويسكى) .

— هذا ما اقوله . (بويسكى) .. قرية بويسكى ! .. إننى اعرفها حقا ، فهى فى الطريق إلينا ، إذ تنحرف يمينا ، ثم تعرج يمينا مرة اخرى ، فتصل إلينا .. إلى (فريتنيكى) .. ولا بد ان طريق قريتك إلى اليسار ، بعيدا عن النهر ، اليس كذلك ؟ .. اتعرف نهر بيلجا ؟ لا بد انك تعرفه ! .. إنه نهرنا . فإذا ظللت تتبع النهر ، مضيت قدما ، موغلا فى صعود التل الذى إلى اليمين ، والمشرف على ذلك النهر (بيلجا) ،

وصلت إلى قريتنا (فريتنيكى) ! .. إنها تقع فوق الحافة مباشرة ، وإنها لشد .. يد .. دة الانحدار ! إنها لتجعل راسك يدور ، والله ! .. وتحتها محجر تقتطع منه احجار الطواحين والرحى . وهناك — فى فريتنيكى — تقيم امى وشقيقتاى .. اختى آليا ، واختى آريا .. إن امى تكاد تشبهك يا عمة بوليا ، فهى لا تزال شابة ، وجميلة . ايها العم فورونيوك ، إننى لأناشدك بحق المسيح .. ارجوك .. اتوسل إليك بحق الله .. ايها العم فورونيوك !

— وبعد ، ماذا تبغى ؟ .. ايها العم ، ايها العم .. إننى لأعرف اننى لست عمك ، فما الذى ترتجى ان افعله ؟ .. امجنون انا ؟ .. لو اننى تركتك تذهب ، لكانت هذه نهاية عمرى ، والله يرحمنى ! .. إنهم إذ ذاك يوقفوننى امام حائط ، ويطلقون الرصاص على !

وكانت بيلاجيا تياجونوفا تسرح ببصرها خلال النافذة ، وهى شاردة الفكر ، تمسح على شعر فاسيا المائل إلى الحمرة ! .. وكانت تميل عليه — بين آن وآخر — فتبتسم له ، وكأنها تقول : « لا تكن غبيا . ليس هذا بالموضوع الذى تكلم فيه فورونيوك على مسمع من كل امرىء . لا تحمل هما ، واصبر ، فلسوف يكون كل شىء على ما تروم ! » .

— ١٣ —

● وعندما خلفوا روسيا الوسطى ، فى سبيلهم إلى الشرق ، بدأت تقع احداث غريبة .. كانوا يمضون خلال بلاد مضطربة ، وخلال مناطق تسيطر عليها عصابات مسلحة ،

مارين بقرى أخمدت قلاقلها منذ عهد قريب . وكان القطار يقف فى غير محطات — فى وسط الفضاء — لتصعد إليه ثلة من رجال الأمن ، تفحص أوراق الركاب وأمتعتهم .

وفى ذات مرة ، وقف القطار بالليل . ولم يصعد إليه احد ، ولا أيقظ وقوفه احداً .. وتساءل يورى عما إذا كان ثمة حادث ، وخرج يتبين جلية الأمر .

كان الظلام مسيطرا . ولاح أن القطار وقف — لغير ما سبب — فى بقعة عادية ، تحف فيها اشجار الشربين بالخط الحديدى . وقال ركاب آخرون — كانوا قد هبطوا وراحوا يدقون الجليد بأقدامهم — إنه لم يكن ثمة سوء ، وإنما رفض السائق أن يمضى قائلا إن تلك المنطقة كانت محفوفة بالأخطار ، ولا بد من أن تكشف أولا ، على « الترولى » . ولقد ذهب مندوبون يتحدثون بلسان الركاب ، ليجادلوه ، ولكى يدفئوا يده(١) إذا استدعى الأمر ذلك . كما أن بعض البحارة ساهموا معهم فى المحاولة ، وهم خليقون بأن يفرضوا إرادتهم بلا ريب .

وكانت الأنوار تسلط — من آن إلى آخر — على الجليد الممتد أمام القطار ، منعكسة عن «كشافات» القطار القوية ، أو عن وهج الفحم فى مرجله ، فتبدو كأنها اضواء صواريخ فى مهرجان .. وعلى هذه الأنوار ، لم تلبث أن تبدت عدة أطياف تجرى صوب مقدم القاطرة . وبدا أن أولها كان السائق ، وقد

(١) اللفظ الأصلى « تزييت » ، وهو عين المعنى الدارج فى اللهجة العامية ، والذى يكنى به عن الرشوة !

بلغ أقصى أطراف القاطرة ، فوثب فوق « طاسات التصادم » ، واختفى فكأنما ابتلعته الأرض ! .. وحذا البحارة — الذين كانوا يلاحقونه — حذوه ، وقفزوا مثله واختفوا ..

وأثار هذا كله فضول كثير من المسافرين ، وبينهم يورى ، فسعوا ليروا ما كان يجرى .. وبعد « طاسات التصادم » ، حيث امتد الخط الحديدى امامهم ، رأوا منظرا عجبا .. فقد كان الجزء الأعلى من جسم السائق ، يبرز من بركة عميقة فى الجليد — سقط فيها — إلى جانب الطريق البرية المحاذية للخط الحديدى . ووقف مطاردوه فى نصف دائرة حوله ، كصيادين يحيطون بطريدتهم ، وقد غاصوا فى الجليد حتى خصورهم مثله !

وكان السائق يصيح : « شكرا لكم يا رفاق .. إنكم لطيور مجتاحة من طيور النورس حقا(١) ! .. يا له من منظر بديع ، أن يطارد بحارة عاملا ببنادق ! .. كل هذا لأننى قلت إن القطار يجب أن يتوقف عن السير .. ألا اشهدوا — أيها الرفاق المسافرون — ففى وسعكم أن تروا أى مكان هذا ! .. من المحتمل أن يكون فى هذه البقعة أى شقى يفك مسامير القضبان .. ألا اذهبوا إلى الجحيم أيها السفاحون ، أبناء السفاح ، ولتذهب معكم أمهاتكم وجداتكم إذا شئتم ! .. إنما

(١) هذا الوصف أطلقه « جوركى » فى احدى قصصه .. كما أن الثورة بدأت بحركة عصيان قام بها بحارة أسطول (البلطيق) ، فكأنما يسخر السائق من أن الذين أذكوا الثورة هم الذين باتوا يضطهدون من قامت الثورة لانصافهم .

فعلت ذلك من اجلكم ، حتى لا يحيق بكم شر ، وهذا كل
ما لديكم من حمد وعرفان ! .. الا امضوا فى عنفكم ، وارمونى
برصاصكم ! .. ها انذا ، ولن افر من امامكم وإنى لاشهدكم
— ايها الرفاق المسافرون — على ذلك » .

وانبعثت من الجمع اصوات منزعجة ، تهتف بالسائق :
« صه ايها الكهل . إنهم لا يقصدون ذلك .. ولن يدعهم احد
يفعلون .. إنما اقدموا على ذلك ليرهبوك » .. وانبعثت
اصوات اخرى تشجع السائق : « هذا حق يا جافريلكا ..
اصمد فى موقفك ، ودعهم يفعلوا ما يشاءون ! » .

وكان اول ملاح صعد من جوف الجليد ، عملاقا ذا شعر
احمر ، وراس ضخم بدا وجهه — إزاء ضخامته — كما لو كان
رقعة مبسوطة . والتفت إلى الركاب ، فتحدث إليهم بصوت
عميق ، هادىء متئد ، تشوبه لكنة اوكرانية ، وقد بدا شكله
مجافيا للمنظر : « معذرة ! .. فيم كل هذا « الترميدور » ؟[1]
.. حذار ان يصيبكم برد فى هذا الجو ايها المواطنون . إن
الريح قارسة ، فلماذا لا تعودون إلى مقاعدكم ، وتنشدون
الدفء ؟ » .

وتفرق الحشد تدريجا ، بينما سار العملاق إلى السائق
الذى كان ماضيا فى هياجه ، وقال : « لقد اصبت الكفاية من

---

(1) « ترميدور » هو اسم الشهر الحادى عشر فى التقويم الذى وضعته
الثورة الفرنسية فى العام الأول للحكومة الجمهورية .. وقد اصبح رمزا يطلق
على دعاة الفتن والمحرضين على الهياج ، واستخدمه الملاح « ذى الوعى
السياسى » هنا رمزا للهياج ذاته .

التهوس ايها الرفيق السائق . فاخرج من الجليد ، واذك
مراجلك ، وانطلق بقطارك ، وكن يقظا مفتح العينين ! » .

— ١٤ —

● استانف القطار — فى اليوم التالى — سيره فى بطء
شديد ، خوفا من الخروج عن القضبان ، التى كستها الريح
بنثار من الثلج ، والتى لم ينظفها احد . وما لبث ان وقف لدى
حطام محروق ، عديم الحياة ، هو كل ما تبقى من محطة
(كيلمس السفلى) ، التى ظل اسمها يبدو باهتا على واجهتها
المسودة ..

وخلف المحطة كانت ثمة قرية مقفرة ملتفة بالجليد ، وقد
دمرتها النيران هى الأخرى . وكان البيت الأخير منها كتلة من
فحم ،والبيت الملاصق له مهدما ، حيث سقطت الدعامات
الخشبية التى كانت تقوم اركانه .. وفى طول الشارع الذى
تخلل منازل القرية ، تناثرت الزحافات المكسورة ، والأسوار
المحطمة ، وقطع صدئة من المعادن ، وقطع مهشمة من الأثاث
.. وكان السناج يشوه بياض الجليد ، كما بانت خلال برك
من الجليد الذائب رقاع من الأرض السوداء ، اطلت منها كتل
من الخشب نصف محترقة ، تنم عن الجهود التى بذلت
للحصول على الماء لإطفاء الحريق .

على ان المكان لم يكن خاليا من الحياة كما تبدى ، إذ ظلت
به فئة قليلة من الناس . ونهض ناظر المحطة من وسط
الأطلال ، فقفز إليه الموكل بالقطار ، وشرع يتحدث إليه :
« اظن ان حريقا شب فى القرية ، وان المحطة احترقت
خلاله ؟ » .

ـــ نهارك سعيد ، واهلا بك .. اجل ، لقد منينا بحريق حقا ، ولكن هذا لم يكن اسوا ما فى الأمر .

ـــ لست أفقه ما تعنى ..

ـــ خير لك أن لا تحاول !

ـــ ما احسبك تعنى ستريلنيكوف ؟

ـــ بل إياه اعنى !

ـــ عجبا ! لماذا ؟ .. ما الذى فعلتموه ؟

ـــ لم نفعل شيئا ، وإنما جيراننا هم الذين فعلوا .. على اننا عوقبنا فى سورة الغضب . اترى القرية التى هناك ؟ .. إنها قرية (كيلمس السفلى) ، فى إقليم (اوست ـ نيمدينسك) .. كل ما جرى كان من جرائها !

ـــ واى جرم ارتكبه اهلها ؟

ـــ كل الآثام السبعة الكبرى ، فى الواقع .. لقد حلوا لجنة الفلاحين الفقراء فى قريتهم ، وهذا اول الذنوب .. وثانيا ، رفضوا ان يقدموا جيادا للجيش الأحمر .. وتذكر انهم جميعا من الفرسان التتار ! .. وثالثة الأثافى انهم عصوا مرسوم التعبئة .

ـــ آه ، فهمت .. فهمت تماما .. ومن اجل ذلك امطروا بالقنابل .

ـــ طبعا !

ـــ .. من قطار مصفح ؟

ـــ بالطبع !

ـــ أمر جد محزن . على انه ليس من شاننا فى شىء .

ـــ لقد انتهى ، على اية حال . بيد أن الأنباء التى تخصكم ليست طيبة ، هى الأخرى .. فإننى أخشى ان تكونوا مضطرين إلى ان تمكثوا هنا يومين !

ـــ احسبك تمزح ، فإننى اقل فى قطارى مجندين للجبهة .

ـــ لست أمزح البتة . لقد تعرضنا لعاصفة ثلجية اسبوعا باكمله ، ومن ثم فإن ركامات الجليد تغطى الخط ، ولم يكن هناك من يزيلها ، إذ هرب نصف اهل القرية ، وساكلف الباقين بالمهمة ، ولكنهم غير كافين ..

ـــ يا للعنة اللعنات ! .. ترى ما الذى افعله الآن ، بحق الجحيم ؟ !

ـــ سنطهر الخط من الجليد فى فترة مناسبة .

ـــ وما سمك الجليد ؟

ـــ ليس قليلا . إنه متباين الكثافة ، على أن اسوا مناطقه هى التى فى الوسط . وهناك شق على حوالى ميلين ، ولسوف تعانى عنده عناء بكل تاكيد . اما ما بعده ، فقد حجزت الغابة معظم الجليد عن الخط . وعلى الجانبين خلاء ، ومن ثم فإن الريح دفعت عنه قسطا من الركامات .

ـــ يا للجحيم ! يا له من مازق ! .. ساجند الركاب فى العملية .

ـــ هذا ما كنت افكر فيه !

ـــ على اننا يجب ان لا نمس البحارة . ولكن هناك فرقة كاملة من المجندين للعمل ، فضلا عن المسافرين بالمجان . فلدينا ـــ بوجه عام ـــ حوالى سبعمائة .

— هذا اكثر مما نرجو ، وسنبدا بمجرد الحصول على مجارف ، فنحن نعانى نقصا فيها ، وقد ارسلت إلى القرى القريبة انشد مزيدا ، ولن تلبث ان تصل بعد وقت قصير .

— يا إلهى ! .. اى نحس هذا ! .. اتظن اننا سنحصل على شيء منها ؟

— بلا شك . إنهم يقولون إن الكثرة تستولى على المدن ، فما بالك بخط حديدى ! .. لا تحمل هما !

— ١٥ —

● استغرقت إزاحة الجليد عن الخط الحديدى ثلاثة ايام ، وقد اشترك جميع آل جيفاجو — حتى نيوشا — فى العمل . وكانت هذه أحسن أيام ثلاثة فى الرحلة . وكان للمنطقة مظهر مغلق ، محفوف بالأسرار ! .. كان فيها شيء يذكر المرء بثورة « بوجانشيف » — كما رآها بوشكين — وبآسيا البدائية الضارية كما صورها « اكساكوف » . وقد ضاعفت الأطلال من جو الغموض ، وكذلك فعل الفجر المشوب بالشكوك ، الذى تبدى ممن بقى من اهل القرية ، فقد كانوا فى خوف من المخبرين والوشاة ، ومن ثم فإنهم كانوا يتحاشون ركاب القطار ، وكانوا منطوين على انفسهم ، صموتين !

وقسم العاملون إلى فرق ، وجعل المجندون للسخرة بمعزل من الركاب المدنيين . واحيط الموقع بجنود الأمن .

وقسم هذا الجزء من الخط الحديدى إلى قطاعات ، فعينت لكل قطاع فرقة ، واوفدوا جميعا إلى قطاعاتهم ، فشرعوا فى العمل فى وقت واحد . وكانت تلال الثلج بين القطاعات تحجب كل فرقة عن الأخرى ، وقد تركت هذه التلال إلى النهاية .

واخذ العمال يقضون النهار كله فى العراء ، فلا يعودون إلى القطار إلا للنوم . وكان الجو بديعا ، تشوبه لذعة من برودة ، كما كانت النوبات قصيرة ، إذا لم تكن ثمة مجارف كافية للجميع . وهكذا كان العمل مبعث لذة وسرور .

وكان قطاع يورى من الخط الحديدى محوطا بمنظر بديع . فكان الفضاء — من ناحية الشرق — يغوص فى الوادى، ويرتفع ، وكأنه امواج متتابعة حتى الأفق .. على قمة أحد التلال ، كان ثمة بيت معرض لكل الرياح ، من كل اتجاه . ولا بد ان اشجاره كانت تظله من الشمس فى الصيف ، ولكن الصقيع الذى وشاها لم يعد يمكنها من أن تكون للبيت وقاء .

وكان الجليد ينثنى فيحيط بكافة الأركان ، ولكنه لم يقو على ان يخفى تماما مجرى متعرجا لجدول كان يندفع — فى الربيع — هابطا إلى المنخفض الممتد تحت حافة الخط الحديدى، والذى كان — فى تلك الآونة — مليئا بالجليد .

وراح يورى يسائل نفسه : ترى اكان فى البيت اى مخلوق حى ؟ .. او أنه كان خاويا خاليا ، متروكا للخراب ، او مخصصا لإحدى لجان الأراضى ؟ وما الذى جرى للقوم الذين كانوا يعمرونه يوما ويعيشيون فيه ؟ .. هل فروا إلى الخارج، او إنهم هلكوا بأيدى الفلاحين ؟ .. او تراهم كانوا مستأثرين بحب الناس ، ومن ثم سمح لهم بالبقاء فى المنطقة كأخصائيين

فنيين ؟ .. وإذا كانوا قد مكثوا ، فهل ترى « ستريلنيكوف » قد تركهم وشأنهم ، أو انهم قد شاطروا اهل القرية مصيرهم؟

كان المنزل يستهوى فضوله ، ولكنه ظل محتفظا بصمته المفعم بالأسى . ولم تكن الأسئلة مأمونة فى تلك الأيام ، كما انه لم يكن ثمة من يقبل ان يجيب عنها !

وكانت الشمس تلمع على الجليد فى توهج ابيض يبهر الأبصار ، وراح يورى يقتطع شرائح كبيرة من الجليد ، محدثا نثارا ماسيا من الشرر ، كان يذكره بأيام طفولته . فتمثل نفسه فى ساحة دارهم ، وقد ارتدى قلنسوة مدببة موشاة الأطراف ، وقناعا من صوف الغنم الأسود ، مثبتا إلى القلنسوة بمشابك ، وقد شقت فى وبره المجعد فتحتان لعينيه .. وراح — يومئذ — يقتطع الجليد ذا السناء الخاطف للأبصار — تماما كهذا الجليد — على شكل مكعبات، واهرام ، واقماع ، وقلاع، ومدن فى كهوف .. كان للحياة طعم بديع فى تلك الأيام الخالية ، البعيدة .. كان كل شىء متعة مستساغة للعين وللمعدة !

ومع ذلك فقد كان العاملون فى تقطيع الجليد — فى هذه الثلاثة الأيام التى قضوها فى العراء والهواء الطلق — يشعرون هم الآخرون بشعور بهيج يصور لهم أن معداتهم كانت مليئة .. شعور بالشبع العذب . ولا عجب ، فقد كانوا يمنحون فى المساء أرغفة كبيرة من الخبز الطازج الساخن ، الذى لم يكن احد يدرى من اين اتى ، ولا من صاحب الأمر بإحضاره .. وكانت تعلوه قشرة محمصة ، لذيذة ، لامعة ، تختفى فى

الجوانب .. اما فى اسفل الأرغفة ، فكانت تندس وتنفرز ذرات وقطع صغيرة من الفحم !

— ١٦ —

● وشغفوا باطلال المحطة المخربة ، كما يشغف الرحالة بماوى آمن يصادفه اثناء رحلة له فى الجبال التى تكسوها الثلوج . وقد بقيت الأطلال المهدمة فى ذاكرتهم ، بشكلها ، وموقعها ، وكل كبيرة وصغيرة من الضرر الذى حاق بها .

وكانوا يعودون إلى المحطة فى كل مساء عندما تغرب الشمس — وكانت فى غروبها تتوارى دائما خلف نفس الشجرة الضخمة القائمة خارج نافذة عامل التلغراف ، كأنما وفاء منها للماضى وللمكان الذى اعتادت ان تغرب فيه كل يوم ! — وكان جزء من الجدار الخارجى للمحطة قد انهار ، فصدع سقف الحجرة ، ولكن النافذة ظلت قائمة ، وظل الجانب المقابل لها من الغرفة على حاله ، لم يمس بشىء ، فبقى الورق الذى كان يكسو جداره — بلونه الشبيه بلون القهوة — وبقيت المدفأة المبنية بالقرميد ، يحيط بها حاجز مقوس ، ويعلوها غطاء من نحاس .. كما بقيت على الحائط قائمة بأثاث الحجرة ، محوطة بإطار اسود . وكانت الشمس الآفلة تزحف — كما اعتادت ان تفعل قبل النكبة لترتمى على القرميد ، وتلقى على ورق الجدار ضوءا بنيا دافئا ، وتلقى ظل الشجرة على المشجب المثبت إلى الجدار ، فكأنه وشاح امرأة معلق !

وكانت حجرة الانتظار — القائمة فى مؤخرة المبنى — وقد دمرت . ولكن بابها المغلق ظل قائما ، يحمل إعلانا ثبت إليه منذ

الأيام الأولى لثورة فبراير ، أو قبل ذلك بقليل ، وقد جاء فيه :

« ارجو ان لا يتضايق — إلى حين — الركاب الذين بحاجة إلى ادوية او ضمادات . فإننى احكم إغلاق هذا الباب ، لأسباب لا تخفى .. وهذا إعلان للتنبيه إلى ذلك .

توقيع : الملاحظ الطبى
لمنطقة (اوست — نامدينسك)

وعندما ازيلت تلال الجليد التى كانت تفصل بين قطاعات الخط الحديدى اخيرا ، اصبح الخط يبدو ممتدا إلى بعد شاسع ، فى استقامة السهم . وكانت كثبان الجليد المزاح تلمع متألقة على جانبى الخط ، وقد ازداد بياضها نصوعا بالقياس إلى سواد الغابة التى كانت تقوم كالسياج .

وعلى مسافات متساوية — على طول الخط الحديدى — وقفت جماعات الرجال مزودة بالمجارف .. وإذ راى كل فريق سواه ، دهشوا إذ تبينوا كثرتهم !

— ١٧ —

● ومع ان الوقت كان متأخرا ، والظلام يوشك ان يهبط ، إلا انه كان من المنتظر ان يتحرك القطار بعد سويعات مستأنفا رحلته . وخرج يورى وتونيا ليستمتعا برؤية الخط ثانية ، بعد إذ تم رفع الجليد عنه .. ولم يكن قد بقى مخلوق على الخط ، فسرحا بصريهما نحو الأفق ، وتبادلا بضع كلمات ، ثم ارتدا على اعقابهما .

وفى الطريق إلى عربتهما ، سمعا اصوات امراتين تتشاجران فى حدة ، فعرفا من الأصوات ان المتشاجرين هما :

اوجريسكوفا ، وتياجونوفا . وكانتا تسيران فى الاتجاه الذى كان يتخذه يورى وتونيا ، ولكن فى الجانب الآخر من القطار ، وقد حجبهما خط العربات الذى كان يبدو وكأنه لا ينتهى . ولاح أن المراتين لم تكونا تحاذيان يورى وتونيا قط ، بل كانتا تسبقانهما او تتأخران عنهما دائما .

وكان من الواضح أن الانفعال استبد بهما ، حتى اوهن قواهما .. ونمت الطريقة التى كانت اصواتهما ترتفع بها إلى درجة الصراخ ، ثم تهبط وتخفت فتتحول إلى همس ، ان سيقانهما كانت تأبى أن تحملهما ، او انهما كانتا تتعثران وتستقطان على كسف الجليد . ولاح أن تياجونوفا كانت تسير وراء اوجريسكوفا وتنهال عليها بقبضتيها كلما لحقت بها .. وراحت ترميها بكل اسم خطر ببالها ، فإذا صوتها الرخيم العذب يبدى سبابها اشد اقذاعا وقبحا مما هو ، بمراحل لا نهاية لها .. وكان يتحشرج فيصبح اشد خشونة من صوت رجل يصخب ويلعن ! .. كانت تصيح : «ايتها المومس .. ايتها العاهر التى تجر ذيلها . لا اكاد اتحرك قيد بوصة دون ان اراك تختالين وتتمايلين . الم يكفك رجلى الكهل ، فأبيت إلا ان تتغامزى لاجتذاب طفل رضيع ؟ » .

— إذن ففاسيا زوجك الشرعى ، هو الآخر .. اليس كذلك ؟ .. يا لها من نكتة بديعة !

— سامنحك زوجا شرعيا ايتها القذرة الموبوءة ! .. لسوف اقتلك إذا تفوهت بكلمة اخرى من فمك القذر !

— وبعد ؟ .. استبقى قبضتيك لنفسك . ما الذى تريدينه بالله ؟

— أريد أن أراك ميتة ، يا مباءة الهوى ، يا قطة مسعورة ، يا فاجرة تجردت من الحياء !

— هذا رأيك فى ، أليس كذلك ؟ .. حسنا ، الواقع أننى لست سوى قطة ، وفاجرة بالقياس إلى سيدة عظيمة مثلك ! .. سيدة جليلة القدر ، ولدت فى حماة ، وتزوجت فى خندق ، ولقحها فأر وقنفذ لتلد برصا !! .. النجدة ، النجدة ، إنها تقتلنى ! إنها تقتلنى !.. انقذوا يتيمة بائسة ، انقذوا فتاة عزلاء مسكينة !

فغذت تونيا السير ، قائلة ليورى : أسرع ، فلست احتمل ان انصت إلى هذا .. إنه يثير الاشمئزاز ! إنهما لن تلبثا أن ترتكبا أمرا شنيعا فعلا ! » .

— ١٨ —

● وتغير الطقس والمنظر دفعة واحدة ، فانتهت السهول ، واخذ الخط الحديدى يتلوى صاعدا فى التلال والهضاب ، فى منطقة جبلية . وتراجعت ريح الشمال التى تهب بلا انقطاع ، وهبت من الجنوب ريح ساخنة ، كأنما انبعثت من فرن .

وفى هذه المنطقة ، كانت الغابات تنمو على ربوات تبرز عن جوانب السفوح ، وكأن الخط الحديدى حين يمتد خلالها ، يضطر القطار إلى أن يمضى مصعدا فوق التل — بانحناء خطير — حتى يصل إلى وسط الغابة ، ثم ينحدر فى شدة .. وكان يئز وينفث الدخان وهو يشق طريقه إلى الغابة ، لا يكاد يقوى على جر نفسه ، وكأنه حارس طاعن فى السن — من

حراس الغابة — يسير فى المقدمة ، ليقود المسافرين الذين كانوا يميلون برؤوسهم من جانب إلى آخر ، ليروا ما كان فى الوسع أن يرى .. ولكن ما من شىء كان يرى فى تلك المرحلة، إذ كانت الغابات لا تزال مستغرقة فى نعاس الشتاء وطمأنينته، فلا شىء إلا أن يتحرك غصن — هنا أو هناك — فينطلق متحررا من عبء الجليد الجاثم ، وكأنه يخلص نفسه من طوق .

وتغلب النعاس على يورى ، فظل طيلة هذه الأيام مستلقيا فى سريره ، وينام ويستيقظ ، ويفكر وينصت .. ولكن ما من شىء يستحق السمع كان يتناهى إلى أذنيه ..

— ١٩ —

● وبينما كان يورى ينام ملء جفنيه ، كان الربيع يبث الدفء ، ويذيب كل تلك الكميات الهائلة من الجليد ، التى حطت على روسيا .. كل ذلك الجليد الذى هبط على موسكو يوم غادروها ، وظل يتزايد طيلة الوقت ، منذ ذلك الحين .. كل ذاك الجليد الذى قضوا ثلاثة أيام ليزيحوه عن الخط الحديدى .. كل تلك الطبقة السميكة ، العميقة ، من الجليد ، التى امتدت إلى أقصى مرامى البصر ، فى المسافات الشاسعة .. فى السهل والجبل .

وكان الجليد يذوب — بادىء الأمر — فى هدوء وخفية ، من الداخل .. ولكن ما إن تم نصف عملية الذوبان الجبارة ، حتى أصبح من العسير إخفاؤه ، وتجلت المعجزة للأنظار ، فانبثقت المياه مندفعة من تحت السطح ، فى خرير منغوم ،

عال .. وسرت حركة فى أعمق أعماق الغابة ، حيث لا سبيل لأحد إلى الوصول .. واستيقظ كل شىء فيها .

وكان ثمة مجال واسع للمياه تمرح فيه ، فكانت تلقى بنفسها على الصخور من عل ، وتملأ كل بركة حتى تفيض وتنتشر .. وكانت تهدر ، وينبعث منها فى الغابة دخان وبخار ، ثم تغوص فى الجليد فيعوق حراكها ، وترسل نحيحا إذا ما احتكت بسطح الأرض ، أو هوت من عل متبددة فى نثار مصحوب بغبار .. وارتوت الأرض .. واشرأبت أشجار الصنوبر العتيقة ، متطاولة إلى ارتفاعات يدور الرأس إذا حاول الوصول إلى قممها ، حتى تكاد تشرب القطر من السحب ، بينما كانت تبعث — عند جذورها — زبدا أبيض تشوبه دكنة أشبه بلون الصدا ، أو كأنه زبد البيرة على شارب رجل منهوم ظامىء .

وسكرت السماء بالربيع ، وانتشت بأبخرته ، وأثقلت بالسحب .. وكانت السحب المنخفضة تخيم على المرتفعات كأنها لباد ، وتمخرعباب السماء فوق الغابات ، والمطر يتوائب منها دائما ، عبقا بعبير التربة ، عذبا .. يمحو عن الأرض درعها من الثلج الأسود !

واستيقظ يورى ، فتمطى ، ورفع جسده على مرفقيه ، وأرسل بصره ، وأرهف سمعه !

— ٢٠ —

● وإذ اقتربوا من منطقة المناجم ، ازداد عدد الدساكر والأماكن المعمورة ، وقصرت المسافات التى كان القطار

يقطعها ، إذ ازدادت محطات الوقوف ، وكثر عدد الذين كانوا يصعدون إليه أو يغادرونه فى المحطات الصغيرة . وبدلا من أن يركن إلى النوم أولئك الذين لم تكن أمامهم سوى مسافة قصيرة ، فإنهم كانوا يبحثون لأنفسهم عن مقاعد بالقرب من الأبواب ، أو فى منتصف العربة ، ثم يجلسون ويندمجون فى حديث خافت عن مسائل محلية لا يفهمها سواهم .

ومن العبارات العابرة التى كانت تفلت من أفواه هؤلاء القوم من أهل المنطقة — خلال الأيام الثلاثة السالفة — أدرك يورى أن المنطقة التى يمرون بها كانت فيها كفة البيض هى الراجحة فى القتال ، وإنهم استولوا على ديورياتين ، أو أوشكو .. وإن قوات البيض كانت بقيادة جاليولين ، الذى رآه لآخر مرة فى (مليوزييفو) ، اللهم إلا أن يكون قد أخطأ التقاط الاسم ، أو أن لصديقه القديم قرينا فى الاسم !

ولم يشأ أن يقول شيئا لأسرته — إلى حين — رغبة منه فى أن لا يثير انزعاجهم ..

— ٢١ —

● استيقظ « يورى » فى الساعات الأولى من الليل ، وقد أفعمت نفسه بسعادة مبهمة ، بلغ من طغيانها أنها أيقظته . وكان القطار واقفا لا يريم حراكا ، والمحطة تسبح فى العتمة الخفيفة المشرقة التى ترافق الأمسيات البيضاء[1] . كان فى تلك العتمة الوضاءة (!) شىء يوحى بالفضاء الرحب ،

---

(١) أمسيات يشيع فيها سناء يخفف من ظلمتها .

وكأنما كانت المحطة تجثم عالية فـوق ذروة سلسلة جبلية .
وكان ثمة اناس يسيرون على الرصيف ، مارين بالعربات ،
وهم يتكلمون بأصوات خافتة .. يسيرون بخطى خفيفة وكأنهم
اشباح . وتأثر يورى لهذه المراعاة لراحة المسافرين النائمين
.. المراعاة التى كانت من شيم ما قبل الحرب ! .. على انه
اخطأ الحدس فى الواقع ، فقد كان على هذا الرصيف ما على
سواه من جلبة ، وصياح ، ووقع اقدام ثقيلـة تدق الأرض .
ولكن كان ثمة شـلال مائى على مقربـة ، فوسـعت قوتـه
وانطلاقه من رقعة الليل المترامية الأطراف ، وهذا ما ملأ نفس
« يورى » سعادة اثناء نومه .

وكان خرير الماء المنصب ، الذى لم يكن ينقطع ، يطغى
على كل ما عداه من اصوات ، فيوهم السـامع بالهدوء . ولم
يلبث « يورى » ان راح فى سـبات عميق وقد هدأ الخرير
بأعصابه ، وسرى عنه ..

وكان ثمة رجلان يتحدثان تحت سريره :

ـ وبعد ، ترى هل « لووا ذيولهم » ؟ .. هل رانوا إلى
الهدوء الآن ؟

ـ اتعنى اصحاب المتاجر ؟

ـ اجل .. تجار الغلال .

ـ الذى يتغـذى الشـعب من ايديهم ! .. ما إن دقت
رقاب فئة قليلة منهم ، ليكونـوا عبرة لسواهم ، حتى اصبح
الآخرون فى وجود الذهب وصفائه . وقد فرضت عقوبة مالية
غرامة) على المنطقة !

ـ وما مقدارها ؟ ـ اربعون الف كيل .

ـ ما اشبه الأمر بالقصص !

ـ ولماذا ترانى اكذب عليك ؟

ـ اربعون الف كيل ؟ !

ـ اربعون الف كيل من الحنطة !

ـ تلك كانت فكرة بارعة !

ـ اربعون الف كيل من اجود حنطة الارض !

ـ حسـنا ، وبعد ؟ .. تربة خصـبة ، والمنطقة من
احسن مناطق الاتجار فى الحنطة . فمن هذه البقعة فصاعدا ،
على طول نهر (رينفا) إلى ان تصـل إلى « يورياتين » ، تجد
قرية بعد قرية ، وميناء للغلال بعد ميناء ، وتاجرا للجملة بعد
آخر !

ـ لا ترفع صوتك وإلا ايقظت الناس !

فقال الآخر متثائبا : « حسنا ! » .

ـ ما رايك فى ان نحظى بقسـط من النـوم ؟ .. كأنى
بالقطار يتحرك .

على ان القطار ظل ساكنا حيث كان . وإنما كان الضجيج
منبعثا من قطار آخر أخذ يدنو من خلف بسرعة . وانفجر منه
زئير يصم الآذان ، ويطغى على صوت خرير مسقط المياه وكلما
ازداد اقترابا .. وما لبث ان مر على الخط الحديدى الموازى ،
وكان قطارا من الطراز القديم ، فأرسل صفيرا طويلا ، وأخذ
الضوء الذى فى مؤخرته يومض ، ثم اختفى فى الأفق البعيد .

ـ هـذه حال سيئة . لا يعلم سوى الله متى نعـاود
السفر .

— اجل ، فلن يكون هذا فى القريب العاجل .

— إنه قطار مصفح خاص .. لا بد ان فيه « ستريلنيكوف » !

— اجل ، لا بد انه هو .

— إنه لوحش كاسر ، إذا قيس بخصوم الثورة !

— إنه يطارد « جالييف » .

— ومن يكون هذا ؟

— « هيتمان جالييف » . يقولون إنه خارج (بورياتين) ، مع قوة تشيكية تحميه . وقد استولى على المرافىء ، ومحصول اللفت الفاسد . وهو رابض فى موقفه .. هيتمان جالييف !

— لم اسمع باسمه إطلاقا !

— او لعله الأمير « جاليلييف » . لست اتذكر الاسم تماما .

— ليس هناك شخص بهذا الاسم . لا بد انه « على قربان » ، وقد اختلط عليك الاسم .

— ربما كان « قربان » . — هذا اكثر احتمالا !

— ٢٢ —

● استيقظ « يورى » مرة اخرى حوالى الصبح ، وقد حظى بحلم آخر سار ، وظل الشعور بالاغتباط والانطلاق يلازمه . وكان القطار لا يزال واقفا ، ساكنا . ولعلها كانت عين المحطة السابقة ، ولكن من المحتمل ـ كذلك ـ انها كانت محطة اخرى . وكان خرير الشلال لا يزال مسموعا .. ولعله

كان شلالا آخر ، ولكن من المحتمل كذلك انه كان عين الشلال الاول !

وعاد إلى النوم ثانية لتوه . وفيما كان يغفو ، سمع — وهو بين اليقظة والنعاس — وقع اقدام تجرى ، وجلبة وهرجا . وكان « كوستويد » يتشاجر مع قائد القافلة ، وقد راح كل منهما يصرخ فى وجه الآخر . وكان الهواء عليلا ، أبدع من ذى قبل . كان يحمل فى اطوائه عبير شىء جديد ، شىء لم يكن موجودا من قبل ، شىء خرافى يرتبط بالربيع ، واللون الأبيض ، والسمرة ، واللامادية .. وقد تناثر مثل نتف الثلج فى شهر مايو ، عند ما تتساقط الكسف وهى تذوب ، فترتطم بالأرض متهشمة ، ويتحول لونها إلى سمرة لا إلى بياض .. وقال يورى لنفسه فى منامه : « شفاف ، ابيض ضارب إلى السمرة ، عذب العبير .. كأنه كريز العصافير ! » .

— ٢٣ —

● وقالت له تونيا فى الصباح التالى : « إنك غريب الطباع فى الواقع يا يورى ! .. إنك كتلة من المتناقضات : فاحيانا توقظك ذبابة ، فلا يعود لك من سبيل إلى استئناف النوم ، حتى الصباح .. وها انتذا هنا تنام وسط كل هذا الصخب ، حتى إننى لم استطع أن اوقظك ! .. لقد هرب « بريتولييف » و « فاسيا » . تصور هذا ! .. وكذلك تياجونوفا واوجريسكوفا ! .. هل بوسعك ان تتصور امرا كهذا ؟ .. مهلا ، فليس هذا كل شىء . لقد هرب فورونيوك ايضا . إنها الحقيقة . صدقنى إذا قلت إنه هرب ! ثم اصغ إلى : كيف

تمكنوا من الهرب ، وهل كانوا معا ، او كانوا فرادى ، ومن الذى سبق سواه ؟ .. هذا كله لغز غامض كل الغموض ! .. إن بوسعى أن افهم امر فورونيوك طبعا ، فما هو ان اكتشف فرار الآخرين ، حتى اصبح مضطرا إلى أن يسعى للنجاة بجلده . ولكن ، ما امر الباقين ؟ .. هل اختفوا بمحض إرادتهم حقا ، او أن شخصا ما قد اختطفهم وفر بهم ؟ .. وإذا كان ثمة شك فى امر المراتين مثلا ، فهل ترى تياجونوفا قد قتلت اوجريسكوفا ، او ان هذه هى التى قتلت تلك ؟ .. لقد راح قائد فرقة المجندين للعمل يجرى من اول القطار إلى آخره كالمجنون ، وهو يصرخ : « لن ادعكم تأمرون بتحرك القطار . إننى آمركم — باسم القانون — أن لا تتحركوا حتى القى القبض على السجناء ! » . فصرخ قائد القطار ، ردا عليه : « إننى انقل جنودا للجبهة ، ولن انتظر رجالك المليئين بالقمل ! .. لن انتظرهم ، ولو فى المنام ! » . ومن عجب ان هرع الاثنان إلى كوستويد يوبخانه ، قائلين : « إنك من النقابيين ، وانت رجل متعلم ، فكيف تجلس وتدع جنديا بسيطا ، جاهلا ، ابن حرام ، يتصرف بمثل هذا الاستهتار ؟ .. ومع ذلك تزعم انك شعبى(١) ! » فصب كوستويد على راسيهما كل ما فى نفسه ، وراح يقول : « إنه لأمر طريف ! .. كانى بالسجين مسئول عن مراقبة حارسه ، اليس كذلك ؟ .. جميل وعين الحق ! لقد جاء اليوم الذى سنسمع فيه الدجاجات

---

(١) الشعبيون هم اليساريون الذين كانوا يتزمتون فى التشبث بالمبادىء ، وقد كرسوا انفسهم « للعمل بين الشعب » .

تصيح بدلا من الديوك ! .. ولقد رحت اهزك بكل ما فى من قوة ، وانا اقول : « يورا ، استيقظ ! .. لقد حدث فرار ! » . ولكن كل جهد بذلته لم يجد نفعا . ولو أن بندقية انطلقت بجوار اذنك لما سمعتها .. ولكنى سأنبئك بالمزيد ، فيما بعد .. آه ، الا انظروا ! .. انظر يا ابى ، وانظر يا يورى .. ما ابدع هذا ! » .

وخلال الثغرة التى كانت فى النافذة — والتى خلفها غياب لوح من الزجاج — رأوا الريف تغطيه فيضانات الربيع من اوله إلى آخره . إذ طغى نهر ما — فى مكان ما — فحطم ضفتيه ، وانطلق الماء حتى بلغ الخط الحديدى . واستحال لون الماء ، هنا وهناك ، إلى زرقة المعدن . وكانت شمس الصباح ترسل على بقية سطحه اضواء ناعمة ، براقة ، فى خفة وميوعة الزبد المنصهر إذا ما راح الطاهى يمسحه بريشة على سطح فطيرة محمرة !

وفى هذا الفيضان الذى لم تكن له شطآن ، غاصت اعمدة من السحب البيضاء ، وقد ذابت اطرافها فى الحقول ، والمنخفضات ، والاحراش . وفى وسط هذا الطوفان ، كانت ثمة رقعة ضيقة ، طويلة ، من الارض ، تحمل صفا من الأشجار التى تضاعف عددها إذ انعكست صورتها على الماء ، وبدت معلقة بين الأرض والسماء !

وقال الكسندر الكسندروفيتش : « انظروا .. هذه اسرة من البط ! » .

— اين ؟

— بالقرب من الجزيرة . إلى اليمن . يا للخسـارة ، لقد طارت ! .. لقد اخفناها !

فقال يورى : « اجل ، ها انذا اراها الآن . لابد لى من ان اتحدث إليك يا الكسندر الكسندروفيتش ، فى وقت ما .. فى اى وقت آخر .. ومهما يكن الأمر ، فإننى جـد مسرور لان المجندين والمراتين قـد حزموا امرهم وفروا . وإنى لموقن من انه لم يحدث اى اغتيال . كل ما هنالك انهم فروا .. انطلقوا كهذا المـاء ! » .

— ٢٤ —

● أوشكت الليلة البيضاء على نهايتها . وكان كل شىء واضحا للأبصار : الجبال ، والغابة ، والأخدود الذى شـقه الماء .. ولكنها كلها كانت تبدو كأطياف مترددة ، وكانها لا تؤمن بوجودها .. بل كانها لا تقوم إلا فى قصة خرافية !

وكانت الغـابة — التى ضمت عددا من اشـجار كريز العصافير نبتت براعمهـا — قد بدات تكتسى بالأوراق ، وهى تنمو تحت هضبة مقوسة ، على لسان ضيق من الأرض كان ينتهى ، بدوره ، بهاوية . ولم يكن المسقط المائى يبدو للعين إلا من حافة الأخدود الممتد خلف الغابة ، على بعد غير كبير . وكان « فاسيا برايكين » — المجند الهارب — قد اسـتبد به الفرح والخوف ، وهو يطيل النظر إليـه .. لم يكن ثمـة ما يضارع الشلال فى المنطقة المحيطة به . كان فريدا فى نوعه ، وهذا ما جعله رهيبا باعثا على الخـوف ، واحاله إلى كائن أوتى نعمة الحياة والوعى .. كائن لعله التنين ، او الثعبان

المجنح المعروف فى تلك البطاح ، والذى كان يفرض الجزية ، ويعيث فى تلك الأرض فسادا !

وكان المسقط المائى يرتطم بصخرة حادة ، فى منتصـف مهبطه ، فينشـطر إلى فرعين . وكان الجزء الأعلى يبدو وكأنه عديم الحركة ، اما الفرعان — اسـفل الصـخرة — فكانا يتارجحان قليلا ، من جانب إلى آخـر ، وكانمـا كان المـاء المتساقط ينزلق فيسارع إلى تدارك ذاته ، فهو يهتز ولكنـه لا ينى يحتفظ بتوازنه .

وكان «فاسيا» قد بسط معطفه المصنوع من فراء الغنم على الأرض ، واستلقى فوقه على حافة الغابة . فلما ازداد ضوء النهار وضوحا ، حلق طائر ضخم ، هابطا من الجبل ، مرفرفا بجناحيـه الثقيلين ، وحوم بسرعـة فى دائرة احاطت بالغابة ، ثم استقر على شجرة من اشجار الصنوبر قريبة من المكان الذى استلقى فاسيا فيه .. وتطلع الشاب مبهورا إلى رقبة الطائر ، وكانت داكنـة الزرقة ، وإلى صـدره الأزرق المغبر ، ثم همس مرددا الاسم الذى كان هذا الطائر معروفا به فى جبال أورال : « رونجا » . ومـا لبث أن نهض فالتقط معطفه والقاه على كتفيه ، وعبر البقعة الفسيحة ، ليتحدث إلى زميلته قائلا : « هيا ايتها العمة بوليا ! .. يالله ، ما ابرد جسمك ! .. إننى اكاد اسمع اسـنانك تصطك من شـدة البرد . ما الذى تحملقين فيه ، ولمـاذا يبدو عليك كل هـذا الذعر ؟ .. لقد آن لنا ان ننطلق . اتسمعين ؟ لا بد لنا من ان نصل إلى إحدى القرى . فكرى فى الأمر ! .. إنهم سيوفرون لنا مخبأ ، ولن يؤذوا بنى جلدتهم . إننـا لم نتبلغ بزاد منـذ

يومين ، ولسوف نموت إذا مكثنا هنا . لابد ان العم فورونيوك قد اثار ضجة فظيعة ، ولعلهم يفتشون عنا الآن ! .. لا بد لنا من مواصلة السير يا عمتاه ، بل — إذا شئت الصراحة — يجب علينا ان نجرى جريا . إننى لا أدرى ماذا أفعل لك أيتها العمة ، فقد مكثت يومين لا تنبسين بكلمة واحدة . إنك تحملين نفسك من الهم فوق ما ينبغى ، والله ! .. ما الذى يشقيك إلى هذا الحد ؟ .. إنك لم تكونى تتعمدين أن تدفعى العمة كاتى فتلقى بها من القطار . لا ، إنك لم تدفعى كاتى اوجريسكونا ، وإنما اصطدمت بها جنبا لجنب عفوا ، فحسب .. لقد رايتكما ! .. ثم إنها تمالكت نفسها فسقطت على العشب — وقد ابصرت بها ، بعينى هاتين — ونهضت ، وراحت تعدو . ومن المؤكد انها لن تلبث ان تلحق بنا مع العم بريتولبيف ، فيلتئم شملنا جميعا ، مرة اخرى . أن أهم ما فى الأمر هو أن تكفى عن الحزن والهم ، وإذ ذاك سينطلق لسانك ثانية ! » .

ونهضت تياجونوفا ، فامسكت بيد فاسيا ، وقالت بصوت خافت : « هيا يا عزيزى ! » .

— ٢٥ —

● راحت عربات القطار تصعد التل المنحدر ، واخشابها تلز وتئن . وكان ثمة دغل اسفل الخط الحديدى ، لا تكاد قمم اشجاره ان تبلغ مستوى القضبان . وفى مستوى أكثر انخفاضا ، كانت ثمة حقول . وكانت السيول قد انحسرت لتوها ، مخلفة رمالا وقطعا من الخشب مبعثرة فى غير اعتناء .



وكان « فاسيا » قد بسط معطفه المصنوع من فراء الغنم على الأرض ، واستلقى فوقه على حافة الغابة ..

ولا بد أن الكتل الخشبية كانت قد اجترفت من مكان عال ، فوق التل ، حيث كانت قد اقتطعت من قبل .

اما الحرش ذو الأشجار الحديثة النمو ، تحت الخط الحديدى ، فكان لا يزال مجردا من الأوراق تقريبا ، وكأنه فى فصل الشتاء .. بل ان البراعم التى تناثرت على الأشجار كالشموع الصغيرة ، وكانت تبدو غير متناسقة مع المنظر ، وكأنها زينة مصطنعة فى غير عناية .. أو لعلها تورمات احدثتها الأوساخ أو الالتهابات ! على ان كل هذه الزينة القذرة ، المصطنعة ، غير المتناسقة ، كانت من علامات الحياة التى سرت فى معظم الأشجار ، تضرمها بلهب من الأوراق الخضراء !!

وهنا وهناك ، كانت تقوم شجرة من أشجار الشربين ، مستشهدة وقد غرست فيها الأوراق الوليدة ، التى لم تتفتح تماما ، اسنانها وسهامها . وكنت تشم عبيرها بمجرد النظر إليها . وكان يفوح منها عبير « القلفونية » التى تستخدم فى صنع الطلاء اللامع « اللاكيه » . وما لبث القطار أن بلغ المستوى الذى لا بد أن الكتل الخشبية قد جرفت منه ، تحت وطأة السيل . وتجلى للبصر فراغ خلال الغابة ، عند انحناء طريق القطار ، وقد تناثرت فيه شظايا الخشب ، واستقرت فى وسطه كومة من الكتل الخشبية الكبيرة . وتوقفت القاطرة فجأة ، فارتجف القطار ثم وقف فى البقعة التى بلغها من السفح المقوس للتل ، منحنيا قليلا إلى الخارج . وانبعثت من صافرة القاطرة بضع صرخات وعواءات ، ولكن المسافرين لم

يكونوا بحاجة إلى هذه الاشارات ليعرفوا أن القطار قد وقف ليتزود بوقود .

وانزلقت الأبواب مفتوحة ، وتدفق خلالها جمع يكاد يعادل سكان بلدة صغيرة ، فلم يمكث فى عرباتهم غير الملاحين ، إذ كانوا معفون من كل ما يتعب ! .. ولم يكن فى البقعة الفضاء من الأخشاب الصغيرة ما يكفى لملء مخزن الوقود ، مما دعا إلى تقطيع بعض الكتل الخشبية الكبيرة إلى الحجم المناسب . وكان لدى السائق ومساعده بعض المناشير بين معداتهما ، فقدماها إلى المتطوعين ، منشارا لكل رجلين .. وكان « يورى » وحموه بين هؤلاء المتطوعين .

واطل الملاحون برؤوسهم خلال ابواب عربتهم ، وهم يبتسمون تشفيا . كان المتطوعون خليطا من عمال فى أوسط العمر فرغوا لتوهم من التدريب الذى اتيح لهم بحكم الظروف الطارئة ، وفتيان قد بارحوا الكلية البحرية لتوهم ايضا ، وقد بدوا وكأنهم دفعوا خطأ وسط الملاحين المتوسطى العمر ، الذين كانوا من آباء الأسرات وأربابها ، والذين راحوا يتمازحون ويعرضون حماقاتهم على مرأى من الملاحين الذين يكبرونهم ، ليشغلوا انفسهم عن التفكير . إذ كانوا جميعا يدركون أن ساعة محنتهم قد دنت !

ولاحقت النكات والسخريات فرق العمال : « هاى ، ايها الجد ! .. لست احجم عن العمل ، ولكننى لا ازال صغير

السن ، وإن مربيتى لتأبى أن تدعنى أعمل ! » .. « هاى ، يا مارتا ! .. حذارى أن تشقى بالمنشار ثوبك ، وإلا أصبت ببرد ! » .. « هاى ، أيتها الفتاة .. لا تذهبى إلى الغابة ، بل تعالى ولنتزوج ، بدلا من ذلك ! » .

- ٢٦ -

● وكانت ثمة كتل خشبية عديدة فى البقعة الخلاء ، فذهب يورى والكسندر الكسندرفيتش إلى احداها ، وشرعا ينشرانها ..

وكانت تلك هى الفترة من الربيع التى تتبدى فيها الأرض للانتظار ، على نفس الصورة التى كانت عليها قبل أن يسجنها الجليد ، منذ ستة أشهر . وكانت الغابة ترزح تحت رائحة الرطوبة ، وقد امتلأت باكوام من أوراق العام الماضى ، وكأنها حجرة كان أهلها يمزقون فيها رسائل ، و «فواتير» وإيصالات ظلت متراكمة على مر السنين !

وقال يورى وهو يدفع المنشار بحركة ابطأ — واكثر انتظاما — مما كان يصدر عن حميه : « لا تسرع بهذا الشكل ، وإلا انهكت قواك .. ما رايك فى قسط من الراحة ؟ » . وكان الخشب يردد الرنين الأجش الصادر عن المناشير وهى تشقه . وفى مكان ما ، جد بعيد ، كان ثمة كروان يجرب صوته . وعلى فترات أطول ، كان ثمة عصفور يرسل صفيرا

كأنه أنفاس تطرد التراب من جوف مزمار .. بينما كانت القاطرة تنفث البخار فيتصاعد إلى السماء فى موجات ، وكأنه لبن يغلى على موقد يشعل بالكحول ، فى غرفة رضيع !

وتساءل الكسندر الكسندروفيتش : « ما الذى كنت تبغى أن تحدثنى بصدده ؟ .. هل تتذكر قولك — عندما كنا نمر بالجزيرة التى طار البط عندها — إنك كنت ترغب فى أن تتحدث إلى فى فرصة قريبة ؟ » .

آه ، أجل .. الواقع اننى لا أدرى كيف أوجز الأمر : لقد كنت افكر فى أننا نوغل باستمرار فى منطقة كلها قلاقل واضطرابات . ولسنا ندرى ما الذى سنجده إذا ما وصلنا إلى مراكز الغليان . ومن ثم ، فلعل من الجدير بنا أن نبحث الأمر ، لنكون على استعداد إذا دعت الحاجة . لست أرمى بذلك إلى معتقداتنا ، فليس بوسع المرء أن يقول الكثير بشأنها فى خمس دقائق ، فى غابة يدب فيها الربيع . ثم إن كلا منا يعرف الآخر تمام المعرفة ، من هذه الناحية . فأنت وأنا وتونيا ، وكثير ممن على شاكلتنا ، نقيم لأنفسنا عالما خاصا ننطوى فيه ، فى هذه الأيام ، وكل ما بيننا من اختلاف يتمثل فى درجة شعورنا بهذا .. إنما الذى أرمى إليه هو أنه قد يكون جديرا بنا أن نتفق مقدما على المسلك الذى نتخذه ، حتى لا نضطر إلى أن يستحى كل منا من الآخر ، أو يتسبب فى إخجاله !

— إننى أدرك ما تعنى ، وارتاح إلى الطريقة التى صغته

فيها . ولسوف انبئك بما ينبغى . هل تتذكر تلك الليلة من ليالى الشتاء ، التى احضرت لى فيها الصحيفة التى نشرت اولى مراسيم الحكومة ، وسط عاصفة ثلجية ؟ . . هل تتذكر كيف كانت تلك المراسيم صريحة ، ومحددة إلى درجة لا يصدقها العقل ؟ . . . تلك كانت العقلية الفردية الصريحة ، التى حاولت أن تتصل بنا . ولكن مثل هذه الأمور لا تحتفظ بنقائها وطهرها إلا فى عقول اولئك الذين فكروا فيها ، وفى اليوم الذى تنشر فيه — لأول مرة — فحسب . وما إن يحين اليوم التالى ، حتى تكون الفتاوى التى تمليها الأحوال السياسية قد قلبتها راسا على عقب ! . . ما الذى املك ان اقوله لك ؟ . . إن نظام الحكم معاد لنا ، وإن فلسفته لغريمة لنا ، غريبة علينا . فأنا لم اسأل عما إذا كنت اقبل كل هذه الانقلابات . بيد اننى اؤتمنت على ثقة ، فاذا تصرفاتى — ولو لم تكن صادرة عن اختيار حر — تجعلنى مقيدا بالتزام معين . . إن تونيا لا تكف عن السؤال عما إذا كنا سنصل فى وقت مناسب لكى نزرع الخضر . ولكننى لا أدرى ، فلست على معرفة بتربة الأورال ولا بجوها . . والصيف قصير إلى درجة لا ارى معها كيف يتسنى لأى شىء ان ينضج فى الوقت المناسب !

« ولكنا — على اية حال — لا نقطع كل هذه المسافة الشاسعة لكى نزرع الخضر ونتسوقها . لا ، بل يجدر بنا ان نواجه الأمور بصراحة ، وان نعترف بأن غايتنا تختلف عن هذا

كل الاختلاف . إننا ذاهبون لكى نحاول أن نعيش وفقا للطريقة الحديثة ، فنأخذ نصيبنا من ثروة جدى الطائلة : ممتلكاته ، ومصانعه ، وآلاته . إننا لا نذهب لكى نعيد بناء ثروته ، ولكننا سنفعل ما يفعله كل شخص آخر — وبعين الطريقة الفوضوية التى يأبى العقل ان يصدقها — فنساهم فى التبديد الجماعى لحطام تلك الثروة ، كى نكسب من القوت ما يعادل « كوبك » . . وليس معنى هذا اننى كنت ارجو ان استرد الضيعة — وفقا للأوضاع القديمة — كهبة . . لا ، ولو اعطيتنى وزنى ذهبا لكى افعل . فان هذا خليق بأن يكون سفها لا يقل عن الشروع فى الجرى عاريا ، او محاولة أن تنسى الحروف الأبجدية . . كلا ، لقد ولى عهد الثروة والملكية فى روسيا ، فضلا عن اننا — آل جروميكو — قد فقدنا شغفنا بالتملك منذ جبل ، على اية حال ! » .

— ٢٧ —

● كان جو العربة ساخنا ، ينضح بالأنفاس والعرق ، بحيث يتعذر على المرء أن ينام . وكانت وسادة يورى مبللة كلها بالعرق ، فلم يلبث ان هبط عن سريره فى حذر — حتى لا يوقظ الآخرين — ودفع ابواب العربة ففتحها .

وهب فى وجهه هواء رطب ، ثقيل ، لزج ، وكأنه كان يسير فى قبو تعمره العناكب . فقال فى نفسه : « رطوبة ! . .

لسوف يكون الغد شديد الحرارة . هذا هو السر فى ركود الهواء وثقله حتى ليكاد يخنق الأنفاس ! » .

وكانت المحطة التى وقف بها القطار كبير ، ولعلها كانت ملتقى خطوط حديدية . وكان ثمة شعور من الخواء ، والنبذ ، والإهمال — إلى جانب الرطوبة وركود الهواء — وكأن القطار قد ضاع وصار نسيا منسيا . ولا بد انه كان يقف فى أقصى ساحة مخزن القطارات ، بعيدا ، حتى ان احدا من ركابه ما كان ليفطن إلى شىء لو ان الأرض انشقت وابتلعت مبنى المحطة !

وكان هناك صوتان يسمعان واهنين ، عن بعد .. ففى الخلف ، من الناحية التى جاء منها القطار ، كان ثمة صوت كذلك الذى يصدر عن الثياب وهى تخض اثناء الغسيل ، او كأنه الريح تصفع علما مثقلا بالليل ، فتضربه بالسارية التى شد إليها . ومن الأمام ، كانت تتناهى أصوات هزيم جعلت «يورى» — بما له من خبرة بالحرب — يرهف اذنيه فى إصغاء ، ثم يقول فى نفسه بعد طول إنصات للصوت الذى كان يتردد عيمقا ، خفيضا ، مكتوما لبعد المسافة : « المدفعية ! » .

وهز راسه وهو يقفز من العربة ، قائلا فى نفسه : « هذه هى الحقيقة . إننا الآن فى الجبهة ذاتها ! » . وسار إلى الأمام بضع خطوات . وبعد عربتين ، انتهى القطار . كانت بقية

العربات قد فصلت واختفت مع القاطرة . وقال فى نفسه مرة اخرى : « إذن فهذا هو السر فى انهم كانوا محبوسين فى عرباتهم بالأمس . كان لديهم شعور بانهم سيلقون بهم فى المعمعة بمجرد وصولهم ! » .

ودار حول العربة الأمامية معتزما ان يعبر الخط الحديدى ، ليبحث عن الجزء الرئيسى من المحطة . ولكن حارسا اعترض طريقه مشهرا بندقية ، وقال بصوت خافت : « إلى اين تذهب ؟ .. الديك جواز مرور ؟ » . فسأله بدوره : « ما هذه المحطة ؟ » .

— لتكن هذه المحطة ما تكون، فما شأنك ؟ .. من انت؟

— انا طبيب من موسكو . إننى واسرتى مسافرون فى هذا القطار . هاك اوراقى ..

— تستطيع ان تحشرها فى .. إننى لست من الغباء بحيث أحاول القراءة فى الظلام . فهناك ضباب ، الا ترى ؟ .. ثم إننى لست بحاجة إلى اية اوراق لأعرف اى نوع من الأطباء انت ! .. كم من اطباء مثلك يطلقون علينا بنادق عيار ١٢ بوصة . إن بوسعى ان أمحو مخك ، ولكن الوقت لا يزال مبكرا لمثل هذا الإجراء .. فارجع من حيث اتيت قبل ان اقضى عليك !

وقال يورى فى نفسه : « إنه يظننى شخصا آخر ! » .

وبدا من الواضح ان لا جدوى من الجدال ، وان من الخير ان ياخذ بنصيحة الحارس قبل ان لا يعود ينفع الندم . ومن ثم فانه نكص على عقبيه ، وسار عائدا . وكانت طلقات المدفع ، المنبعثة من ورائه ، قد انقطعت . وكان الشرق وراءه .. ومن هناك ، كانت الشمس قد بزغت فى غلالة من الضباب ، واخذت تطل فى وجوم خلال الأشباح الطافية ، كأنها رجل عار وسط سحائب من بخار الحمام !

* * *

وسار يورى بطول القطار ، ثم تجاوز العربة الأخيرة ، فأخذت قدماه تغوصان شيئا فشيئا فى رمل ناعم . واصبح الصوت المنتظم الذى يشبه صوت ارتطام الثياب بالماء اثناء غسلها ، اقرب من ذى قبل . واخذت الأرض تشتد انحدارا . ووقف محاولا ان يتبين الأشكال التى كان من العسير تمييزها امامه ، والتى جعلها الضباب تبدو اكبر مما هى . وتقدم خطوة اخرى ، فبرزت له من الظلام هياكل مراكب سودتها العتمة . كان ثمة نهر واسع امامه ، وقد راحت مياهه المتثاقلة ترتطم فى بطء واعياء بجوانب اكواخ الصيادين والواح المراسى المقامة على الشاطىء .

وانتصب امامه جسم ، فاذا بحارس آخر يحمل بندقية ، ويساله : « من الذى اذن لك فى ان تحوم حول هذا المكان ؟ » .

فبادره يورى متسائلا ، رغم انه كان قد عقد العزم على ان لا يوجه اية اسئلة : « اى نهر هذا ؟ » . وكان جواب الحارس ان وضع صافرته فى فمه . بيد ان مقدم الحارس الآخر ، الذى كان يعتزم استدعاءه ، اعفاه من ذلك . فقد ظهر أن الرجل كان يقفو اثر « يورى » دون ان يحدث صوتا . ومن ثم فقد انضم إلى زميله ، ووقفا يتحدثان :

ـ ما من شك فى الأمر ، فبوسعك ان تعرف هذا الصنف من الناس لأول وهلة .. « ما هذه المحطة ؟ » .. « اى نهر هذا ؟ » .. إنه يذر الرماد فى عينيك ! فما رايك ؟ .. هل ناخذه إلى حاجز المياه مباشرة ، او إلى القطار اولا ؟

ـ ارى ان ناخذه إلى القطار ، لنرى ما يقوله الرئيس !

ثم صاح فى يورى : « اين اوراقك ؟ » . وأطبق راحته على الأوراق ، ثم التفت خلفه مناديا شخصا ما ، وهو يقول : « انتبه له ! » . وسار مبتعدا ـ مع الحارس الأول ـ نحو المحطة . وكان الشخص الثالث ، الذى لم يكن يورى قد تبينه قبل ذلك ، من صيادى السمك ، وقد كان مستلقيا على الشاطىء الرملى ، ثم زمجر ، وتحرك ، وشرع يبصر يورى بموقفه : « من حسن حظك انهما سيحملان امرك إلى الرئيس ، فعلل فى ذلك نجاتك . ولكن لا تلمهما ، فإنما هما يؤديان واجبهما ، فان السيادة اليوم للشعب ، ولعل هذا يكون

افضل ، على مر الزمن ، وإن لم يكن ثمة ما يوحى بذلك الآن . لقد اخطأ هذان الحارسان ، كما تستطيع ان تتبين . ذلك لأن القوم يبحثون، ولا يكفون عن البحث طيلة الوقت ، عن شخص معين ، ومن ثم ظنك الحارسان إياه ، وقالا لنفسيهما : « ها هو ذا رجلنا .. ها هو ذا عدو دولة الطبقة العاملة ، لقد عثرنا عليه ! » . غلطة .. هذا كل ما فى الأمر ! .. والذى ينبغى عليك ان تفعله — إذا حدث شىء — هو ان تصر على رؤية الرئيس ، ولا تمكن هذين الحارسين من اية غاية ، فانهما على وعى سياسى . ويا له من نحس ادعو الله ان يعيننا عليه ! .. إنهما قد لا يريان فى القضاء عليك اية غضاضة . فاذا جاءاك وقالا : « هيا معنا !» ، فاحرص على ان لا تذهب، وقل إنك تريد ان تقابل الرئيس ! » .

وعلم يورى من صائد السمك ان ذاك النهر كان المجرى المائى المشهور (ريفنا) ، وان المحطة التى كانت إلى جانب النهر هى المحطة التى يهبط فيها الذاهب إلى (يورياتين) . كذلك علم منه ان من المحتمل أن (يورياتين) — التى كانت على بعد ميلين من المحطة ، فى اتجاه منبع النهر — قد وقعت ثانية فى أيدى البيض ، وان ثمة اضطرابات فى (رازفيليى) يبدو انها قد اخمدت هى الاخرى ، وأن سر السكينة التى تحيط بالمحطة وما جاورها ، يرجع إلى ان المنطقة كلها قد اخليت من المدنيين ، وحرم ارتيادها تحريما باتا . ثم علم يورى — فى

النهاية — أن عربات بعض القطارات اخذت لتستخدم كمراكز لقيادة الجيش ، وأن بين هذه العربات قطار قوميسار الجيش « ستريلنيكوف » ، الذى ذهب الحارسان ليرفعا أمر «يورى» إليه .

وما لبث ان اقبل حارس ثالث من الاتجاه الذى ذهب فيه الآخران ، وكان يمتاز عنهما بانه راح يجرى بندقيته وراءه — ومؤخرتها تحتك بالأرض — او كان يدفعها امامه وكانها زميل يحبو على الأرض فى وضع مقلوب ، مستندا إليه .. وقد اصطحب هذا الحارس « يورى » إلى القوميسار .

— ٢٨ —

● انبعثت اصوات ضحك وحركة من إحدى العربتين المتصلتين اللتين صحب الحارس « يورى » إليهما — بعد ان اعطى كلمة السر للحراس — بيد أن هذه الأصوات انقطعت عند ما اقبل الحارس ويورى على تلك العربة . واقتاد الأول الثانى خلال ردهة ضيقة إلى مقصورة كبيرة واسعة فى وسط العربة . وكانت اشبه بحجرة نظيفة ، وثيرة ، يعمل فيها قوم نظيفو الثياب أنيقوها ، وقد سادهم صمت مطلق . وكانت الفكرة التى خامرت يورى عن « ستريلنيكوف » — الخبير العسكرى غير الحزبى ، ذى الصيت الواسع ، والذى كان فخر المنطقة ومصدر ذعرها — تختلف عما أوحى به ذلك الوسط .

على إنه لم يكن ثمة شك فى ان المركز الحقيقى لنشاطه كان فى مكان آخر ، جد قريب من مركز قيادة اركان الحرب ، ومسرح العمليات الحربية . ومن ثم فلا بد ان المكان الذى ولجه يورى كان مكتبا خاصا ، ومقرا ينام فيه . وكان هذا هو السر فى السكون الذى زاد من شموله ان ارض العربتين كانت مكسوة بالفلين ، وكان العاملون فيها يرتدون نعالا خفيفة لا يصدر عنها صوت اثناء سيرهم .

وكانت العربة التى جعلت إدارة ومكتبا ، عربة طعام فى اصلها ، وقد فرشت ببساط سميك ، وقامت فيها بضعة مكاتب . وقال ضابط شاب كان مكتبه بالقرب من الباب : « لحظة واحدة ! » .واوما برأسه يصرف الحارس ، وهو شارد الذهن ، فخرج هذا . وسمع صوت بندقية وهى ترتطم بالأشرطة المعدنية المثبتة على ارض الردهة الضيقة فى الخارج . وبعد ذلك ، احسّ كل شخص بأن من حقه ان ينسى وجود يورى ، وان لا يعيره اى اهتمام . وابصر يورى ، من موقفه عند المدخل ، اوراقه ملقاة على مكتب فى الركن الأقصى من الحجرة .. وقد جلس إلى المكتب رجل اكبر سنا من الباقين ، وقد بدا كأنه « كولونيل » من الطراز القديم . وكان من خبراء الجيش بالاحصاءات ، وقد راح يغمغم لنفسه بكلمات غير مسموعة ، وهو يتفقد بعض المراجع ، ويدرس خرائط الميدان ، ويحصى ، ويقارن ، ويلصق بعض أشياء فى

سجل خاص . وبعد ان تلفت حوله ملقيا بصره إلى كل نافذة فى المكان ، قال بصوت يسمعه الآخرون : « ستشتد وطأة الحر ! » .. كأنما كان تأمله كل النوافذ هو الذى اوحى إليه بهذا الاستنتاج !

وكان ثمة كهربائى من رجال الجيش يزحف على الأرض ، ليصلح بعض الأسلاك التى انفصلت ، حتى إذا بلغ المكتب المجاور للباب ، نهض الضابط الشاب ليفسح له مكانا . وعلى المائدة المجاورة ، كان ثمة موظف موكل بآلة كاتبة — وقد ارتدى سترة جلدية — منهمكا فى إصلاح آلة كاتبة انزلقت اسطوانتها إلى اقصى احد الجانبين ، ولم تعد تتحرك . فوقف الضابط الشاب عند الآلة ، وراح يفحص الخلل من عل ، دون ان يحنى ظهره ، بينما زحف الكهربائى إلى ما تحت المائدة واخذ يفحص الآلة من اسفل . ونهض « الكولونيل » القديم الطراز فانضم إليهم ، وشغل الأربعة جميعا بالآلة الكاتبة !

وبعث هذا المنظر فى نفس «يورى» شيئا من الاطمئنان ، فلا بد ان هؤلاء القوم كانوا أدرى منه بمصيره ، فما كان من المعقول ان يبدءوا كل هذا الشغل بالتوافه ، فى حضور رجل يدركون انه مقضى عليه بالهلاك ! .. ثم قال فى نفسه : « ومع ذلك ، فمنذا الذى يدرى ؟ .. لماذا يغفلون الاهتمام ، إلى هذا الحد ؟ .. إن المدافع تنطلق ، والناس تموت ، وهم هنا يتنبأون بالحرارة ، وهم مستريحو البال .. يتنبأون بحرارة

الطقس وليس بحرارة المعركة ! .. لعلهم — على كل حال — قد رأوا من الأحداث ما لم يبق على شيء من ارهاف المشاعر لديهم ! » .

ولكي يصرف عينيه عن النظر إليهم ، ارسل بصره عبر الحجرة ، وراح يحملق خلال النافذة المقابلة لمكانه .

— ٢٩ —

● وكان بوسعه ان يرى من مكانه حافة الخطوط الحديدية ، والمحطة التى قامت على التل ، على مستوى اكثر ارتفاعا .. وضاحية (رازفيليى) . وكانت ثمة درجات خشبية ثلاث ، خالية من الطلاء ، تفضى من الرصيف إلى مبنى المحطة . وفى اقصى اطراف الخطوط الحديدية قامت مقبرة للقطارات القديمة : قاطرات بدون خزانات للوقود ، ذات مداخن تشبه « التزلك » ، او تشبه اكواب الماء ، وقد قامت مدخنة تلاصق مدخنة ، وسط اكوام من الفضلات الحديدية .

مقبرة القاطرات فى أسفل ، ومقبرة الآدميين فى اعلى .. وحديد القضبان الملتوى المتراكم ، وحديد السقوف ولافتات الحوانيت ، فى الضاحية ، وقد علاه الصدأ . كل هذا كان يؤلف صورة واحدة للاهمال ، والبلى ، تحت السماء البيضاء التى كأنما لعقت لونها حرارة الصباح الباكر !

وكان يورى ، اثناء إقامته فى موسكو ، قد نسى كم من لافتات الحوانيت ما زالت فى المدن الأخرى ، وكم من واجهات للبنايات كانت تغطيها هذه اللافتات . وكان بعض تلك اللافتات التى لاحت له الآن ، على درجة من الكبر بحيث كان يقرؤها بسهولة من مكانه ، وكانت تمتد إلى أسفل ، على نوافذ منحرفة لبنايات مائلة ذات طابق واحد ، حتى أن البيوت المعوجة الصغيرة كانت تختفى تقريبا وراء تلك اللافتات ، وكأنها وجوه أطفال قرويين توارت خلف حواف قبعات آبائهم.

وكان الضباب قد تبدد من ناحية الغرب ، وما بقى منه فى ناحية الشرق قد راح يهتز ويتأرجح ، وينفرج كستار على مسرح .. وعلى تل يعلو فوق (رازفيليى) ، ويقوم على بعد ميل او اثنين خلفها ، قامت بلدة كبيرة ، بحجم عواصم الأقاليم . وكانت الشمس تعكس الوانها ، وبعد المسافة يبسط خطوطها . وكانت المدينة تتدرج فوق المرتفع ، فى صفوف .. بيت بعد بيت ، وشارع تلو شارع .. وقد توسطت القمة كنيسة كبيرة بدت كدير صحراوى فى لوحة ملونة رخيصة .

وقال يورى فى نفسه منفعلا : « هذه هى يورياتين » .. البلدة التى اعتدت ان اسمع عنها كثيرا من « آنا » ومن الممرضة « انتيبوفا » ! .. ما اغرب ان اراها فى مثل هذه الظروف ! » .

وفى تلك اللحظة ، تحول اهتمام العسكريين عن الآلة الكاتبة ، إلى شىء تبدى لهم خلال إحدى النوافذ الأخرى ، فالتفت يورى بدوره نحوها .. وإذا بفريق من الأسرى يقادون تحت الحراسة إلى درجات المحطة . وكان بينهم غلام فى زى مدرسى ، وقد اصيب بجرح فى راسه ، واجريت له الإسعافات الأولية ، ولكن خيطا من دم كان ينساب خلال الضمادة ، والغلام لا يفتأ يمسحه بيده ، فوق وجهه المسود ، المجلل بالعرق .. ولقد اجتذب الأنظار ـ وهو يسير بين اثنين من رجال الجيش الأحمر ، فى ذيل الجمع ـ لا بما كان يبدو عليه من رباطه جاش ، ولا بحسن طلعته ، ولا بما يثيره فى النفس مأزق متمرد صغير فى مثل سنه ، فحسب .. وإنما كان يستلفت الانتباه بما كان يصدر منه ومن مرافقيه من حركات غير معقولة إطلاقا ، فقد كانوا يفعلون نقيض ما ينبغى ان يفعلوا تماما !

وكان الغلام لا يزال يرتدى قلنسوته المدرسية ، فلم تبرح تنزاح عن راسه المعصوب بالضمادة . وبدلا من ان يخلعها ويحملها فى يده ، راح ـ فى كل مرة ـ يردها إلى مكانها ويحكم وضعها ، فيزحزح الضمادة ويؤذى الجرح . وكان حارساه يساعدانه فى ذلك عن مبادرة وطيب خاطر . وكان فى هذا التصرف الأخرق شىء رمزى يناقض الادراك السليم ، حتى لقد تاق يورى ـ وقد تاثر بما كان لهذا الشىء الرمزى من

معنى ـ إلى ان يندفع إلى الخارج ، فيخاطب الغلام بكلمات كانت تفور وتغلى فى صدره . كان يتحرق إلى ان يصرخ فى الغلام ، وفى القوم الذين كانوا فى عربة السكة الحديدية ، بان الخلاص والنجاة ليسا فى الولاء لصيغ وازياء ، وإنما فى طرح الصيغ والأزياء جانبا !

* * *

وتحول عن النظر إلى النافذة ، وإذا ستريلنيكوف يقبل فى خطى واسعة ، قوية ، فيقف فى وسط الحجرة . كيف تسنى له ـ وهو طبيب ، وله كل اولئك الآلاف من المعارف ـ ان لا يلتقى قبل اليوم بشخصية محددة المعالم تماما ، كهذا الرجل ؟ .. كيف لم تدفعهما الأقدار من قبل إلى لقاء ، وكيف لم يقدر لطريقيهما فى الحياة ان يتقابلا ؟

ولسبب غير معروف ، تجلى ـ منذ الوهلة الأولى ـ ان هذا الرجل كان نتاجا مصقولا للارادة والعزيمة . كان كاملا فى نفسه ، النفس التى اختار ان يكونها ، حتى ان كل شىء فيه كان يبدو للمرء ـ فورا ـ كمثال نموذجى لنوعه : راسه المليح الشكل ، المتناسب الأجزاء .. خطوته القوية الظافرة .. ساقاه الطويلتان .. حذاءاه اللذان وصل طماقاهما (التزلك) إلى ركبتيه ، واللذان كانا يبدوان نظيفين ، برغم انهما كانا خليقين بأن يكونا ملطخين بالوحل .. وزيه

العسكرى الرمادى، الذى بدا وكأنه مصنوع من افضل انواع التيل ، وكان المكواة مرت عليه لفوره ، مع انه كان خليقا بان يبدو مجعدا .

وهكذا كان تأثيره الذى لا يقاوم .. تأثير مسلكه الخالى من كل انتعال وتكلف ، وشعوره بأنه فى مجاله الذى خلق له ، فى أى موقف فى الدنيا يمكن ان يخطر بالبال .. وقال يورى فى نفسه إنه كان — ولا بد — ذا موهبة فذة ، ولكنها لم تكن بالضرورة موهبة الأصالة والتفرد . فان قوة الشخصية التى تبدت فى كل حركة من حركاته ، كان من الممكن أن تكون تقليدا ، كما كان من الممكن ان تكون طابعا أصيلا .. فلقد كان كل امرىء يشكل نفسه — فى تلك الأيام — على نمط امرىء آخر ، فيقلد ابطال التاريخ ، أو أولئك الذين استولوا على خيال الناس باكتساب السمعة الذائعة فى الميدان ، أو فى القتال فى الشوارع .. أو اولئك الذين اوتوا نفوذا ومكانة لدى الشعب ، أو هذا الرفيق أو ذاك ممن امتازوا على سواهم .. أو كانوا يقلدون بعضهم بعضا !

وكتم ستريلنيكوف — فى تأدب — كل دهشة أو استياء ربما كان قد ساوره لوجود يورى ، وخاطب رجاله وكأنما كان يورى واحدا منهم : « اهنئكم .. لقد صددناهم ورددناهم على اعقابهم .لكانى بالامر كله اشبه باللعب منه بحرب جدية ، لأنهم لا يقلون عنا انتماء لروسيا وتعلقا بها ، ولكن رؤوسهم

محشوة بسفاسف . .وهم يأبون ان ينزلوا عن هذه السفاسف ، ومن ثم فنحن مضطرون إلى ان نطردها من رؤوسهم طردا . لقد كان قائدهم صديقا لى ، وإنه لأكثر منى انتماء إلى طبقة الدهماء ، فى الأصل ، فقد نشأنا فى بيت واحد . ولقد ادى لى خدمات كثيرة فى حياتى ، حتى إننى مدين له بفضل عظيم . ومع ذلك ، فها انذا اغتبط إذ رددناهم إلى ما وراء النهر ، وربما ابعد من ذلك .. اسرع فى إصلاح الأسلاك يا جوريان ، فنحن بحاجة إلى التليفون ، وليس بوسعنا ان نكتفى بارسائل البرقية وبالسعادة .. الا ترون أن الحر يشتد ؟ .. ومع ذلك فقد استطعت ان اظفر بساعة من النوم . آه ، حقا ! » .

والتفت إلى « يورى » وقد تذكر انه أوقظ من نومه لينظر فى بعض العبث الذى نسب إلى هذا الرجل .. وقال لنفسه وهو يحدجه بنظرة حادة : « هذا الرجل ؟ .. هراء ! إنه لا يشبه ذاك فى شىء . يا للحمقى ! » . وضحك قائلا ليورى : « اعتذاراتى ايها الرفيق . لقد ظنوك شخصا آخر ، فإن حراسى يرتكبون الاغلاط . إنك فى حل من ان تنصرف .. اين بطاقة العمل الخاصة بالرفيق ؟ .. آه ، ها هى ذى اوراقك . هل لى ان القى عليها نظرة .. جيفاجو .. جيفاجو .. دكتور جيفاجو ، من موسكو .. ومع ذلك ، فهل ندلف إلى غرفتى لنقضى لحظة معا ؟ .. هذا مقر السكرتيرية التابعة

لى .. أما أنا فأقيم فى العربة المجاورة . تفضل ، ولن أستبقيك طويلا ! » .

- ٣٠ -

● ترى من كان ستريلنيكوف هذا ؟

كان من العجب المذهل حقا أن يصل إلى مركزه ذاك ويحتفظ به ، إذ إنه لم يكن من رجال الحزب الشيوعى ، وكان — برغم أنه ولد فى موسكو — غير معروف البتة ، إذا أنه تولى بمجرد تخرجه فى الجامعة منصبا للتدريس فى الأقاليم . وقد وقع فى الأسر أثناء الحرب ، وأذيع أنه مفقود ، ثم رجح الظن بأنه قتل .. ولم يقدر له أن يعود من الأسر فى ألمانيا إلا مؤخرا . وما دفعه وشهد له بالجدارة سوى « تيفرزين » ، عامل السكك الحديدية ، ذى الآراء السياسية المتطرفة ، الذى أقام « يورى » بين أسرته فترة من الزمن وهو صغير !

.. ولقد بهر ستريلنيكوف أولئك الموكلين بالمناصب ، فى تلك الأيام غير العادية التى كان لإجادة الخطابة وللتطرف السياسى شأن كبير فيها .. فإن حماسه الثورى الجامح كان يلائم روح الوقت ، واستطاع أن يبرز بصدق حميته ، وبتهوسه فى التطرف ، وهما خلتان لم يقتبسهما عن أحد ، ولا جاءتاه عفوا ، وإنما كانتا من وحى نفسه ، وقد اصطنعهما لنفسه متعمدا ، وأنمتهما ظروف حياته .

واستطاع أن يكون أهلا لثقة السلطات .. وكان بين ما تضمنته صفحته فى النضال — خلال الأشهر القلائل الأخيرة — حرق (كيلمس) السفلى ، التى عطل الجليد عندها قطار يورى .. وقمع تمرد فلاحى (جوباسوفو) الذين لجأوا إلى المقاومة المسلحة ضد ما فرض عليهم تقديمه من أغذية .. والقضاء على تمرد رجال الكتيبة الرابعة عشرة الذين اغتصبوا قافلة للمؤن . كذلك تولى أمر جنود « رازين » — الذين أشعلوا ثورة فى بلدة (تركاتوى) ، وانضموا إلى صفوف البيض[١] — ومتمردى (تشيركين أوس) ، حيث لقى قائد موال للحمر مصرعه !

وكان توفيقه فى كل حالة باعثا على الدهشة والعجب .. فقد كان يتحرى ، ويجرى التحقيقات ، ويعقد المحاكمات ، ويصدر الأحكام ، وينفذ أحكامه بسرعة ، وقسوة ، وحزم . واستطاع أن يفرض سلطاته على وباء الفرار من الجيش ، وأعاد تنظيم صفوف المجندين . وكان من نتائج ذلك أن اشتدت حركة التطوع ، وراحت مراكز استقبال المتطوعين فى الجيش الأحمر تعمل بنشاط محموم !

---

(١) كان « ستينكا رازين » قائد ثورة شعبية فى القرن السابع عشر ، وقد أطلق اسمه على الثوار من أتباع مدرسته .

واخيرا ، ما إن ازداد ضغط البيض من الشمال ، واصبح الموقف خطيرا ، لا سبيل إلى إنكار خطورته ، حتى وكلت إلى ستريلنيكوف مسئوليات جديدة حربية : تخطيطية ، وتنفيذية ، فاذا جهوده تؤتى ثمارا مباشرة سريعة .. وكان « ستريلنيكوف » — ومعنى الاسم « السديد الرماية » — يعرف أن الشائعات قد اطلقت عليه اسم « رازستريلنيكوف » — اى « الجلاد » ، منفذ حكم الإعدام — ولكنه تلقى هذا اللقب فى هدوء ، فما كان لشىء أن يضايقه !

ولقد كان ابوه عاملا ، سجن لاشتراكه فى ثورة سنة ١٩٠٥ . ولم يكن «ستريلنيكوف» نفسه قد اشترك فى الحركة الثورية فى تلك السنين : لأنه كان فى بدايتها صغير السن .. وفيما بعد ، لأن الشبان الذين كانوا يصلون إلى الجامعة — من ابناء الطبقات الفقيرة — كانوا اكثر تقديرا من سواهم لقيمة التعليم العالى ، وكانوا اكثر جدا واجتهادا من ابناء الأغنياء . وقد جمع قدرا هائلا من المعرفة ، حتى إذا ظفر بشهادة فى الآداب ، حرص — فيما بعد — على أن يثقف نفسه فى العلوم والرياضيات .

.. ثم تطوع يوما للانخراط فى الجيش ، فعين صف ضابط ، واوفد إلى الجبهة ، حيث وقع فى الأسر .. حتى إذا سمع بنبأ الثورة فى روسيا ، هرب فى سنة ١٩١٧ ، وعاد إلى

وطنه .. وكان ذا مقدرة فذة على التفكير والجدل الواضحين، المنطقيين ، كما أوتى نقاء خلقيا عظيما وشعورا بالعدالة والانصاف .. ثم إنه كان إلى جانب ذلك دؤوبا فى جده ، امينا ، شريفا .

ولكن عقله كان يفشل فى تمكينه من أن يخترق الحجب ، فى المجال الذى يستطيع رجل العلم أن يفتح فيه آفاقا جديدة .. فلم يؤت المقدرة على إحراز تلك المكتشفات غير المرتقبة .. ثم إنه كان فى حاجة — لكى يفعل الخير للغير — إلى قلب لا يخضع للمبادىء ، إلى جانب عقله الزاخر بالمبادىء .. قلب من ذلك النوع الذى لا يعرف حالات عامة ، بل لا يعرف من الحالات سوى الخاصة .. قلب مفعم بعظمة الأعمال الصغيرة !!

وكان منذ طفولته مليئا بالآمال السامية والطموح الرفيع ، فاعتاد أن ينظر إلى الدنيا كحلبة واسعة ، مترامية الأطراف ، يتنافس فيها كل إنسان سعيا وراء الكمال ، وهو يلتزم قواعد التنافس بضمير حى . فلما الفى أن الحياة الحقيقية لم تكن على هذه الشاكلة ، لم يخطر له أن رايه فى نظام الدنيا كان مبسطا اكثر مما ينبغى ، بل طوى جوانحه على

احزانه وحسراته ، ودفن معهـا الطمـوح إلى ان يحكم بين الحيـاة وقـوى الظلام التى تشـوهها ، وإلى أن يكون بطلا .. نصيرا للحياة ومدافعا عن مثلها العليا !

وإذ كان ممرور النفس — لما منى به من خيبة الامل — فإنه لم يلبث ان تسلح بالثورة !

— ٣١ —

● راح ستريلنيكوف يردد ، إذ استقر بهما المقـام فى غرفته : « جيفاجو .. جيفاجو .. من أهل التجارة ، فيمـا اظن . ام تراك من علية القوم .. آه طبيب من موسكو ، حقا .. وذاهب إلى (فاريكينو) ؟ .. هذا غريب ، فلماذا تهجر موسكو إلى مثل هذا المعزل القصى ؟ » .

— لنفس هذا الوصف . بحثا عن الهدوء ، والاعتزال ، والأنضواء فى غمرة النسيان !

يا للعجب ! .. يا لهـا من فكرة خيالية شاعرية ! .. (فاريكينو) ؟ .. إننى اعرف معظم بقاع هـذه المنطقة . لقد كانت فاريكينو ضيعة لكروجر . ما احسـبك قريبـا له ؟ .. ما احسبك وريثه ؟ !

— فيم السخرية ؟ .. كونى « وريثـا » لا شـأن له بالموضوع . وإن كانت زوجتى فى الواقع ...

— آه ، إذن فأنت تدرك الوضع ! .. ولكننى ساخيب آمالك إذا كنت تشـعر بالحنين إلى البيض ، إذ اننا طهرنـا المنطقة منهم !

— اما زلت تسخر منى ؟

— ثم إنك طبيب ، ضـابط بالجيش ، ونحن فى حرب . إن هذا يدخل فى نطاق اختصاصى فى الواقع . فأنت هارب من الخدمة ! .. إن الخضر(١) ينشدون — هم الآخرون — ملاذا فى الغابات .. ما مبرراتك ؟

— لقـد جرحت مرتين ، وسرحت كمريض فى حاجة إلى النقاهة ..

— لعلك ستدفع إلى بعد هذا بشهادة من قوميسـارية الشعب للتربية والتعليم او الصـحة ، لتثبت انك مواطن سوفييتى ، أو « منـاصر » ، أو « موال ولاء تاما » للنظـام

(١) كان لقب « الخضر » يطلق على الفوضويين الذين كانـوا يقاتلون البيض والحمر على السواء .

السوفييتى! .. هذه الأوقات غامضة يا سيدى العزيز .. هذا هو وقت الحساب الأخير .. إنها الأوقات التى تحتاج إلى ملائكة ذوى سيوف ملتهبة ، وإلى وحوش مجنحة من الجحيم ، لا إلى أطباء « مناصرين » أو « موالين » . على أننى أنبائك بأنك حر ، فى حل من الانصراف ، ولن أسحب كلمتى ، ولكن تذكر أنها لن تتكرر . إن ثمة شعورا يخالجنى بأننا سنلتقى ثانية ، وإذ ذاك فسوف يكون حديثنا مختلفا عن هذا . فخذ حذرك !

ولم يهتز « يورى » بالوعيد ، ولا بالانذار ، بل قال : « إننى أعرف ما تظنه فىّ . وإنك لعلى حق ، من وجهة نظرك .. ولكن النقطة التى تبغى أن أناقشك حولها نقطة طالما بحثتها مع شخصية وهمية كانت توجه إلى الاتهام طيلة عمرى ، ومن المستغرب حقا أن لا أكون قد وصلت فى الجدال إلى نتائج .. فأنا قد وصلت فعلا ، ولكننى لا أستطيع أن أشرح هذه النتائج فى كلمتين . لذلك فاسمح لى — إذا كنت حرا كما ذكرت — بأن أنصرف ، دون أن أسوى المسألة معك . أما إذا لم أكن حرا ، فعليك أن تقرر ما تفعله بى ، فليست لدى معاذير أقدمها إليك » .

وقطع عليهما الحديث رنين التليفون ، إذ كان الخط قد

أصلح . ورفع ستريلنيكوف المسماع ، وقال : « شكرا يا جوريان . والآن ، تكرم بإرسال شخص يرافق الرفيق جيفاجو إلى قطاره . ولست أريد مزيدا من الأحداث من هذا القبيل .. ثم وصلنى بمصلحة النقل الخاصة برازفيليى! » .

* * *

وعندما انصرف جيفاجو ، اتصل ستريلنيكوف بمحطة السكة الحديدية تليفونيا ، وقال : « هناك تلميذ أحضروه مع الأسرى ، ولا ينفك يجذب قلنسوته على أذنيه ، كما أن رأسه معصوب بضمادة .. شىء مشين حقا ! .. هذا صحيح .. يجب أن يحظى بإسعاف طبى ، إذا كانت حالته تستدعى ذلك .. بكل تأكيد .. أجل ، كإنسان عينك تماما ، وستكون مسئولا شخصيا أمامى . تريد مؤنا كذلك ، إذا استدعى الأمر ؟ هذا حق ! .. والآن ، لنتكلم فى الأمور الجدية .. ما زلت أتكلم ، فلا تقطع الخط .. يا للعنة ، هناك شخص آخر على الخط .. جوريان! .. جوريان! .. لقد قطعوا الاتصال! » .

وعدل عن محاولة إتمام حديثه مؤقتا ، وراح يقول لنفسه : « ربما كان الغلام من تلاميذى القدامى ، وقد رأى أنه كبر ، فجاء يقاتلنا ! » .. وأحصى السنين التى انقضت مذ

هجر التدريس ، ليتبين ما إذا كان من المحتمل أن الغلام كان يوما من تلاميذه .. ثم أطل من النافذة ، وتطلع نحو الأفق ، وراح يبحث عن الحى الذى كان يعيش فيه مع زوجتـــه ، فى (بورياتين) .. هب أن زوجته وابنته ما زالتا مقيمين هناك ! .. أليس بوسعه أن يذهب إليهما ؟ .. ولم لا يذهب الآن ، فى هذه اللحظة بالذات ؟ .. أن بوسعه أن يذهب ، ولكن كيف ؟ .. لقد كانتا تمتان إلى حياة أخرى . فعليه أولا أن يمضى فى هذه الحياة الجديدة إلى نهايتها ، ثم يكون له أن يعــود إلى تلك الحياة التى قطع استرسالها .

لسوف يفعل ذلك يوما ما .. يوما ما .. ولكن متى .. متى ؟

انتهى الفصل السابع ، وهو نهاية الجزء الثانى ، ويليه الجزء الثالث ، الذى يبدأ بالفصل الثامن .



عزيزى القارئ ..

قدمت لك من قبل الجزء الأول من هذه الطبعة الجديدة للترجمة الكاملة الأمينة لملحمة هذا العصر (دكتور چيفاجو) ، واليوم أقدم لك فى هذا الكتاب الذى بين يديك الجزء الثانى من هذه الطبعة الجديدة للرواية التى أحدثت عند صدورها فى أوائل عام ١٩٥٩ شبه «زلزال» ثقافى ، على أثر منح مؤلفها جائزة نوبل فى الأدب فى أكتوبر ١٩٥٨ ، وما تلا ذلك من رفضه للجائزة ، نظرًا للحرج الذى أصابه من جراء منحه إياها من جانب المحافل الأدبية فى المعسكر الغربى المناهض للشيوعية ، مما أثار نقمة السلطات السوفييتية عليه ، لما تضمنته الرواية من إدانة للثورة البلشفية التى أنهت الحكم القيصرى فى روسيا فى عام ١٩١٧ وأرست دعائم الشيوعية فى تلك الدولة المترامية الأطراف الواقعة بين قارتى أوربا وآسيا . وسوف تقرأ الجزءين الثالث والرابع (الأخير) من هذه الترجمة الكاملة للرواية قريبًا جدًّا بإذن الله . والله ولى التوفيق.

حلمى مراد

قرش جنيه
٣٠٠ قرشًا